رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من سير الخالدين بأقلامهم

أحمد شوقي - محمد البشير الإبراهيمي - محب الدين الخطيب

جمعها ونسقها وصححها وقدم لها وفهرسها

حسن السماحي سويدان

دار القادري

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

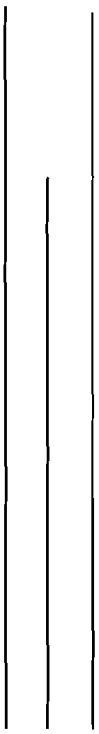

من سير الخالدين بأقلامهم

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

دار القادرية
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - ص.ب ١٠٣٤٤

بيروت - ص.ب ١١٣/٥٥٨٧

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

وثائق تاريخية

٢

من سير الخالدين بأقلامهم

أحمد شوقي - محمد البشير الإبراهيمي - محب الدين الخطيب

جمعها ونسقها وصححها وقدم لها وفهرسها

حسن السماحي سويدان

دار القادري

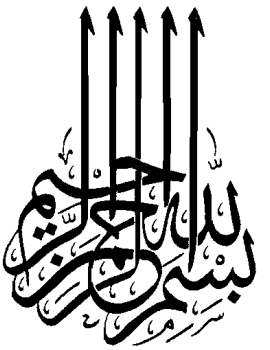

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه سير ذاتية لثلاثة من أعلام العرب المسلمين في العصر الحديث، من الرواد الذين شاركوا في بناء مجد الأمة، ونذروا أنفسهم وأموالهم لخدمتها والعمل على رقيها وسؤددها، وصنعوا تاريخها الأبلج، كلٌّ في مجاله الذي هيأه الله له.

أما العلَم **الأول**، فهو أمير الشعراء **أحمد شوقي** أشهر شعراء العرب في العصر الحديث، وأحد أمراء البيان، الذي بنى للعرب والمسلمين مجداً أدبياً باذخاً، بما صاغ من قصائد غرّ، ضمنها تاريخ الأمة وبطولاتها، فكانت أنشودة السائرين في طريق المجد والحرية، وترنيمة لشباب العرب الثائر من أجل حقه في الحياة الأبية الكريمة، لأنها كانت استجابة لمشاعر الشعب العربي من المحيط إلى الخليج.

وهو في هذا الكتاب يترجم لنفسه في مقدمة شوقياته المطبوعة في مطبعة الآداب والمؤيد عام (١٨٩٨)م، فيذكر رأيه في الشعر والشعراء، ثم يتحدّث عن نشأته وتكوينه وتجربته حتى نشره للشوقيات عام (١٨٩٨) م. وهذه الترجمة تعتبر وثيقة تاريخية عن الشاعر، لا يستغني عنها باحث في شعر شوقي أو تاريخ الشعر الحديث.

أما **العلم الثاني** فهو العلامة المجاهد **محمد البشير الإبراهيمي**، رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، وأحد أمراء البيان في دنيا العربية، ورائد من رواد النهضة العربية الإسلامية.

لقد وهبه الله ملكة علمية فائقة، وبيئة علمية عالية، واجتهاداً في طلب العلم، فاكتملت له بذلك أدوات العالم، فنذر نفسه لأمته ولوطنه الجزائر، فعمل مع رفيق دربه الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس على وضع أسس النهضة الإسلامية في الجزائر، وشارك في بنائها، ورعاها بعد استوائها، وبقي حاملاً للواء الجهاد في سبيل الله حتى وافاه الأجل عام ١٩٦٥م.

وفي هذا الكتاب ترجمة للإبراهيمي بقلمه كان قد قدّمها للمجمع اللغوي في القاهرة، وهي أيضاً وثيقة تاريخية في غاية الأهمية عن جهاد الإبراهيمي العالم القدوة، وعن جهاد الشعب الجزائري في سبيل الحرية والتقدم، لا يستغني عنها باحث في هذين الشأنين، كما تعتبر حافزاً للشباب العربي المسلم ليجد ويجتهد كما جدّ واجتهد أسلافه الذين تسنّموا ذروة المجد، وتركوا في الدنيا أثراً طيباً يرضي الله سبحانه، ويرضي كل غيور على دينه وأمته.

وأما **العلم الثالث**: فهو رائد من رواد النهضة العربية في العصر الحديث، ومفكر من أعلام الفكر الإسلامي، وأحد شيوخ الصحافة العربية، **إنه الأستاذ محبّ الدين الخطيب** صاحب مجلة «الزهراء» وجريدة «الفتح» ومؤسس «المطبعة السلفية ومكتبتها» بمصر التي كان لها دور كبير في نشر روائع التراث العربي والإسلامي.

في هذا الكتاب «سيرة جيل» يتحدّث الأستاذ محب الدين فيها عن حياته وجهاده في العهد العثماني، ثم في عهد الثورة العربية الكبرى، ثم في العهد العربي، ثم عن بدايات إقامته في مصر بعد الانتداب الفرنسي على سورية.

وتستغرق هذه المذكرات الفترة من (١٣٠٣ هـ ـ ١٨٨٦م) إلى (١٣٤٧ هـ ـ ١٩٢٨ م).

وهذه المذكرات وثيقة مهمة من وثائق النهضة العربية الحديثة لا يَستغني عنها باحث في حياة الأستاذ محبّ الدين الخطيب، أو في نشأة وتكوين جيل النهضة العربية.

* * *

وقد اعتمدت في نشر ترجمة أحمد شوقي على «الشوقيات» القديمة، المنشورة في مطبعة «الآداب والمؤيد» عام (١٨٩٨).

كما اعتمدت في نشر ترجمة محمد البشير الإبراهيمي على ما نشرته مجلة «مجمع اللغة العربية» بمصر (٢١ : ١٥٢) سنة (١٣٨٦) وقد أعادت نشر هذه الترجمة مجلة «الثقافة» الجزائرية في عددها التذكاري عن الإبراهيمي ورقمه (٨٧) سنة (١٩٨٥)م.

كما اعتمدت في نشر «سيرة جيل» أو مذكرات محب الدين الخطيب عن النهضة العربية في أوائل القرن الهجري الرابع عشر على ما نشرته مجلة «الثقافة»[١] الجزائرية حيث دفع الأستاذ الخطيب قبل وفاته بأشهر مذكراته «سيرة جيل» إلى الأستاذ صالح خرفي رئيس تحرير مجلة «الثقافة» قائلاً له: خذ ما تشاء من هذه المذكرات، وانشر منها ما تشاء، ولا تعجب فإنكم تفهموننني هناك[٢] أكثر مما يفهموننني هنا[٣].

وعلى نشرة جمعية التمدن الإسلامي «للمذكرات»[٤] التي وزعتها ملحقاً سنوياً لمجلة «التمدن الإسلامي» عام ١٩٧٩.

---

(١) أي في الجزائر.

(٢) أي في مصر.

(٣) اعتباراً من العدد السادس من السنة الثانية عام (١٩٧٢).

(٤) العنوانات في مذكرات الخطيب من وضع «مجلة التمدن الإسلامي» بدمشق.

وعلى القسم الذي نشره من المذكرات الدكتور محمد عبد الرحمن برج في كتابه «محب الدين الخطيب ودوره في الحركة العربية» من سلسلة «أعلام العرب» عام (١٩٩٠)م.

صححت النصوص بمقابلة طبعاتها المختلفة، ووضعت علامات الترقيم اللازمة، وصححت الأخطاء المطبعية الواردة في الأصول، وزودت الكتاب بصور نادرة لهؤلاء الأعلام، وعلقت تعليقات موجزة وضعتها بين حاصرتين تمييزاً لها عن تعليقات أصحاب التراجم الأعلام، وأخيراً فهرست الكتاب فهرسة كاملة.

وإنني أتوخى من نشر هذا الكتاب غايتين اثنتين:

الأولى: **تربوية توجيهية**، إذ في اطلاع شباب اليوم الذين هم رجال المستقبل على سير هؤلاء الرجال شحذٌ للهمم نحو المعالي، وشدٌّ للعزائم لتعملَ بصبر وأناة ودأب لتحقيق الهدف الغالي، الهدف الذي تجد فيه الأمةُ سعادتها وسؤددَها، وكأني بالعلامة الإبراهيمي يهيب من وراء هذه السطور حاثاً شباب اليوم بقوله: أتمثله ـ أي الشباب ـ مقداماً على العظام في غير تهور، محجاماً عن الصغائر في غير جبن، مقدراً مواقع الرِّجل قبل الخطو، جاعلاً أول الفكر آخر العمل.

أتمثله واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كل عربي أخاً له أخوة الدم، وكل مسلم أخاً له أخوة الدين، وكل بشر أخاً له أخوة الإنسانية، ثم يعطي لكل أخوة حقها فضلاً أو عدلاً.

أتمثله حليف عمل لا حليف بطالة، وحلس معمل لا حلس مقهى، وبطل أعمال لا ماضغ أقوال، ومرتاد حقيقة لا رائد خيال.

أتمثله مقبلاً على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع، إقبال النحل على الأزهار والثمار لتصنع الشهد والشمع، مقبلاً على الارتزاق إقبال

النمل تجدّ لتجدَ، وتدخر لتفتخر، ولا تبالي ما دامت دائبة أن ترجع مرة مُنْجِحَة، ومرة خائبة[١].

لم يكن طريق شوقي والإبراهيمي والخطيب مفروشاً بالورد، بل كان مليئاً بالصعاب الجسام وأكبرها الاستعمار، فلم يأبهوا لكل ذلك، بل وضعوا نصب أعينهم هدفاً سامياً يرضي الله سبحانه، ويحقق للأمة السؤدد والفلاح، ثم شمّروا عن سواعدهم، لا يصرفهم عن طريقهم أي صارف، حتى وصلوا إلى هدفهم أو قاربوا، فما أجدر شبابنا أن يقتديَ بسلفه القريب هذا ليكونَ امتداداً لأمجاد الأمة.

والثانية: **تاريخية**، فيها خدمة للحقّ والحقيقة، التي ينشدها كل مفكر حرّ الضمير، يحرص على قراءة التاريخ كما هو لا كما يحلو له.

وفي الختام: أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إنه سميع قريب، والحمد لله رب العالمين.

دمشق ١٠/ ٢/ ١٤١٨
١٦/ ٦/ ١٩٩٧

حسن السماحي سويدان

(١) عيون البصائر (٥٨٦) وانظر تمام كلامه في الملحق ص(١٧٨ ـ ١٨٤).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أمير الشعراء
أحمد شوقي

سيرة ذاتية

١٨٧٠ ـ ١٨٩٨

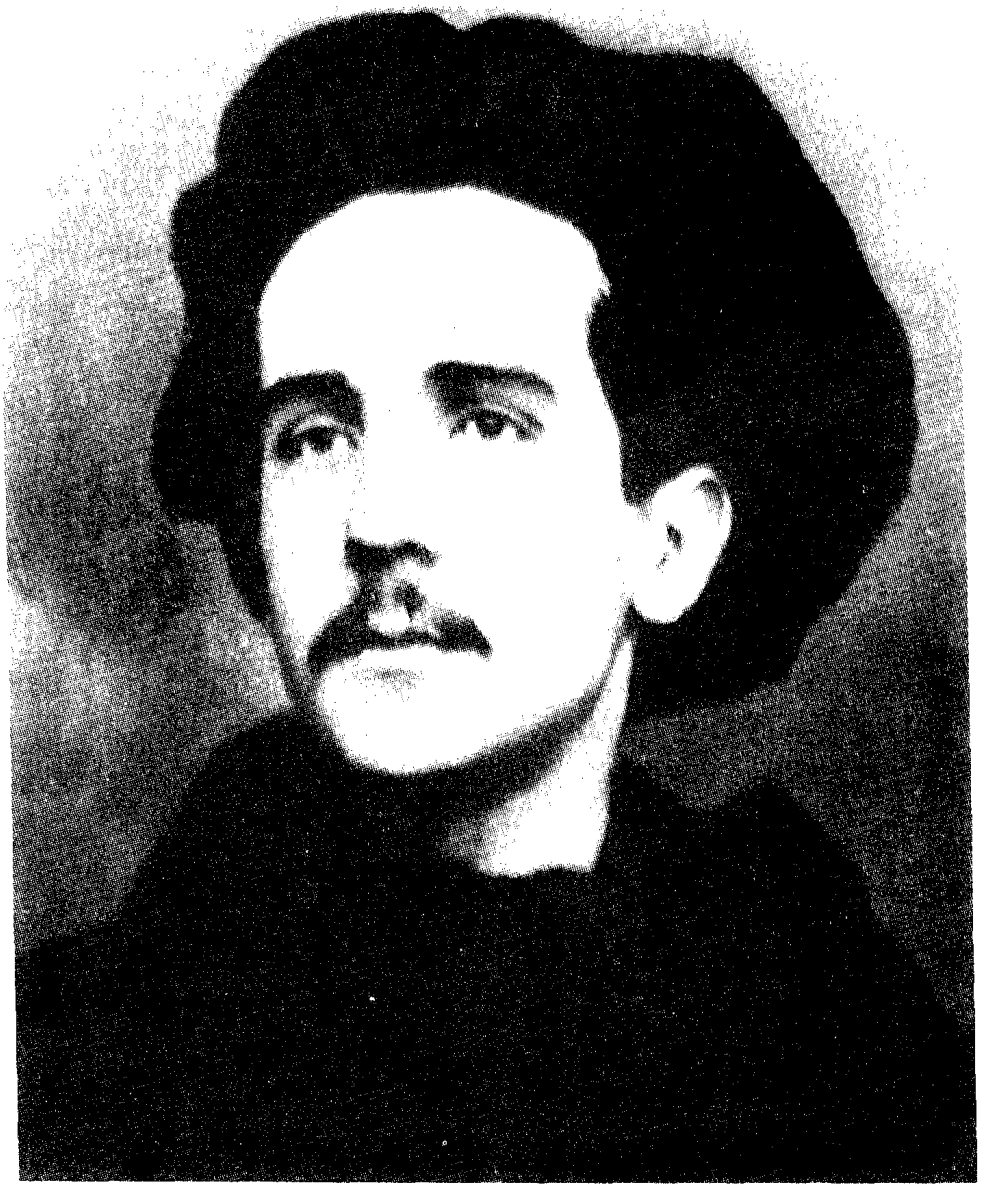

الشاعر أحمد شوقي طالب في جامعة مونبليه عام (١٨٩٢)

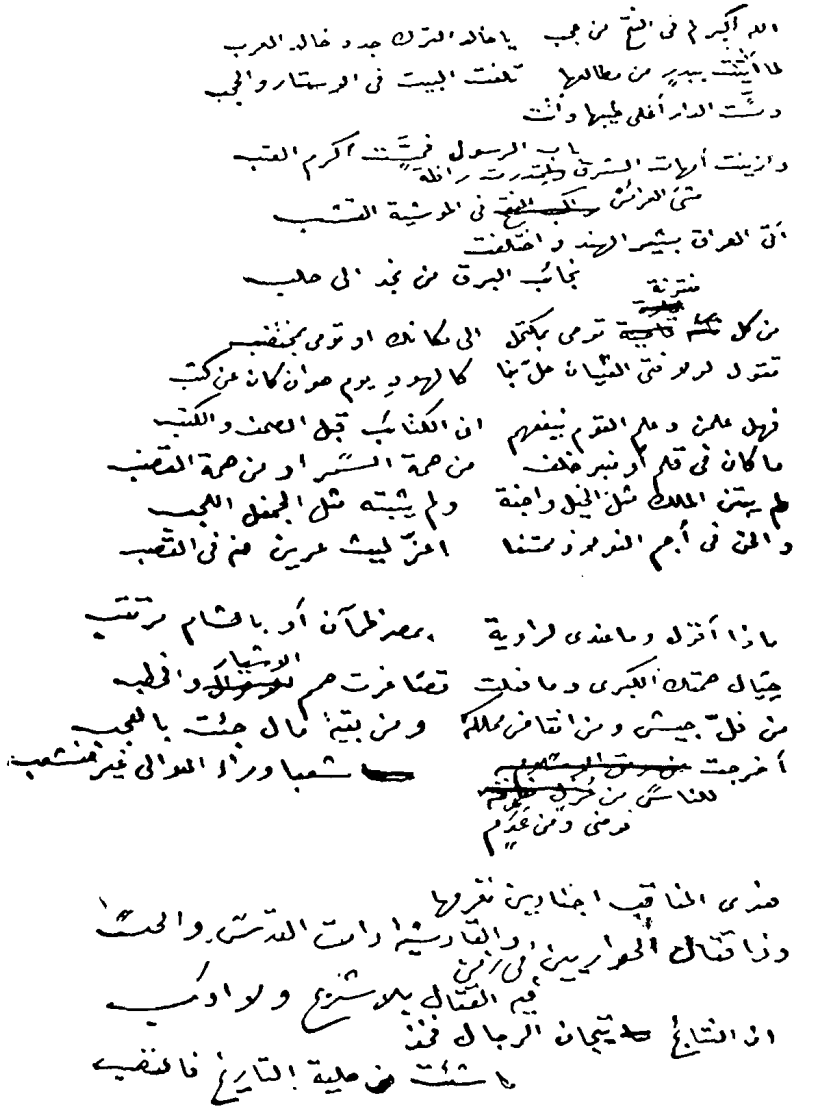

خط أحمد شوقي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علّم البيان، وجعلَه أثراً من روحه عند الإنسان، والصّلاة والسّلام على نبي الأمة، القائل: «إنّ مِن الشعر لحكمة»[1].

أما بعد: فما زال لواءُ الشعر معقوداً لأمراء العرب وأشرافِهم، وما برح نظمُه حبيباً إلى علمائهم وحكمائهم، يمارسونه حقّ المراس، ويبنون كل بيت منه على أمتنِ أساس، موفّين إجلاله، حافظين خلاله، مُدْنِين إلى الأذهان خياله.

قاله امرؤ القيس واصفاً وحاكياً، وضاحكاً وباكياً، وناسباً وغازلاً، وجادّاً وهازلاً، وجمع شملَه، بحيث تُعَدُّ المنظومةُ الواحدة له أثراً في البيان مستقلاً، وبنياناً قائماً برأسه.

ونظمه أبو فراس فخراً عالياً، ونسيباً غالياً، وحكماً باهرة، وأمثالاً سائرة، لكنه لم يقلْهُ فوضى، ولا قرب في نظمه الخلط، فإن قصيدتَه المشهورة التي يقول في مطلعِها:

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتُك الصّبرُ أما للهوَى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ

ليست إلا عِقْداً توحَّد سِلْكُه، وتشابهت جواهرُه، ودقّ نظامُه، تعاونت فيه ملكة العربي وسليقة الشاعر على حسن الحكاية، فإذا فرغتَ من قراءتها فكأنك قد قرأتَ أحسنَ رواية.

---

(١) [أخرجه البخاري رقم (٦١٤٥)].

وهذا وكونها أشبهَ شيءٍ بالشعر في شعورِ الأنفسِ؛ هما سِرُّ بقائها متلوةً إلى الأبد.

وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق في شعره، ويوعي تجارب الحياة في منظومه، ويشرحُ حالات النفس، ويكادُ ينال سريرتها.

ومن تأمّل قولَه من قصيدةٍ:

فلا هطلتْ عليّ ولا بأرضي سحائبُ ليسَ تنتظِمُ البلادا

وقابل بين هذا البيت وبين قولِ أبي فراس:

معلِّلَتي بالوصلِ والموتُ دونَه إذا مِتُّ ظمآناً فلا نزلَ القَطْرُ

ثم نظرَ إلى الأول كيف شرع سُنَّةَ الإيثار، وبالغَ في إظهارِ رِقَّةِ النفس للنفس، وانعطافِ الجنس نحو الجنس، وإلى الثاني كيف وضع مبدأ الأَثَرَة، وغالى بالنفس، ورأى لها الاختصاص بالمنفعة في هذه الدنيا، تعيش فيها جافية، ثم تخرج منها غير آسية؛ **علم** أنّ شعراء العرب حكماء، لم تغربْ عنهم الحقائق الكبر ، ولم يفتهم تقرير المبادىء الاجتماعية العالية، وأنهم أقدرُ الأمم على تقريبها من الأذهان، وإظهارِها في أجلى وأجمل صورِ البيان.

وكان أبو العتاهية ينشىء الشعر عبرةً وموعظةً، وحكمةً بالغةً موقظةً. وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يُرْجَعُ إليه كذلك في الوعظ والإرشاد، والتحذير من الرذائل، والإغراء بالفضائل.

كان الشافعي رحمه الله وهو القائل:

ولولا الشعرُ بالعلماءِ يُزْرِي لكنتُ اليومَ أشعرَ من لبيدِ

تجري ألفاظه بالشعر، وله مقاطيع مختارة، وحِكَمٌ في الناس سيّارة،

وحسبُك أنّ الطِّبَّ جميعُه لو جُمِعَ لما خرج عن البيتين المنسوبين إليه وهما:

ثــلاثٌ هــنّ مهلكــة الأنــامِ وداعيــةُ الصحيــحِ إلــى السَّقــامِ
دوامُ مــــدامــــةٍ، ودوامُ وطءٍ وإدخــالُ الطعــامِ علــى الطعــامِ

ولو انفسح لهؤلاء وأمثالهم المجال من الزمان والمكان، وشهدوا عصر البخار كما نشاهده، وكابدوا الدهر في الهرم مثلما نكابده لامتلأت الصدور من محفوظ أشعارهم، ولضاقت المطابعُ ـ على تنافسها ـ عن نشر آثارهم.

* * *

قدمنا هذا ليعلمَ به فريقٌ يحتقرون الشعر، وآخرون منّا معشرَ الشبان يُضْمِرُونَ للعربي منه عداوةً من جهل الشيء، ويرون بينه وبين الشعر الأفرنجي بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب، ناسين أنّ العرب أمةٌ قد خلتْ، ودولة تولّتْ، فلا ينبغي أن يُؤَاخذوا إلا بما تركوا، وأن المسؤول عن خروجه بعدهم من هالته إنما هو الخلف المفرّط، والوارث المتلاف.

واشتغل بالشعر فريقٌ من فحول الشعراء جنوا عليه، وظلموا قرائحهم النادرة، وحرموا الأقوام من بعدهم.

فمنهم من خرج من فضاء الفكر والخيال، ودخل في مضيق اللفظ والصناعة.

وبعضهم آثر ظلمات الكلفة والتعقيد على نور الإبانة والسهولة.

ووقف آخرون بالقريض عند القولِ المأثور: «القديم على قدمه» فوصفوا النوق على غير ما عهدها العرب عليه، وأتوا المنازل من غيرِ أبوابها، ودخلوا البيداء على سراب.

وانغمس فريقٌ في بحار التشابيه حتى تشابهت عليهم اللُّجج، ثم خرجوا منها بالبلل.

وزعمتْ عصبةٌ أنّ أحسن الشعر ما كان بواد، والحقيقة بواد، فكلّما كان بعيداً عن الواقع، منحرفاً عن المحسوس، مجانِباً للمحتمل كان أدنى في اعتقادهم إلى الخيال، وأجمعَ للجلال والجمال، حتى نشأ عن ذلك الإغراقُ الثقيلُ على النفوس، والغلو البغيض إلى العقول السليمة.

على أن الكلّ قد مارسوا الشعر فنّاً على حدة، واتخذوه حرفة، وتعاطوه تجارة، إذا شاء الملوك ربحتْ، وإذا شاؤوا خسرتْ، ثم لم يكفهم ذلك حتى هجوا الشعر وذمّوه بكل لسان، فزعموه مجلبة الشقاء، وقالوا: إنه محسوب على الشعراء، يغيض من أرزاقهم، وينحتُ من قلوبهم، ويعرّضهم لإراقة ماء الوجوه.

ولقد والله زعموا صدقاً، وقالوا حقاً، وإن هذا لجزاء فئة يتوقعون أرزاقهم من ملوك كرام، يخلقهم الله لرواج حرفتهم، فإذا لم يُخلقوا كسدت الحرفة، وأخطأت الأرزاق.

على أنه يستثنى من هؤلاء قليلٌ لا يذكر في جنب الفائدة الضائعة بضياع الشعر مديحاً في الملوك والأمراء، وثناءً على الرؤساء والكبراء، وإلا فمن دواوينهم ما يخلُق أن يكون المثال المحتذى في شعر الأمم، كابن الأحنف مرسل الشعر كتباً في الهوى ورسائل، ومتخذه رسلاً في الغرام ووسائل. وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها، وواصف بدائعها وحلاها، وكالبهاء زهير سيّد من ضحك في القول وبكى، وأفصح من عتب على الأحبة واشتكى، وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر، يعززهم ألف ناثر، على أن يحلوا شعر البهاء، أو يأتوا بنثر في سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو.

ولا أرى بدّاً من استثناء المتنبي، مع علمي أنه المدّاح الهجّاء، لأنّ

معجزَه لا يزال يرفع الشعر ويعليه، ويغري الناس به فيجدِّدُه ويحييه، وحسبك أنّ المشتغلين بالقريض عموماً، والمطبوعين منهم خصوصاً لا يتطلعون إلا إلى غباره، ولا يجدون الهدى إلا على مناره، ويتمنّى أحدهم لو أتيحَ له ممدوحٌ كممدوحهِ، ليمدحه مثل مديحه، أو لو وقع له كافورٌ مثل كافوره، ليهجوه مثل هجائه، فمثلُ أبي الطيب في تشبُّهِ الشعراء به، وسعيِهم لبلوغ شأوه في المدح أو الهجو، كمثل قائد مشهور الأيام، معروف بالحزم والإقدام، قد أُشربَتْهُ قلوبُ الجند، ومُلِئَتْ نفوسهم ثقةً منه، فلو قذف بهم في مهاوي الهلاك ـ وهم يعلمون ـ لما جبنوا ولا أحجموا.

هذا مع اعترافي بأنّ المتنبي صاحبُ اللواء، والسماء التي ما طاولتها في البيان سماء، ولو سلم من الغرور ـ وسلم النّاسُ من لسانه ـ لأجللته إجلال الأنبياء.

والحاصل أن إنزالَ الشعر منزلةَ حرفةٍ تقومُ بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئةٌ يُجَلُّ عنها، ويتبرأ الشعراء منها.

إلا أن هناك مُلْكاً كبيراً ما خُلقوا إلا ليتغنوا بمدحه، ويتفنَّنوا بوصفه، ذاهبين فيه كل مذهب، آخذين منه بكل نصيب، وهذا المُلك هو الكون.

فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى، يقلّب إحدى عينيه في الذرّ، ويجيل أخرى في الذرى، يأسر الطير ويطلقه، ويكلّم الجماد وينطقه، ويقف على النبات وقفة الطَّلّ، ويمرّ بالعراء مرور الوَبل، فهنالك ينفسحُ له مجالُ التخيّل، ويتسع له مكان القول، ويستفيدُ من جهةٍ علماً لا تحويه الكتب، ولا تعيه صدورُ العلماء.

ومن جهة أخرى تجد من الشعر مسلياً في الهمّ، ومنجياً من الغمّ، وشاغلاً إذا أملّ الفراغ، ومؤنِساً إذا تملّكت الوحشة.

ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه، فإذا الخاطر أسرع، والقول

أسهل، والقلم أجرى، والمادة أغزر، بحيث لا تمضي السنون حتى تتداول الأيدي مؤلفاته: وإذا ماتَ أكبرَ الناسُ من بعده مخلفاتِه.

أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب، ثم يموت على نحو مئتي صحيفة من الشعر، تسعة أعشارها لممدوحيه، والشعر الباقي ـ وهو الحكمة والوصف ـ للناس.

* * *

هنا يسأل سائل: وما بالك تنهى عن خلُقٍ وتأتي مثله؟؟! فأجيب: إني قرعت أبوابَ الشعر، وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم، ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى، لا مظهر للشعر فيها، وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عالٍ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى في البلاد، فما زلت أتمنى هذه المنزلة، وأسمو إليها على درج الإخلاص في حبّ صناعتي وإتقانها بقدر الإمكان، وصونها عن الابتذال، حتى وُفّقتُ بفضل الله إليها، ثم طلبت العلم في أوربة فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم، وعلمت أني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله، ولا يؤتيها سواه، وإني لا أُؤدّي شكرها حتى أشاطرَ الناسَ خيراتها التي لا تحدّ ولا تنفد.

وإذ كنت أعتقد أن الأوهام، إذا تمكّنت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأفعوان، لا يُطاق لقاؤه، ويؤخذ من خلف بأطراف البنان، جعلت أبعث بقصائد المديح من أوربة مملوءة من جديد المعاني وحديث الأساليب بقدر الإمكان، إلى أن رُفِعَتْ إلى الخديوي السابق[1] قصيدتي التي أقول في مطلعها:

(١) [توفيق باشا].

خـدعـوهـا بقـولهـم حسنـاءُ والغـوانـي يغـرّهُـنَّ الثنـاءُ

(والتي غزلها في أول هذا الديوان) وكانت المدائح الخديوية، تنشر يومئذ في الجريدة الرسمية، وكان يحرر هذه أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان، فدفعتْ إليه القصيدة، وطلب منه أن يسقط الغزل، وينشرَ المدح، فودّ الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل، ثم كانت النتيجة أن القصيدة برُمتها لم تنشر، فلما بلغني الخبر، لم يزدني علماً بأن احتراسي من المفاجأة بالشعر الجديد دفعةً واحدةً إنما كان في محله، وأن الزلل معي إذا أنا استعجلت.

ثم نظمت روايتي «علي بك أو فيما هي دولة المماليك» معتمداً في وضع حوادثها على أقوال الثقات من المؤرخين، الذين رأوا ثم كتبوا، وبعثت بها قبل التمثيل بالطبع إلى المرحوم رشدي باشا ليعرضها على الخديوي السابق، فوردني منه كتاباً باللغة الفرنساوية يقول في خلاله:

«أما روايتك، فقد تفكّه الجناب العالي بقراءتها، وناقشني في مواضع منها وناقشته، وهو يدعو لك بالمزيد من النجاح، ويحبُّ أن لا تشغلك دروس الحقوق التي يمكنُك تحصيلَها وأنت في بيتك بمصر عن التمتع من بمعالم المدنية القائمة أمامك، وأن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضيء به الآداب العربية».

فصادفتْ هذه النصيحةُ العالية من أميرٍ ذكي حكيم هوًى في فؤاد مطويٍّ على طاعته، نازل على حكم الشعر والأدب، فترجمت القصيدة المسماة «بالبحيرة» من نظم لامارتين، وهي من آيات الفصاحة الفرنساوية، ثم أرسلتها إلى الباشا المشار إليه في كراس وبعض كراس، ليطلعَ الجناب الخديوي عليها، وإذ كنت لا أتخذ لشعري مسوّدات، رجوت أن أجدها عنده بعد العودة إلى مصر، ثم عَدَتْ دون ذلك عوادٍ.

وجرّبت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب لافونتين الشهير (وفي هذه المجموعة شيء من ذلك) فكنتُ إذا فرغتُ من وضع أسطورتين

أو ثلاث، أجتمع بأحداث المصريين، وأقرأ عليهم شيئاً منها، فيفهمونه لأول وهلة، ويأنسون إليه، ويضحكون من أكثره، وأنا أستبشر لذلك، وأتمنّى لو وفقني الله لأجعل لأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتمدنة منظوماتٍ قريبةِ المتناوَل، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدْرِ عقولهم.

والخلاصة أني كنت ولا أزال ألوي في الشعر على كل مطلب، وأذهب في فضائه الواسع في كل مذهب، وهنا لا يسعني إلا الثناء على صديقي «خليل مطران» صاحب المنن على الأدب، والمؤلف بين أسلوب الأفرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب، والمأمول أن نتعاونَ على إيجاد شعرٍ للأطفال والنساء، وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية.

على أني لا أستصعب في مصر اليوم صعباً بعدما علمت أن كثيراً من المخَدّراتِ في العاصمة أصبحن يَرْقُبْنَ ساعة ظهور الجرائد بصبر نافد، وأن إحداهن طردت خادماً لها أرسلته يشتري نسخة من جريدةٍ فأبطأ مع علمه بأن مولاته لا تستطيع صبراً عن أخبار الحرب الترنسفالية، إذاً فالواجب على الكتّاب ـ ورجالُ الصحافة في أولهم ـ أن يهيئوا أسباب النجاح لهذا الميل الحادث، وعلى الأدباء والشعراء أن يعرضوا فاكهتهم على النساء مثل الرجال حتى تصبح جنات قرائحهم فيها من كل فاكهةٍ زوجان.

بقي استدراك لابد من إيراده، وذلك أن بعضهم يستنتج من كون الناثر لا ينظم أن الشاعر لا ينثر كذلك، ولا ينبغي له. وهذا وهم يداني اليقين عندهم، وقد جاوز الشعراء في الانخداع به حدّاً أضرَّ بهم، مع أنه يكفي للخروج منه أن نعلمَ أن أكثر ما أعجزَ به أدباءُ الأفرنج اليوم في القصص

والإنشاء، وما يمثَّلُ على أكبر ملاعبهم[١] وتتداوله ألسنتهم من مرسل الكلم ومنثور الحكم.

وما كتب في هذا القرن والذي قبله في الفلسفة العليا والسياسة الكبرى إنما هو من قلم مشاهير الشعراء، حتى لتسمعَ عن أحدهم أنه مات عن عشرات من المؤلفات، ثم ترى المنظوم منها أقلَّها، بل إن بعضهم يقدّم «الأشقياء»[٢] وهو كتاب لفكتور هوغو على سائر مؤلفاته وفيها الشعر، كما يرون «اعتراف ابن العصر» لألفريد دي موسيه أجلّ أثرٍ له بين كثير من الآثار، وفيها الروايات المنظومة والأشعار، وكلا الشاعرين مطبوع، ولم يختلف في سليقته اثنان.

على أني كنت أول من انقاد بأزمّة هذا الوهم، وطالما أُوذيت به، فكنت إذا عرضتْ لي كتابة أشفِقُ منها، وأجفلُ عنها، فصرت مثلي مثل الشاعر الفرنسوي الذي يُحكى عنه أنه لما رأى أهلَ باريز يبالغون في الحفاوة به، ويكثرون من دعوته إلى موائدهم ومجالسهم ليسمعوا حديثه على ظن أنه يقول ما لا يقوله الناس، بلغ به الاحتراس منهم إلى أن كان إذا دعي إلى وليمة حضر والقومُ على المائدة، فأكل صامتاً، ثم انصرف، والقوم لم يفرغوا من الطعام، فقيل له في ذلك، فقال: أنا على المائدة كأحدكم، فإذا جلست إزاء مكتبتي فتصوروني كيف شئتم اهـ.

أما كون الناثر لا ينظم إلا إذا كان حاصلاً على هذه الملكة الموهوبة فحقيقة لا مشاحّة فيها، وإن لم يكن بذلك عارٌ على الكاتب، بل الغبن الفاحش والخسران المبين أن تضيع حياة الكثيرين من الكتاب والعلماء ـ وليست بقليلة الثمن ـ في محاولة المحال، والتمادي في مثل هذا الضلال.

---

(١) [كذا في الأصل والمقصود مسارحهم].

(٢) [ترجمها شاعر النيل بعنوان «البؤساء» وشاعت تسميته].

على أن الشعر ليس من حاجيات العمران المادي الذي تتوقف عليه سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ولكنّه من كماليات العمران الأدبي الذي تسأم النفس عنده الحقيقةَ المجسدة والمادة المجردة، وتميل في بعض أوقاتها إلى التنقل بشعورها من عالم إلى آخر، ومن فضاءٍ إلى سواه، ولعل هذه هي الحكمة في كون الشعراء قليلاً عديدهم في كل زمان ومكان، لا تعطى الأمم منهم إلا بقدْرِ حاجتها إليهم.

ومما يجمل إيراده في هذا المقام أنه بدا لأحد الإنكليز أن تكون عنده مجموعة فيها من كل شاعر عصري شيءٌ من نظمه بخطه، فجعل يطوف بها على مشاهير الشعراء حتى وفد على جول سيمون فقيد فرنسة وفيلسوفها المشهور، فطلب منه أن يكتب شيئاً من نظمه، فاعتذر الرجل بكونه ما نظم قط، ولا يملك قول الشعر، فما زال الإنكليزي يلحّ عليه حتى أحرجه، وكان جول سيمون يحفظ أبياتاً للشاعر الشهير لامارتين، وكانت أحسن ما في منظومته التي سماها «البحيرة»، فأخذ المجموعة، وكتب الأبيات، ثم جعل اسمَه تحتها. واتفق بعد ذلك أنّ المجموعة وقعت في يد منتقد أدبي لبعض الصحف السيارة في باريز، وكان لا يعرف الشعر، ولا يدري لمن هو، فلم يكن منه إلا أن ملأ أعمدة الجريدة من انتقادها، ورمى جول سيمون بالدخول فيما لا يعنيه، والتطفل على موائد الشعراء، ثم نصح له أن يبقى فيلسوفاً كما كان، ومن الفلسفة أن لا يحاول الإنسان ما ليس في الإمكان.

يُعلم مما تقدم جميعه أنني أرى للمشتغلين بالشعر من أبناء الوطن العربي، أن يجمعوا في مسيرهم على الدرب بين أزواد ثلاثة لا وصول بدونها مجتمعة.

الأول: **ثقة الإنسان من كون الشعر في طباعه**، وهذا هو الشرط الأوجب، وإنه لأمرٌ يعني الآباء والأساتذة أكثرَ من سواهم، ولا ينبغي لهم أن يتصرّفوا في مستقبل الأطفال الذين هم أمانةُ اللهِ في أيديهم بمقتضى

أميالهم الشخصية، وأفكارهم الخصوصية، بل عليهم إذا آنسُوا هذه الهبة عند الطفل أن يأخذوا بيده، ويعينوه عليها، ولو كانوا ممّن ينظرون إلى الشعر بعين السخط، لأن الله سبحانه وتعالى ـ وهو الواهب ـ قد رأى له ذلك، وما يرى الله أفضل.

وإذا وجدوه دعيّاً في الشعر، دخيلاً منذ الطفولة، وجب عليهم تبغيضه إليه، وممانعته عن نظمه، ولو كانوا من محبي الشعر ونصرائه.

والثاني: **أخذ العلوم، وتناول التجارب**، لأن الشعر لا يخرج عن كونه أخباراً وحكمة، وهما لا يكونان إلا من عليم مجرِّب.

والثالث: **أن لا يتخذ الشعرَ حلية على عطل من سائر أمور الدنيا وأشغالها**، فإن كان ولابد من التفرغ للأدب حباً به أو طلباً للكسب، فليكن الشعر هو اليتيمةُ القعساءُ في عِقْدِ علومه، وصاحبُ العلَمِ في موكبِ فنونه، لا ينافي تعاطيه الكتابة نثراً في جميع المطالب وضروب المواضع، فإنك لا تجد الشعرَ وسلطانه عندئذٍ إلا مرشدين أمينين، وذُخرين ثمينين.

فمن جمع بين هذه الأمور الثلاثة، وكان عاملاً متقناً لعمله، حريصاً عليه، مترقياً فيه، يخاف الله في الغرور، ويخشاه في إيذاء خَلْقِه، فقد انكشف له سرُّ النجاح، وأحرز قصبَ السبق في حلبة الكتّاب والشعراء.

* * *

الآن أدخل في الحديث مع فريق طلبوا منّي أن أجعل صورتي في هذه المجموعة، وآخرين رغبوا إليّ في كلمة تُقال عنها وعن صاحبها، وأن لا يقولها سواي.

معذرتي إلى الفريق الأول أن مَنْ يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم، وأعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل على أن صورتي ما عشتُ بينهم، ينظرون إليها، فإذا مِتُّ فليأخذوها من أهلي إذا جدّ بهم الحرص عليها.

وللآخرين أقول: إني لا أزال في أول النشأة، وإن حياتي لم تحفل بعد بالعجائب، ولم تمتلىء من الفوائد ولا المصائب حتى أحدّث النّاس بأخبارها، لكني لا أثق بيومي الآتي، وأخاف بعدي رجومَ الظن وضلاّت الأحاديث، في العذر أن أجيب طلبهم على أن يكون الحديثُ بيني وبينهم كما يكون بين الأحباب:

سمعتُ أبي رحمه الله يردّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب، ويقول: إن والده قدم هذه الديار يافعاً، يحملُ وصاةً من أحمد باشا الجزّار[1] إلى والي مصر محمد علي باشا، وكان جدي وأنا حاملُ اسمه ولقبه يُحْسنُ كتابة العربية والتركية خطاً وإنشاءً، فأدخله الوالي في معيته، ثم تداولت الأيام، وتعاقبت الولاة الفخام، وهو يتقلّد المراتب العالية، ويتقلّب في المناصب السامية، إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية، فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية، بددها أبي في سكرة الشباب، ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم، وعشت في ظلّه ـ وأنا واحده ـ أسمع بما كان من سعة رزقه، ولا أراني في ضيق حتى أندبَ تلك السعة، فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبلُ أن لا أقتات من فضلات الموتى.

---

(١) [والي عكا].

أما جدي لوالدتي فاسمه أحمد بك حليم، ويعرف بالنجدة لي، نسبةً إلى «نجدة» إحدى قرى الأناضول، وفد على هذه البلاد فتياً كذلك، فاستخدمه والي مصر إبراهيم باشا من أول يوم، وزوّجه بمعتوقته جدتي[١] التي أرثيها في هذه المجموعة وأصلها من «موره» جُلبتْ منها أسيرة حربٍ لا شراء، وكانت رفيعة المنزلة عند مولاها، وكان زوجها محبوباً عنده كذلك، فما زالا كلاهما مغمورين بنعمة هذا البيت الكريم، حتى توفي جدي وهو وكيل لخاصة الخديوي إسماعيل باشا، فأمر بنقل مرتّبه برمته إلى أرملته، وأن يحسب ذلك معاشاً لا إحساناً، وكان الخديوي المشار إليه يقول عنهما: «لم أر أعفّ منه، ولا أقنع من زوجته، ولو لم يسمّه أبي حليماً لحلمه لسميتُه عفيفاً لعفته».

أنا إذاً عربي، تركي، يوناني، جركسي بجدتي لأبي، أصول أربعة في فرعٍ مجتمعة، تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبلُ.

وما زال لمصر الكنف المأمول، والنائل الجزل على أنها بلادي، وهي مَنْشَئِي ومهادي، ومقبرة أجدادي، ولد لي بها أبوان، ولي في ثراها أب وجدّان، وببعض هذا تُحبَّبُ إلى الرجال الأوطانُ.

أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة وأنا اليوم أحبو إلى الثلاثين.

حدثني سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ علي الليثي قال: لقيتُ أباك وأنت حمل لم يوضَعْ بعدُ، فقصّ عليَّ حلماً رآه في نومه، فقلتُ له وأنا أمازحه: ليولدنّ لك ولد يخرِقُ ـ كما تقول العامة ـ خرْقاً في الإسلام.

ثم اتفق أني عُدت الشيخَ في مرض الموت، وكانت في يده نسخةٌ من جريدة «الأهرام» فابتدر خطابي يقول: هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقي، فوالله ما قالها قبلُ في الإسلام أحد.

---

(١) [واسمها (نمزار)].

قلت: وما تلك يا مولاي؟

قال: قصيدتك في وصف البال، التي تقول في مطلعها:

حـــفّ كـــأسهـــا الحبـــبُ فهـــي فضـــةٌ ذهـــبُ

وها هي في يدي أقرأها.

فاستعذت بالله، وقلت له: الحمد لله الذي جعل هذه هي الخرق، ولم يضرّ بي في الإسلام فتيلاً.

أخذتني جدّتي لأمي في المهد، وهي التي أرثيها في هذه المجموعة، وكانت منعّمةً موسِرةً، فكفلتني لوالديّ، وكانت تحنو عليّ فوق حنوهما، وترى لي مخايل في البِرِّ مرجوةً.

حدثتني أنها دخلت بي على الخديوي إسماعيل وأنا في الثالثة من عمري، وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه، فطلب الخديوي بَدْرةً من الذهب، ثم نثرها على البساط عند قدميه، فوقعتُ على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به، فقال لجدتي: اصنعي معه مثل هذا، فإنه لا يلبث أن يعتادَ النظر إلى الأرض.

قالت: هذا دواءٌ لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاي.

قال: جيئي به إليّ متى شئتِ، إنّي آخر من ينثر الذهب في مصر اهـ.

ولا يزال هذا الارتجاج العصبي في الإبصار يعاودني، وكان المرحوم الشيخ علي الليثي كلما التقت عينُه بعيني ينشد هذا المصراع للمتنبي:

محـــاجِـــرُ مســـكٍ رُكّبـــتْ فـــوقَ زئبـــقِ

دخلت في مكتب الشيخ صالح وأنا في الرابعة، وهي من أهلي جناية على وجداني أغفرها لهم.

ثم انتقلت منه إلى المبتديان، فالتجهيزية، فكنت التلميذ الثاني لهذه المدرسة، وأنا في الخامسة عشرة، وكان ناظرها المرحوم صادق باشا

شنن قد حصل لي من النظارة على المجانية بوجه الاستثناء، لا عن حاجة إليها، ولكن على سبيل المكافأة.

ثم رأى لي أبي أن أدرس القوانين والشرائع، فدخلت مدرسة الحقوق، وكان ناظرها المأسوف عليه فيدال باشا لا يراني أهلاً لذلك بالسن، فما زال أستاذي وصديقي المهذب يحيى بك إبراهيم وكيل المدرسة يومئذٍ يؤيدني عند رئيسه إلى أن قُبِلْتُ، ثم لم يكفِهِ ذلك حتى حصل لي من النظارة على مئتي قرش في الشهر، فدرست الحقوق سنتين.

ثم ارتأت الحكومة أن ينشأ بمدرسة الحقوق قسم للترجمة، يتخرّج فيه المترجمون الأكفّاء، فنصحَ لي الوكيل أن أدخلَ هذا القسمَ ففعلتُ، وأقمت به سنتين، ثم منحتني نظارة المعارف الشهادة النهائية في فن الترجمة.

وبينما أنا أتردد على المغفور له المرحوم علي باشا مبارك في شأن، ورد عليه مرسوم من المعية السنية بطلبي إليها، فكان سروره بذلك أضعاف فرحتي بالنعمة المفاجئة، فذهبت إلى السراي، وهنالك استؤذن لي على المرحوم الخديوي توفيق باشا، فلما مثلت بين يديه ـ ولم أكن رأيته من قبلُ، ولكن مدحتُه مراراً وأنا في المدرسة، خاطبني بهذا اللفظ الشريف: «قرأت يا شوقي في الجريدة الرسمية أنك أُعطيتَ الشهادة النهائية، وكنت أنتظر ذلك لألحقك بمعيتي، لكن ليس بها الآن محل خال، فهل لك في الانتظار ريثما يهيىء الله لك الخير» فاستلمت أذيال العزيز وقبلتها، ثم قلتُ: حسبي يا مولاي أنك قد ذكرتني من تلقاء نفسك الشريفة، وأي خير يهيىء الله لعبدك أفضل من هذا؟!!

فأطرقَ هنيهةً ثم قال: قد سمعتُ أن أباك عطلٌ من الخدمة فبلّغه أني ربما أدخلتُه في عمل قبلك. ثم تهلل وأذن لي في الانصراف، فلبثت في المعية بضعة شهور أنتظر فرجاً يأتي به الله، وكان المرحوم علي باشا مبارك لم يقطع عني الراتب.

إلى أن كان يومٌ كثُرَ غيمُه، وتثاقل مطره، فخرجت قبيل الأصيل في حاجة لي على حمار أبيض كان لوالدي، وبينما أنا عائد إلى منزلي أجتاز ميدان عابدين، بصرت بالعزيز في بهو السراي، يشرف منه، فنزلت عن الدابة أمشي كرامةً للمليك المطل، وأمرت الخادم أن يبتعدَ بها، وأن يلاقيني خلف القصر، ثم مشيت على الأقدام، حتى إذا انتهيت من الميدان، اعترضني رسول من الأمير يدعوني إليه، فوافيت حضرته، وأنا لا أعرف السبب، وكان معه ساعتئذٍ المرحوم عبد الرحمن باشا رشدي، فتحلّى الحليم بصورة الغضب، ثم قال: أليس لي أن أطل من بيتي حتى نزلت عن حمارك، وألجأتني إلى الانثناء.

قلت: عفواً يا مولاي، هكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم:

وإذا المطـيُّ بنـا بلغـن محمّـداً فظهـورُهـنّ علـى الـرّجـالِ حـرامُ

فتبسّم ضاحكاً، ثم قال: إنكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم، وهذا اليوم من أيامكم، فاسمع للباشا فإنّ عنده فألاً.

فالتفت الباشا عندئذٍ إليّ وقال: الآن أمرني أفندينا أن أبلغك تعينَ أبيك مفتّشاً في الخاصة الخديوية، وأما أنت فتعيّن بعد شهر، ثم مد العزيز إليّ يده فقبلتها واجماً، قد غلب عليّ السرور حتى أنساني الشعر، وكان ذلك وقته.

ثم لم يحل عليّ حولٌ في الخدمة الشريفة حتى رأى لي الخديوي أن أبلغ التأديب في أوربة، فخيرني في ذلك وفيما أريده من العلوم، فاخترت الحقوق، لعلمي أنها تكاد تكون من الأدب، وأن لا قدم فيها لمن لا لسان له، فأشار الأمير عليّ عندئذ أن أجمع في الدراسة بينها وبين الآداب الفرنساوية بقدر الإمكان.

ثم سافرت على نفقته، فكنت أُنْقَدُ ستة عشر جنيهاً في الشهر، نصفها من المعية، ونصفها من الخاصة، وأعطاني يوم سفري مئة جنيه، أرسل

نصفها إلى مدير الإرسالية، ليهيىء لي جميعَ ما أحتاج إليه حال وصولي، ودفع إليّ النصفَ الآخر بيده الشريفة، وما[١] أنسى من مكارمه رحمة الله عليه لا أنس قولَه لي في ساعة الوداع: «لا حاجة بك منذ اليوم إلى أهلك، فلا تعنتهم بطلب النقود، وأعنت أباك هذا الغني»[٢].

فركبت البحر لأول مرّة أؤمّ مرسليه، فلما قدمتها، وجدت مدير الإرسالية في انتظاري بها، فأخبرني أن الأمير يأمر بأن أقضيَ عامين في مدينة مونبليه، وآخرَيْنِ في باريز، وكان المدير قادماً من مونبليه للقائي، فعاد بي إليها على الفور، وهنالك قدم لي جميعَ ما أحتاج إليه، وأدخلني في مدرسة الحقوق الجامعة، ثم رجع إلى العاصمة.

فلما انقضت السنة الأولى، التمست من ولي النعم أن يأذن لي في الأوبة إلى مصر لقضاء زمن العطلة بين أهلي، فأوقع لي أمره أنّ هذا من نزق الشباب، وأنه يرى لي أن أقيم أربع سنوات كاملة في أوربة، وأن لا أضيع منها دقيقة واحدة، وأرسل إليّ خمسين جنيهاً لأنفقها في رحلة أزمعها إلى أي بلد أشاء إلا مصر.

وكانت الدعوات قد توالت عليّ من الفرنساويين رفقائي في المدرسة بالذهاب إلى مدنهم المفترقة في الجنوب، وقضاء بعض الأيام في ضيافتهم هنالك، فقضيت نحو شهرين، كنت فيهما قريرَ العين، طيبَ النفس، ناعمَ البال، حيث التفتُّ رأيتُ حولي مناظرَ رائقة، ومجالي شائقة، ومعالم للحضارة في أقاصي القرى شاهقة، وآثاراً لدولة الرومان تزداد حُسْناً على تقادم الزمان، وعرفتُ الفلاح الفرنساوي في داره، وكنت ألقاه في مزرعته، وأماشيه في الأسواق، فيخيّلُ لي أنه قد خلفَ العرب على قِرى الضيف وإكرام الجار.

---

(١) (كذا في الأصل وصوابه (وإن)).

(٢) (أي الخديوي نفسه).

وكان أعجبَ ما رأيتُ مدينة «كركسون» وجدتُها قسمين، وألفيتُ القوم عليها صنفين، فمنهم الباقون إلى اليوم كما كان عليه آباؤهم في القرون الوسطى، بناؤهم ذلك البناء، ولباسهم ذلك اللباس، وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق.

وآخرون خَلْقٌ جديد، وشعبة كسائر شعب الأمة في أخذهم بأشياء التمدن العصري.

وبالجملة كانت نتيجة هذه النقل من أجلّ نعم الله عليّ، وأسنى أيادي الخديوي السابق عندي.

ثم ما كدت أنتهي من السنة الثانية حتى كتب إليّ مدير الإرسالية[1] المصرية يستقدمني لباريز، ويخبرني أنه ذاهب بتلامذته إلى إنكلترة، لقضاء أكثر أيام العطلة فيها، وأن الأمير رحمه الله أدّى نفقة هذه السياحة عنّي إذا رغبتُ فيها، فبرحتُ مونبليه على عجل، أيمم باريز للمرة الأولى، فأقمتُ بها يومين، ريثما أهبت للرحلة، ثم سافرنا إلى عاصمة إنكلترة، فلبثنا فيها نحو شهر، نغشَىٰ من معالمها في الحضارة، ونشاهِد من دوران دولاب التجارة والصناعة فيها ما ينتهي إليه العظم والجلال في هذا العصر، لكنّا لم نلبث أن سئمناها، وهذا أكبر عيوبها، فخرجنا إلى بعض المدائن على بحر الشمال، وهناك وجدنا راحةَ الخاطر وقرةَ الناظر، وإن يكن الجوُّ كثيرَ التقلب، غدّاراً في غالب الأحيان.

* * *

فلما كانت السنة الثالثة، وهي الأولى لي في باريز أصبت بمرض شديد، كنتُ فيه بين الحياة والموت، فاستخدمت ممرضةً تسْهر عليّ، وتعمل بإشارتي في الحركة والسكنة، فكنت أسمعها وأنا في سكرات

(١) [في الأصل الرسالة].

الحمّى، تقول: «أفي مثل هذا الشباب تذهبون» ثم تكفكف الدمع.

لكن الله خيّب ظنونها، ومنّ عليّ بالشفاء، وعندئذٍ أشار عليّ الأطباء أن أقضي أياماً تحت سماء إفريقية، على زعمِ أنّ الذي بي من الضجر والسآمة ليس إلا حنيناً إلى الوطن، فوقع اختياري على الجزائر، فرحلتُ إليها مع أحد قضاتها الفرنساويين، فنفعتني مرافقته، وظل دليلي على الهدى في عاصمة المستعمرة نحو عشرين يوماً، ثم برحها إلى أوران.

أما جو الجزائر فلا يَعْدِلُه بين الجواء في صحوه، وطيب نسمته، مع توقد شمسه إلا جنوب فرنسة، ولم أتأثر فيها كتأثري من رؤية المصريين في القهاوي البلدية، إذ أكثر أصحابها وغلمانها منهم، وكان قد بلغهم جلوس مولانا الخديوي القائم عباس باشا على الأريكة المصرية، فكنت أراهم فرحين بالنبأ، وأسمعهم يدعون لسموّه.

ولاعيب في الجزائر سوى أنها قد مسخت مسخاً، فقد عهدت مسّاح الأحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية، وإذا خاطبته بها لم يجبك إلا بالفرنساوية، على أن حركة العمران في المدينة عجيبة، وآثار التمدن الفرنساوي بادية عليها، **ولكن المسلمين من أهلها لا يشاركون القوم في شيء من ذلك، ولا يتهافت مترفوهم إلا على مضار التمدن وأسوائه، فكأنّ حظنا واحدٌ في كل مكان.**

أقمت بالجزائر أربعين يوماً أو تزيد، ثم حثثت الرحال عنها قافلاً إلى باريز.

وهناك تمت لي السنة الثالثة في الحقوق، وحصلت على الشهادة النهائية فيها، فرأى لي الجناب العالي أيده الله أن أقضي في العاصمة ستة شهور، أتمكن فيها من معرفةِ أشياء باريز وأهلها، وقد كان في الدراسة ما يشغَلُ عن ذلك، ويحول دونَه، ثم انقضت تلك المدة على ما رسم لي الرأيُ العالي أيده الله، فعدت إلى الوطن، وأنا نضو فراق، تهزني إليه الأشواق.

وفي سنة (١٨٩٦) للميلاد ندبني جنابه الفخيم لأنوب عن حكومته السنية في مؤتمر المستشرقين، الذي كان انعقاده في مدينة جنيف عاصمة سويسرة، فكانت خير فرصة تُغتنَمُ لمشاهدة هذه البلاد التي هي المجلى البديع لعروس الطبيعة، فرحلت إليها، وأقمت بها شهراً.

ثم انفضّ المؤتمر، فبرحتها إلى بلجيكة، لمشاهدة عاصمتها، وزيارة المعرض الذي أقيم بمدينة انفرس في ذاك العام.

ولما كانت السنة الماضية، وكنت قد سئمت الحضر على إثر رمدٍ طال أمدُه، خرجت إلى الأستانة طلباً للعافية على ضفاف البسفور، فأذن الله، وكان ما رَجوتُ، وعدت من عاصمة الإسلام، وأنا أعتقد أن خطرات النسيم فيها تفعل في أربعين يوماً ما لا يفعله طِبُّ الأطباء في أربعين شهراً.

هذه هي أيام صباي، وخطوات شبابي، وأوائل نشأتي، أجبتُ عنها السائل، ليعلمَ كيف تقضّت، وفيم أُنفقت، وأين ذهبت، وأنا أستغفر الله لي ولأهلي، ولمن ينظر إلى هذا الكتاب بعين الكريم المتجاوز، أو المنتقد العدل.

* * *

جمعتني باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان، وأنا يومئذٍ في طلب العلم، والأمير حفظه الله في التماس الشفاء، فانعقدت بيننا الأُلفة بلا كلفة، وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكُبَرَ ، وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشوراً في صحف مصر، فتمنّى أن تكون لي يوماً ما مجموعة، ثم تمنّى عليّ إذا هي ظهرت أن أسميها «الشوقيات».

ثم انقضت تلك المدة، فكأنها حلم في الكرى، أو خلسة المختلس، أو هي كما قلت:

صحبتُ شكيباً برهةً لم يفزْ بها سواي على أنّ الصِّحابَ كثيرُ
حرصتُ عليها آنةً ثُمَّ آنةً كما ضنّ بالماسِ الكريمِ خبيرُ
فلما تساقينا الوفاء وَتَمَّ لي ودادٌ على كلِّ الوِدادِ أميرُ
تفرّق جسمي في البلاد وجسمُه ولم يتفرّق خاطرٌ وضميرُ

هذه أصل التسمية كما سبقت به إشارةٌ لا تخالف، ودفعتْ إليه طاعةٌ واجبةٌ، وأنا بين هاتين هدف للقال والقيل، يُظَنُّ بي نسبة الأثر الضئيل إلى الاسم القليل.

* * *

وكانت وفاة والدي من نحو ثلاث سنوات، فكان لي عجباً أن وجدتُ بين أوراقه شيئاً كثيراً من مشتَّتِ منظومي ومنثوري، ما نشر منهما وما لم ينشر، قد كتب بعضه بالحبر، وبعضه الآخر بالرصاص، والكل خط يد المرحوم، وقد لفّه في ورقة كتب عليها هذه العبارة: «هذا ما تيسّر لي جمعُه من أقوال ولدي أحمد، وهو يطلب العلم في أوربة، فكنت كأني أراه.

وإني آمره أن يجمعه، ثم ينشره للناس، لأنه لا يجد بعدي من يعتني بشؤونه، وربما لم يوجد بعده من يُعنى بالشعر والآداب».

فبينما أنا ذات يومٍ تعبٌ بهذه الأوراق، حيران لوصية الوالد كيف أجريها، زارني صديقي مصطفى بك رفعت، فحدثته حديثي، فسألني أن أعيره الأوراق أياماً، ثم يعيدها إليّ، ففعلتُ، ثم لم يمضِ شهرٌ حتّى بعث بها إليّ، وإذا هي قد نُسختْ بقلم مليح، يؤيّده ذوقٌ صحيح، بحيث لم يبقَ إلا أن تدفعَ إلى المطابع، فأخذتُها، وبودي لو وفّيت صديقي المشار إليه حقه من شكر الصنع، وأنا أقول في نفسي: لئن صدق أبي في الأولى، لقد ظلم في الثانية، فإن الخير لا يزال في الناس.

ثم إن ما جمع في «الشوقيات» ثم طبع ليس هو كل ما قيل، فقد

أسقطتُ منه الكثير، وعثرتُ على غيره، ولكن في الزمن الأخير، فأما ما أُسقِطَ عمداً، فأكثره من قولي في زمن الصبا، الذي لا يؤمن فيه على المرء الغرور، ولا يسلُكُ الفتى فيه سبيلاً إلا وهو مضلَّل عثور، وقد خشيت أن يقع مثل ذلك في أيدي الناشئة، فأُسْأَلُ عن سوء وقعه، ويكون إثمه أكبر من نفعه، لكني حرصتُ على إثبات بعض الشيء منه، كما يحرص الإنسان على ذكر ما طاب من أيام الشباب.

وأما ما عثرت عليه والمجموعة في أيدي الطبّاع، فلم يكن في الوسع أخذه، لئلا يختلط الكتابُ، ويختلَّ ترتيبُ الأبواب، على أنه محفوظ لينشرَ في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى مع سائر القصائد التي قيلت بعد الإعلان عن «الشوقيات»، ولم يتيسّر إدخالُها في أبواب هذا الجزء.

وقد عزمت بحول الله ومشيئته على أن أنشرَ في آخر كل عام هجري ما يحصُلُ عندي من منظوم ومنثور، ولو قلَّ عدده، وصغر حجمه، وأن أجعلَ ذلك بمثابة أجزاءٍ متتالية للشوقيات، تسمّى باسمها، وتكون لها متممة.

(١٨٩٨) **شوقي**

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أنا

«سيرة ذاتية»
١٨٨٩ ـ ١٩٥٤

بقلم العلامة المجاهد
محمد البشير الإبراهيمي

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب الله لي أن أعيش حتى استقلال الجزائر، وبوسعي الآن أن أستطيع أن أواجه المنية مرتاح الضمير، إذ تراءى لي أني سلمت مشعل الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام إلى من وصفه باللغة. ذلك الجهاد الذي كنت أعيش من أجله. إلى الذين أخذوا زمام الحكم في الوطن. ولذلك قررت أن ألتزم الصمت.

غير أني أشعر أمام خطورة الساعة. وفي هذا اليوم الذي يصادف الذكرى المائة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، رحمه الله. أنه يجب عليّ أن أقطع ذلك الصمت، إن وطننا يتمرغ في حرب أهلية طاحنة ويتخبط في أزمة روحية لا نظير لها وفي مواجهة مشاكل اقتصادية عسيرة الحل.

ولكن المسؤولين فيما يبدو. لا يريدون أن شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الرحمة والسلام والرفاهية، وأن الأسس النظرية التي يقيمون عليها الحكم يجب أن تنبثق من صميم تقاليدنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية.

لقد آن للمسؤولين أن يضعوا حداً للتزلف وألا يقيموا وزناً إلا للشرعية والكفاءة وأن تكون المصلحة العامة هي أساس الإعتبار عندهم. وقد آن أن يرجع لكلمة الأخوة التي ابتذلت معناها الحق، وأن تعود إلى الشورى التي حرص عليها النبي (صلى الله عليه وسلم).

وقد آن أن يجتمع أبناء الجزائر كي يشيدوا جميعاً مدينة "تسود فيها العدالة والحرية" مدينة تقوم على تقوى من الله ورضوان.

الجزائر في ١٦ أفريل ١٩٦٤

نموذج عن خط الإبراهيمي

العلامة العبقري المجاهد
الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

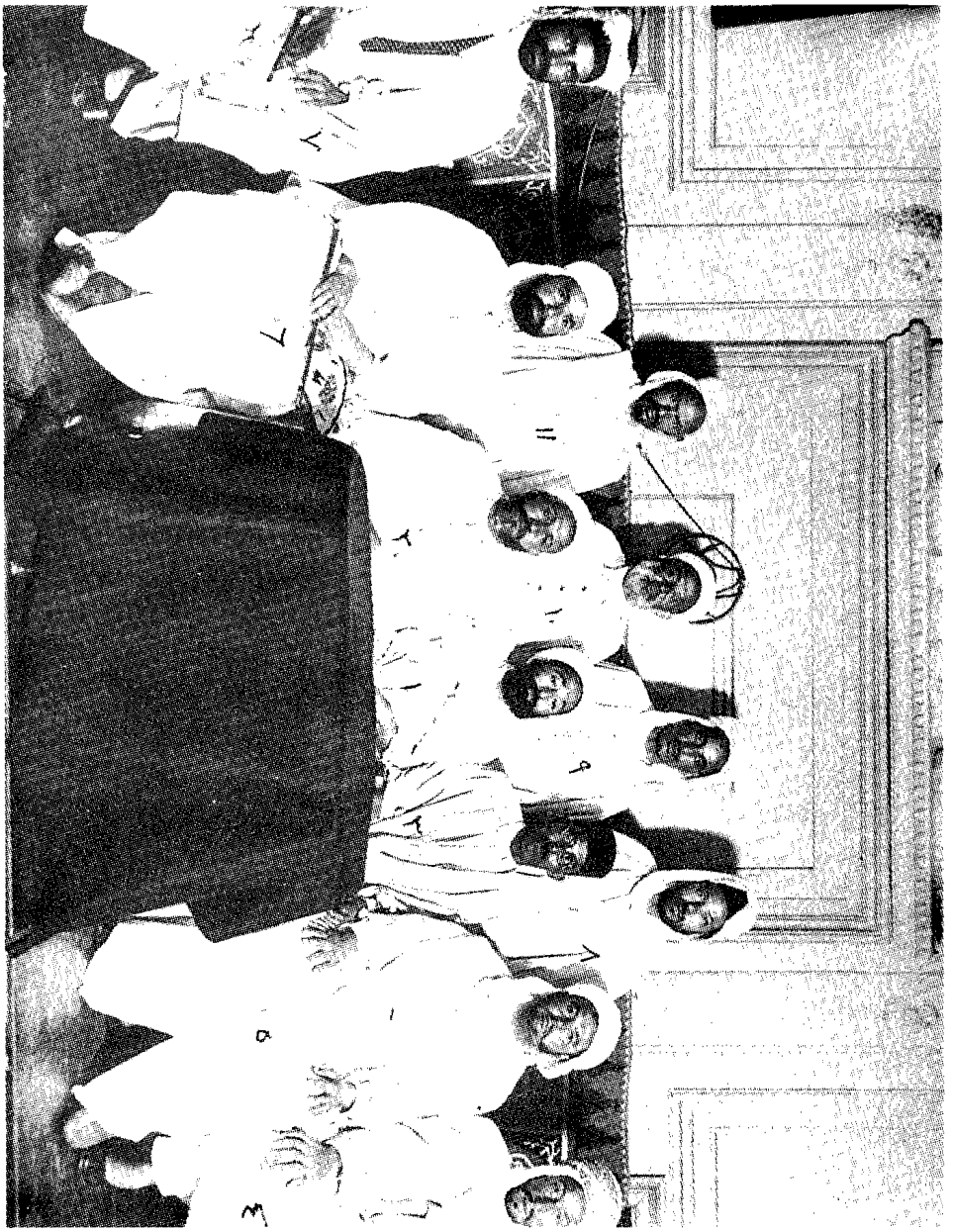

إدارة جمعية العلماء المنتخبة يوم الثلاثاء ٥/ ٤/ ١٣٥٣هـ ـ ١٧/ ٧/ ١٩٣٤م فيها بعض أعلام الإصلاح نذكرهم حسب الأرقام التي وضعها صاحب الصورة، وهم المشائخ الأجلاء:

١ـ عبد الأرقام بن باديس ٢ ـ البشير الإبراهيمي ٣ ـ الأمين العمودي ٤ ـ عبد القادر بن زيان ٥ ـ العربي اتبسي ٦ ـ مبارك الميلي ٧ـ الطيب العقبي ٨ ـ السعيد الزاهري ٩ ـ محمد خير الدين ١٠ ـ يحيى حمودي ١١ ـ إبراهيم أبو اليقظان

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المرحلة الأولى

[المولد، النسب، النشاة]

أنا محمد البشير الإبراهيمي، ولدت يوم الخميس عند طلوع الشمس في الثالث عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمئة وألف، ويوافق الرابع عشر من يونيو سنة (١٨٨٩)، كما رأيتُ ذلك مسجّلاً بخط جدي لأبي الشيخ عمر الإبراهيمي رحمه الله في سجلٍ أعدَّه لتسجيل مواليد الأسرة ووفياتها.

قبيلتنا تُعْرَفُ بأولاد إبراهيم بن يحيى بن مساهل، وترفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله، الجِذم الأول للأشراف الأدارسة، وإدريسُ هذا ـ ويعرف بإدريس الأَكبر ـ هو الذي خلص إلى المغرب الأقصى بعد وقعة فخّ بين العلويين والعباسيين، وإليه ترجع أنساب الأشراف الحسنيين في المغربين الأقصى والأوسط، ونسبنا هذا مستفيضٌ بين سكان الأطلس أوراس وسفوحه الجنوبية إلى الصحارى، والشمالية إلى التلول، ولأجدادنا كتاباتٌ متناقلة عن هذا النسب.

وموطنُنا الذي تقلّب فيه أجدادنا في تاريخٍ ضاربٍ في القدم هو السلاسل الغربية المتفرّعة عن جبل أوراس، وهي قمم تفصل بينها مسالك أودية، وطرق هابطة من التلول إلى الصحراء، وموقعها الغرب المائل للجنوب لمدينة قسنطينة عاصمة المقاطعة الشرقية للقطر الجزائري.

وبيتُنا أحد البيوت التي حفظت رسم العلم، وتوارثته قروناً من لدن خمول بجَّاية وسقوطها في القرن التاسع الهجري، وقد كانت بجاية دار هجرةٍ للعلم، وخصوصاً للأقاليم المتاخمة لها مثل إقليمنا.

وقد خرج من عمود نسبنا بالذات في هذه القرون الخمسة علماءُ في العلوم العربية، ونشروها بهمة واجتهاد في الأقاليم المجاورة لإقليمنا، ومنهم من هاجر إلى القاهرة في سبيل الاستزادة من العلم، والتوسع فيه ـ على صعوبة الهجرة إذ ذاك ـ ومن آثار الاتصال بالقاهرة أنهم بعد رجوعهم سَمّوا أبناءهم بأسماء كبار مشايخ الأزهر، وأنا أدركت في فروع بيتنا من تسمّى بالأمير، والصاوي، والخُرشي، والسنهوري.

نشأتُ في بيت والدي كما ينشأ أبناء بيوت العلم، فبدأت في التعلم وحفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمري، على التقليد المتبع في بيتنا الشائع في بلدنا، وكان الذي يعلّمنا الكتابة ويلقننا حفظَ القرآن جماعة من أقاربنا من حُفّاظ القرآن، ويشرف علينا إشرافاً عالياً عالمُ البيت بل الوطن كله في ذلك الزمان عمي شقيقُ والدي الأصغر الشيخ محمد المكي الإبراهيمي رحمه الله، وكان حاملَ لواءِ الفنون العربية غير مدافع، من نحوها وصرفها واشتقاقها ولغتها، أخذَ كل ذلك عن البقية الصالحة من علماء هذه الفنون بإقليمنا، منهم العلامة المتقن الشيخ ربيع قري اليعلاوي، ومنهم العلامة الشيخ محمد أبو القاسم البوجليلي، ومنهم العلامة الشيخ محمد أبو جمعة القلي، خاتمة المتبحرين في العربية والفقه، ولم يكن هؤلاء العلماء رحلوا إلى الأمصار الكبرى ذات الجامعات العلمية التاريخية كفاس وتونُس والقاهرة، وإنما كانوا يتوارثون العلوم الإسلامية طبقة عن طبقة، إلى الأجيال المتخرجة من مدن العلم الموجودة بوطننا، كبجاية، وقلعة بني حماد، وكلتاهما قريبة من مواطننا، وكلتاهما كانت مناراً للعلم ومهجراً لطلابه، ومطلعاً لشموسه، إلى الفترة التي تبدأ بالاحتلال التركي.

وكان أئمة العلم لا يعتمدون في تخرّجهم على الشهادات الرسمية، وإنما كانوا يعتمدون على الإجازات من مشايخهم الذين يأخذون عنهم.

فلما بلغتُ سبع سنين، استلمني عمي من معلّمي القرآن، وتولّى

تربيتي وتعليمي بنفسه، فكنت لا أفارقه لحظة حتى في ساعات النوم، فكان هو الذي يأمرني بالنوم، وهو الذي يوقظني منه، على نظام مضطرد في النوم والأكل والدراسة.

وكان لا يخليني من تلقين حتى حين أخرج معه وأماشيه للفسحة، فحفظتُ فنون العلم المهمة في ذلك السن، مع استمراري في حفظ القرآن. فما بلغتُ تسع سنين من عمري حتى كنت أحفظُ القرآنَ مع فهم مفرداته وغريبه، وكنت أحفظ معه «ألفية ابن مالك»، ومعظم «الكافية» له، و«ألفية ابن معطي» الجزائري، و«ألفيتي» الحافظ العراقي في السير، والأثر، وأحفظ «جمع الجوامع» في الأصول، و«تلخيص المفتاح» للقاضي القزويني، و«رقم الحلل في نظم الدول» لابن الخطيب، وأحفظ الكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التلمساني شاعر المغرب والأندلس في المئة السابعة، وأحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس مثل ابن الشُّهَيْد، وابن برد، وابن أبي الخصَّال، وأبي المطرف ابن أبي عميرة، وابن الخطيب.

ثم لفتني عمي إلى دواوين فحول المشارقة، ورسائل بلغائهم، فحفظت صدراً من شعر المتنبي، ثم استوعبته بعد رحلتي إلى الشرق، وصدراً من شعر الطائيين[1]، وحفظتُ ديوانَ الحماسة، وحفظتُ كثيراً من رسائل سهل بن هارون، وبديع الزمان.

وفي عنفوان هذه الفترة كنتُ حفظت بإرشاد عمي كتاب «كفاية المتحفظ» للأجدابي الطرابلسي، وكتاب «الألفاظ الكتابية» للهمذاني، وكتاب «الفصيح» لثعلب، وكتاب «إصلاح المنطق» ليعقوب بن السكيت، وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكتي اللغوية.

ولم يزل عمي رحمه الله يتدرّجُ بي من كتاب إلى كتاب تلقيناً وحفظاً

(١) [أبو تمام والبحتري].

ومدارسةً للمتون والكتب التي حفظتها حتى بلغت الحادية عشرة، فبدأ لي في درس «ألفية ابن مالك» دراسةَ بحثٍ وتدقيقٍ، وكان قبلها أقرأني كتبَ ابن هشام الصغيرة قراءةَ تفهُّمٍ وبحثٍ، وكان يقرئني مع جماعة الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في وطننا إذ ذاك، ويقرئني وحدي، ويقرئني وأنا أماشيه في المزارع، ويقرئني على ضوء الشمع، وعلى قنديل الزيت، وفي الظلمة، حتى يغلبَني النوم، ولم يكنْ شيءٌ من ذلك يرهقني، لأنّ الله تعالى وهبني حافظةً خارقةً للعادة، وقريحةً نيرةً، وذهناً صيوراً للمعاني، ولو كانت بعيدة.

ولما بلغتُ أربع عشرة سنة مرض عمي مرضَ الموت، فكان لا يخليني من تلقينٍ وإفادةٍ وهو على فراش الموت، بحيثُ أني ختمتُ الفصول الأخيرة من «ألفية ابن مالك» عليه، وهو على تلك الحالة.

* * *

المرحلة الثانية
[التدريس، والرحلة إلى القاهرة]

ولما مات عمي، شرعتُ في تدريس العلوم التي درستها عليه، وأجازني بتدريسها ـ وعمري أربع عشرة سنة ـ لطلبته الذين كانوا زملائي في الدراسة عليه، وانثال علي طلبة العلم من البلدان القريبة منا، والتزم والدي بإطعامهم، والقيام عليهم كالعادة في حياة عمي، وربما انتقلت في بعض السنين إلى المدارس القبلية القريبة منها لسعتها واستيعابها للعدد الكثير من الطلبة، وتيسُّرِ المرافق بها للسكنى.

ودمتُ على تلك الحال إلى أن جاوزتُ العشرينَ من عمري، فتاقت نفسي إلى الهجرة إلى الشرق، واخترت المدينة المنورة، لأن والدي سبقني إليها سنة (١٩٠٨) فراراً من ظلم فرنسة، فالتحقت به متخفيّاً أوائل سنة (١٩١٢) كما خرج هو متخفيّاً، ومررتُ في وجهتي هذه بالقاهرة، فأقمتُ بها ثلاثة أشهر، وحضرتُ بعضَ دروس العلم في الأزهر، وعرفت أشهرَ علمائه، فممن عرفتُه وحضرتُ دروسَه، الشيخ سليم البشري، والشيخ محمد بخيت، حضرت درسه في البخاري في رواق العباسي، والشيخ يوسف الدجوي، حضرت درسه في البلاغة، والشيخ عبد الغني محمود، والشيخ السمالوطي، حضرت لكليهما درساً في المسجد الحسيني، والشيخ سعيد الموجي، ذكر لي أنّ له سنداً عالياً في رواية الموطأ، فطلبت أن أرويها عنه بذلك السند، وحضرت مجالسه بجامع الفاكهاني مع جمهور من الطلبة، وتوليت قراءة بعض الموطأ عليه من حفظي، وحضرتُ عدة دروس في دار الدعوة والإرشاد، التي أسسها الشيخ رشيد رضا في منيل الروضة، وزرت شاعر العربية الأكبر أحمد

شوقي، وأسمعته عدة قصائد من شعره من حفظي، فتهلل رحمه الله واهتز، كما اجتمعت بشاعر النيل حافظ إبراهيم في بعض أندية القاهرة، وأسمعته من حفظي شيئاً من شعره كذلك.

* * *

المرحلة الثالثة

[الرحلة إلى المدينة المنورة]

خرجت من القاهرة قاصداً المدينة المنورة، فركبت البحر من بورسعيد إلى حيفا، ومنها ركبت القطار إلى المدينة، وكان وصولي إليها في أواخر سنة (١٩١١)، واجتمعت بوالدي رحمه الله، وطفت بحِلَقِ العلم في الحرم النبوي مختبراً، فلم يرق لي شيءٌ منها، وإنما هي غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شيءٌ، ولم أجد علماً صحيحاً إلا عند رجلين هما شيخاي: الشيخ عبد العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، فهما ـ والحق يقال ـ عالمان محققان، واسعا أفق الإدراك في علوم الحديث وفقه السنة، ولم أكن راغباً إلا في الاستزادة من علم الحديث، رواية ودراية، ومن علم التفسير، فلازمتهما ملازمة الظل، وأخذت عن الأول «الموطأ» دراية، ثم أدهشني تحقيقُه في بقية العلوم الإسلامية، فلازمت درسَه في فقه مالك، ودرسه في «التوضيح» لابن هشام، ولازمت الثاني في درسه «لصحيح مسلم».

وأشهد أني لم أر لهذين الشيخين نظيراً من علماء الإسلام إلى الآن، وقد علا سني، واستحكمت التجربةُ، وتكاملتِ الملكةُ في بعض العلوم، ولقيت من المشايخ ما شاء الله أن ألقَى، ولكنني لم أر مثل الشيخين في فصاحة التعبير، ودقة الملاحظة، والغوص عن المعاني، واستنارة الفكر، والتوضيح للغوامض، والتقريب للمعاني القصية.

ولقد كوّنتُ لكثرةِ مطالعاتي لكتبِ التراجم والطبقات صورةً للعالم المبرِّز في العلوم الإسلامية، منتزعةً مما يصِفُ به كتّاب التراجم بعض مترجميهم، وكنت أعتقدُ أن تلك الصورة الذهنية لم تتحقق في الوجود

الخارجي منذ أزمان، ولكنني وجدتها محققة في هذين العالمين الجليلين.

وقد مات الشيخ الوزير بالمدينة في أعقاب الحرب العالمية الأولى، أما الشيخ حسين أحمد فقد سلّمه الشريف حسين بن علي إلى الإنكليز في أواخر ثورته المشؤومة، فنفوه إلى مالطة، ثم أرجعوه إلى وطنه الأصلي الهند، وعاش بها سنين، وانتهت إليه رئاسة العلماء بمدينة العلم ديونبد، ولما زرت باكستان للمرة الأولى سنة (١٩٥٢) ميلادية، كاتبته فاستدعاني بإلحاح إلى زيارة الهند، ولم يقدَّرْ لي ذلك، وفي هذه العهود الأخيرة بلغتني وفاته بالهند.

وأخذتُ أيام مجاورتي بالمدينة علمَ التفسير عن الشيخ الجليل إبراهيم الأسكوبي، وكان ممن يشارَ إليهم في هذا العلم، مع تورُّعٍ وتصاونٍ، هو فيهما نسيج وحده.

وأخذت الجرح والتعديل وأسماء الرجال عن الشيخ أحمد البرزنجي الشهرزوري في داره أيام انقطاعه عن التدريس في الحرم النبوي، وكان من أعلام المحدثين، ومن بقاياهم الصالحة.

وأخذت أنسابَ العرب وأدبهم الجاهلي والسيرةَ النبوية عن الشيخ محمد عبد الله زيدان الشنقيطي، وهو أعجوبةُ الزمان في حفظ اللغة العربية وأنسابِ العرب، وحوادث السيرة.

وأتممت معلوماتي في علم المنطق عن الشيخ عبد الباقي الأفغاني بمنزله، وكان رجلاً مُسِناً منقطعاً عن أسباب الدنيا، قرأتُ عليه «الحكمة المشرقية»، وكان قيماً عليها، بصيراً بدقائقها.

وذاكرتُ صاحبنا الشيخ أحمد خيرات الشنقيطي سنين عديدة في اللغة والشعر الجاهلي، ومنه «المعلقات العشر»، وصاحبنا الأديب محمد العمري الجزائري أمهاتِ الأدبِ المشهورة، خصوصاً «الكامل» للمبرد، و«البيان والتبيين» للجاحظ، فقد ختمناها مطالعةً مشتركةً فاحصةً متأنيةً،

وكذلك فعلنا بكتاب «الأغاني» من أوله إلى آخره.

وبالجملة فقد كانت إقامتي بالمدينة المنورة أيامَ خيرٍ وبركةٍ علي، فكنتُ أنفق أوقاتي الزائدة في إلقاء دروس في العلوم التي لا أحتاج فيها إلى مزيدٍ كالنحو والصرف والعقائد والأدب، وكنت أتردد على المكتبات الجامعة، فلا يراني الرائي إلا في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، حتى استوعبت معظم كتبها النادرة قراءة، وفي مكتبة السلطان محمود، وفي مكتبة شيخنا الشيخ الوزير، وفي مكتبة بشير آغا، أو في مكتبات الأفراد الغاصّة بالمحفوظات، مثل مكتبة آل الصافي، ومكتبة رباط سيدنا عثمان، وفي مكتبة آل المدني، وآل هاشم، ومكتبة الشيخ عبد الجليل برادة، ومكتبة الوزير التونسي العربي زروق، كما كنت أستعير كثيراً من المحفوظات الغريبة من أصدقائي وتلامذتي الشناقطة، أذكر منها ديوان غيلان ذي الرُّمة، فأقرأها وأحفظ عيونها، وقد حفظتُ في تلك الفترة معظم ديوان ذي الرُّمة.

كل هذا وأنا لم أنقطع عن إلقاء الدروس، وجاءت الحرب العالمية الأولى، فلم أنقطع عن هذا النظام المحكم في حياتي العلمية، ولما جاءت سنة (١٩١٧) أمرتِ الحكومة العثمانية بترحيل سكان المدينة كلهم إلى دمشق، بسبب استفحال ثورة الشريف حسين بن علي، وعجز الحكومة عن تموين الجيش، الذي بلغ عدده خمسين ألفاً، وتموين المدنيين الذين يبلغ تعدادهم ثمانين ألفاً، فاقتضى تدبير قوادها العسكريين إذ ذاك أن يُنْقَلَ سكانُ المدينة إلى مصدر الأقوات في دمشق، بدل أن تنقل الأقوات منها إليهم، فكنت من أوائل المطيعين لذلك الأمر، وخرجت مع والدي إلى دمشق في شتاء سنة ١٩١٧، وكان من أول ما يعنيني لقاء رجال العلم، وكانوا أول من بدأ بالفضل، فزاروني في منزلي، وتعارفنا لأول لقاء، وهدتني المجالس الأولى إلى تمييز مراتبهم، فاصطفيت منهم جماعةً من أولهم الصديق الحميم الشيخ بهجة البيطار.

المرحلة الرابعة
[في دمشق]

ما لبثت شهراً حتى انهالت علي الرغبات في التعليم بالمدارس الأهلية، فاستجبت لبعضها، ثم حملني إخواني على إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي بمناسبة حلول شهر رمضان، فامتثلت، وألقيت دروساً تحت قبة النسر الشهيرة، على طريقة الأمالي، فكنت أجعل عماد الدرس حديثاً أمليه من حفظي بالإسناد إلى أصوله القديمة، ثم أملي تفسيرَه بما يوافق روح العصر وأحداثه، فسمع الناس شيئاً لم يألفوه، ولم يسمعوه إلا في دروس الشيخ بدر الدين الحسني، ثم بعدَ خروج الأتراك من دمشق، وقيام حكومة الاستقلال العربي، دعتني الحكومة الجديدة إلى تدريس الآداب العربية بالمدرسة السلطانية، وهي المدرسة الثانوية الوحيدة إذ ذاك، مشاركاً للأستاذ اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك، فاضطلعت بما حملت من ذلك، وتلقى عني التلامذة دروساً في الأدب العربي الصميم، وكانت الصفوف التي أدرّس لها الأدب العربي هي الصفوف النهائية المرشحة للبكالوريا، وقد تخرّج عني جماعة من الطلبة، هم اليوم عماد الأدب العربي في سورية منهم: الدكتور جميل صليبا، والدكتور أديب الروماني، والدكتور المحايري، والدكتور عدنان الأتاسي.

ولما دخل الأمير فيصل بن الحسين دمشق، اتصل بي، وأرادني على أن أبادر بالرجوع إلى المدينة، لأتولى إدارةَ المعارف بها، ولم يكن ذلك في نيتي وقصدي، لما طرأ على المدينة من تغير في الأوضاع المادية والنفسية، فأبيت عليه، وما فتىء يلح علي وآبى إلى أن سنحت الفرصة، فكَررتُ راجعاً إلى الجزائر موطنِ آبائي وعشيرتي.

المرحلة الخامسة

أعمالي في الجزائر بعد رجوعي من الحجاز والشام

وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأعمالي فيها

كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر، ومن مُخبَّآت الغيوب لها، أنْ يرد علي بعد استقراري بالمدينة المنورة سنة وبضعةَ أشهرٍ أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك الشيخ عبد الحميد بن باديس، أعلم علماء الشمال الإفريقي ولا أغالي، وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر.

وبيتُ ابن باديس في قسنطينة بيتٌ عريقٌ في السؤدد والعلم، ينتهي نسبه ـ في سلسلة كعمود الصبح ـ إلى المعز بن باديس، مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى، التي خلفت الأغالبة على مملكة القيروان، ومدت ظِلَّها على قسنطينة ومقاطعتها حيناً من الدهر، ومع تقارب بلدينا بحيث لا تزيد المسافة بيننا على مئة وخمسين كيلومتراً، ومع أننا لدتان في السن، يكبرني الشيخ بنحو سنة وبضعة أشهر، رغم ذلك كله فإننا لم نجتمع قبل الهجرة إلى المدينة، ولم نتعارفْ إلا بالسماع، لأنني كنت عاكفاً في بيت والدي على التعلم، ثم على التعليم، وهو كان يأخذ العلم على علماء قسنطينة، متبعاً لتقاليد البيت، لا يكادُ يخرجُ من قسنطينة، ثم بعد بلوغ الرشد، ارتحل إلى تونُس، فأتمّ في جامع الزيتونة تحصيلَ علومها.

كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي، فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حتى يفتح المسجد، فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترِقُ إلى الليلة

الثانية، إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة.

كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلُّها صوراً ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة (١٩١٣) ميلادية، هي التي وُضِعَتْ فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في سنة (١٩٣١).

ورجع الشيخ إلى الجزائر من سنته تلك، بعد أن أقنعته بأني لاحق به، بعد أن أقنع والدي أن رجوعي إلى الجزائر يترتب عليه إحياء للدين والعربية، وقمع للابتداع والضلال، وإنكاء للاستعمار الفرنسي، وكان هذا هو المنفذ الوحيد الذي أدخلُ منه على نفس والدي ليسمح لي بالرجوع إلى الجزائر.

وشرع الشيخ بعد رجوعه من أول يوم في تنفيذ الخطوة الأولى من البرنامج الذي اتفقنا عليه، ففتح صفوفاً لتعليم العلم، واحتكر مسجداً جامعاً من مساجد قسنطينة لإلقاء دروس التفسير، وكان إماماً فيه، دقيقَ الفهم لأسرار كتاب الله، فما كادَ يشرعُ في ذلك، ويتسامع الناس به، حتى انهال عليه طلاب العلم من الجبال والسهول، إلى أن ضاقت بهم المدينة، وأعانه على تنظيمهم وإيوائهم وإطعام المحاويج منهم جماعةٌ من أهل الخير ومحبي العلم، فقويت بهم عزيمتُه، وسار لا يلوي على صائح.

واشتعلت الحرب العالمية الأولى وهو في مبدأ الطريق، فاعتصم بالله، فكفاه شرّ الاستعمار، وكان له من وجود والده درع وقاية من بطش فرنسة، التي لا تصبر على أقل من هذه الحركات، وكان لوالده مقامٌ محترم عند حكومة الجزائر، فسكتت عن الابن احتراماً لشخصية الوالد، وظهرت النتائج المرجوّة لحركته في السنة الأولى. وكانت في السنة الثانية وما بعدها أكبر، وعدد الطلبة أوفر، إلى أن انتهت الحرب.

ورجعت أنا إلى الجزائر فلقيني بتونس، وابتهج لمقدمي أكثر من كل أحد، لتحقيق أمله المعلّق علي، وزرته بقسنطينة قبل أن أنقلب إلى أهلي، ورأيتُ بعيني النتائج التي حصل عليها أبناء الشعب الجزائري في بضع سنوات من تعليم ابن باديس، واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها، وأنّ هذه الخطوة المسددة التي خطاها ابن باديس هي حجر الأساس في نهضة عربية في الجزائر، وأن هذه المجموعة من التلاميذ التي تناهز الألف، هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر، ولمستُ بيدي آثار الإخلاص في أعمال الرجال، ورأيتُ شباناً ممن تخرّجوا على يد هذا الرجل، وقد أصبحوا ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة، وتركيب عربي حر، ومعان بليغة، وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمة، وأوصاف رائعة في المجتمع الجزائري، وتشريح لأدوائه، ورأيتُ جماعةً أخرى من أولئك التلامذة، وقد أصبحوا يحبّرون المقالات البديعة في الصحف، فلا يقصرون عن أمثالهم من إخوانهم في الشرق العربي، وآخرون يعتلون المنابر، فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القولَ المؤثر، والوصف الجامع، ويصفون الدواء الشافي بالقول البليغ.

وحللت بلدي، وبدأتُ من أول يوم في العلم الذي يؤازر عمل أخي ابن باديس.. بدأت أولاً بعقد الندوات العلمية للطلبة، والدروس الدينية للجماعات القليلة، فلما تهيأتِ الفرصةُ انتقلتُ إلى إلقاء الدروس المنظمة للتلامذة الملازمين، ثم تدرجتُ لإلقاء المحاضرات التاريخية والعلمية على الجماهير الحاشدة في المدن العامرة والقرى الآهلة، وإلقاء دروسٍ في الوعظ والإرشاد الديني كلَّ جمعةٍ في بلدٍ، ثم لما تم استعداد الجمهور الذي هزته صيحاتي إلى العلم، أسستُ مدرسةً صغيرةً لتنشئة طائفةٍ من الشبان نشأةً خاصة، وتمرينهم على الخطابة، والكتابة، وقيادة الجماهير، بعد تزويدهم بالغذاء الضروري من العلم، وكانتْ أعمالي هذه في التعليم

الذي وقفتُ عنايتي عليه؛ فاترة أحياناً، لخوفي من مكايد الحكومة الاستعمارية، إذ ليس لي سندٌ آوي إليه كما لأخي ابن باديس، وكانت حركاتي منذ حللت بأرضِ الوطنِ مثارَ ريب عند الحكومة، ومنبع شكوك، حتى صلاتي وخطبي الجمعية، فكنت أتغطّى لها بألوانٍ من المخادعة، حتى أني تظاهرت لها عدة سنين بتعاطي التجارة، وغشيان الأسواق لإطعام من أعولهم من أفراد أسرتي، ولكنّها لم تنخدع، ولم تطمئن إلى حركتي، فكان بوليسها يلاحقني بالتقارير، ويضيّق الخناق على كل من يزورني من تونس أو الحجاز، كلُّ هذا وأنا لم أنقطع عن الدروس لطلاب العلم بالليل.

في هذه الفترة ما بين سنة (١٩٢٠ ـ ١٩٣٠) كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية، وكنا نتلاقى في كل أسبوعين، أو كلّ شهر على الأكثر، يزورني في بلدي اصطيف، أو أزوره في قسنطينة، فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن آثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختلّ أبداً، وكنا نقرأ للحوادث، والمفاجآت حسابَها، فكانت هذه السنوات العشر كلُّها إرهاصاتٌ لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين.

كملت لنا على هذه الحالة عشر سنوات، كانت كلها إعداداً وتهيئةً للحدث الأعظم، وهو إخراج جمعية العلماء من حيِّزِ القول إلى حيِّزِ الفعل، وأصبحَ لنا جيش من التلامذة يحمل فكرتنا وعقيدتنا، مسلح بالخطباء والكتاب والشعراء، يلتف به مئات الآلاف من أنصار الفكرة، وحملة العقيدة، يجمعهم كلهم إيمانٌ واحد، وفكرة واحدة، وحماس متأجج، وغضب حاد على الاستعمار.

كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمّتْ لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا.

كانت سنة (١٩٣٠) هي السنة التي تم بتمامها قرن كامل على احتلال فرنسة للجزائر، فاحتفلت بتلك المناسبة احتفالاً قدرت له ستة أشهر، ببرنامج حافل مملوء بالمهرجانات، ودعت إليه الدنيا كلها، فاستطعنا بدعايتنا السرية، أن نفسدَ عليها كثيراً من برامجها، فلم تدم الاحتفالات إلا شهرين، واستطعنا بدعايتنا العلنية أن نجمع الشعب الجزائري حولَنا، ونلفت أنظارَه إلينا.

تكاملَ العدَد وتلاحقَ المدَد... العددُ الذي نستطيع أن نعلنَ به تأسيس الجمعية، والمدد من إخوانٍ لنا كانوا بالشرق العربي مهاجرين أو طلاب علم، فأعلنّا تأسيسَ الجمعية في شهر مايو سنة (١٩٣١) بعد أن حضَّرنا لها قانوناً أساسياً مختصراً من وضعي، أدرته على قواعد من العلم والدين، لا تثير شكاً ولا تخيف، وكانت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت تستهين بأعمال العالم المسلم، وتعتقد أننا لا نضطلع بالأعمال العظيمة، فخيبنا ظنَّها والحمد لله.

دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التي وجهناها إليهم صادرة باسم الأمة كلها، ليس فيها اسمي، ولا اسم ابن باديس، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم، ووصفُنا إيّاهم بأنهم بلاء على الأمة وعلى الدين، لسكوتهم على المنكرات الدينية، وبأنهم مطايا للاستعمار، يذل الأمة ويستعبدها باسمهم، فاستجابوا جميعاً للدعوة، واجتمعوا في يومها المقرر، ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام، كانت من الأيام المشهودة في تاريخ الجزائر، ولما تراءت الوجوه، وتعالت أصوات الحق، أيقن أولئك الفقهاء أنهم ما زالوا في دور التلمذة، وخضعوا خضوع المسلم للحق، فأسلموا القيادة لنا، فانتُخِبَ المجلسُ الإداري من رجال أكفاء، جمعتهم وحدة المشرب، ووحدة الفكرة، ووحدة المنازع الاجتماعية والسياسية، ووحدة المناهضة للاستعمار، وقد وكل المجتمعون

ترشيحهم إلينا، فانتخبوهم بالإجماع، وانتخبوا ابن باديس رئيساً، وكاتب هذه الأسطر وكيلاً نائباً عنه، وأصبحت الجمعية حقيقةً واقعةً قانونيةً، وجاء دور العمل.

هذه المرحلة من حياتي هي مناط فخري، وتاج أعمالي العلمية والاجتماعية، والأفق المشرق من حياتي، وهذه هي المرحلة التي عملت فيها لديني ولغتي ووطني أعمالاً أرجو أن تكون مقربةً من رضا الله، وهذه هي المواقف التي أشعر فيها كلما وقفت أردّ ضلالات المبتدعة في الدين، أو أكاذيب الاستعمار، أشعر كأنّ كلامي امتزجَ بزجل الملائكة بتسبيح الله.

كلّفني إخواني أعضاءَ المجلس الإداري في أول جَلْسة أن أضع للجمعية لائحة داخلية، نشرح أعمالها كما هي في أذهاننا، لا كما تتصورها الحكومة وأعوانها المضللون منا، فانتبذتُ ناحيةً، ووصلت طرفي ليلة في سبكها وترتيبها، فجاءتْ في مئة وسبع وأربعين مادة، وتلوتها على المجلس لمناقشتها في ثماني جلسات في أربعة أيام، وكان يحضر الجلسات طائفة كبيرة من المحامين والصحفيين العرب المثقفين بالفرنسية، فأعلنوا في نهاية عرض اللائحة إيمانَهم بأنّ العربية أوسع اللغات، وأنّها أصلحُ لغة لصوغ القوانينِ ومرافعاتِ المحامين، وكأنما دخلوا في الإسلام من ذلك اليوم.

وخطبَ الرئيس ـ عند تمام مناقشة اللائحة وإقرارها بالإجماع ـ خطبةً مؤثرة، أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان مما قال: عجبت لشعبٍ أنجبَ مثل فلانَ أن يضل في دين، أو يخزى في دنيا، أو يذل لاستعمار، ثم خاطبني بقوله: وَرِيَ بك زنادُ هذه الجمعية.

* * *

كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بيني وبين ابن

باديس منذ اجتماعنا في المدينة المنورة أنّ البلاء المنصبَّ على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه، ويتعرّقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه: **استعمار مادي**: هو الاستعمار الفرنسي، يعتمد على الحديد والنار، **واستعمار روحاني** يمثله مشايخ الطرق، المؤثرون في الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه، المتّجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضا وطواعية، وقد طال أمدُ هذا الاستعمار الأخير، وثقلت وطأته على الشعب، حتى أصبحَ يتألّمُ ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد، خوفاً من الله بزعمِهِ، والاستعماران متعاضدان، يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته، ومظهرهما معاً تجهيلُ الأمة، لئلا تفيقَ بالعلم، فتسعى في الانفلات، وتفقيرها، لئلا تستعينَ بالمالِ على الثورة.

فكان من سداد الرأي وإحكام التدبير بيني وبين ابن باديس أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثاني، لأنه أهون، وكذلك فعلنا، ووجد المجلس الإداري نظاماً محكماً فاتبعه، لذلك كانت أعمال الجمعية متشعبة، وكان الطريق أمام المجلس الإداري شاقاً، ولكنه يرجع إلى الأصول الآتية:

١ ـ تنظيم حملةٍ جارفةٍ على البدع والخرافات والضلال في الدين، بواسطة الخطب، والمحاضرات، ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية، والأماكن العامة والخاصة، حتى في الأسواق، والمقالات في جرائدنا الخاصة التي أنشأناها لخدمة الفكرة الإصلاحية.

٢ ـ الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار، فيما تصل إليه أيدينا من الأماكن، وفي بيوت الآباء، ربحاً للوقت قبل بناء المدارس.

٣ ـ تجنيد المئات من تلامذتنا المتخرّجين، ودعوة الشبان المتخرجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.

٤ ـ العمل على تعميم التعليم العربي للشبان على النمط الذي بدأ به ابن باديس.

٥ ـ مطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجدنا ومعاهدنا التي استولت عليها، لنستخدمها في تعليم الأمة دينها، وتعليم أبنائها لغتهم.

٦ ـ مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجزتها ووزعتها على معمريها، لتُصْرَف في مصارفها التي وُقفت عليها، وكانت من الكثرة بحيث تساوي ميزانية دولة متوسطة.

٧ ـ مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشخصية مبدئياً.

٨ ـ مطالبة الحكومة بعدم تدخلها في تعيين الموظفين الدينيين.

هذه معظم المطالب التي تدخل في صميم أعمال الجمعية، منها ما بدأناه بالفعل، ولاقينا فيه الأذى، فصبرنا حتى كانت العاقبة لنا، ومنها ما طالبنا به حتى أقمنا حق الأمة فيه، وفضحنا الاستعمار شر فضيحة، ومجموع هذه المطالب في ظاهرها دينية، ولكنها في معناها وفي نظر الاستعمار هي نصف الاستقلال.

كانت السنة الأولى من عمر الجمعية سنةَ غليان: من جهتنا في تكوين الشُّعَبِ في كل مدينة وكل قرية، لتنفيذ مقاصد الجمعية، وغليان السخط علينا من الاستعمار، لأننا فاجأناه بما تركه مشدوهاً حائراً، لا يدري ما يفعل، ولا من أين يبدأ في مقاومة حركتنا، وتفرّقَ أعضاءُ الجمعية على القطر كله، يرشدون، ويعظون، ويزرعون الوعي، ويراقبون حركة التعليم، ويحضّرون أماكنه.

وعقدنا الاجتماع العام في السنة الثانية، فكانت النتيجةُ باهرةً، والعزائمُ أقوى، والأمةُ إلينا أميل، وخرج المترددون عن ترددهم، فانضموا إلينا، وأعيد انتخاب المجلس، فأسفر عن بقاء القديم، وزيادة

أعضاء ظهرت مواهبهم في العمل، وكشّر الاستعمار عن أنيابه، فبدأ بمنعنا من إلقاء الدروس في المساجد الواقعة في قبضته، وثارت نخوة الأمة، فأنشأت بمالها بضعة وتسعين مسجداً حرّاً في سنة واحدة في أمهات القرى.

في هذه السنة قررت إدارةُ الجمعية تعيينَ العلماء الكبار في عواصم المقاطعات الثلاث، ليكون كل واحد منهم مشرفاً على الحركة الإصلاحية والعلمية في المقاطعة كلها، فأبقينا الشيخ ابن باديس في مدينة قسنطينة، وحمّلناه مؤونة الإشراف على الحركة في جميع المقاطعة، وخصصنا الشيخ الطيب العقبي بالجزائر ومقاطعتها، وخصصوني بمقاطعة وهران وعاصمتها العلمية القديمة تلمسان، وكانت هي إحدى العواصم العلمية التاريخية التي أخنى عليها الدهر، فانتقلتُ إليها بأهلي، وأحييت بها رسومَ العلم، ونظمتُ دروساً للتلامذة الوافدين على حسب درجاتهم، وما لبثتُ إلا قليلاً حتى أنشأت فيها مدرسة دار الحديث، وتبارى كرام التلمسانيين في البذل لها، حتى برزت للوجود تحفة فنية من الطراز الأندلسي، وتحتوي على مسجد وقاعة محاضرات، وأقسام لطلبة العلم، واخترتُ لها نخبة من المعلمين الأكفاء للصغار، وتوليت بنفسي تعليم الطلبة الكبار من الوافدين وأهل البلد، فكنت أُلقي عشرة دروس في اليوم، أبدؤها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح، وأختِمُها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء.

وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى أحد النوادي، فألقي محاضرة في التاريخ الإسلامي، فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العباسية بضع مئات من المحاضرات.

وفي فترة العطلة الصيفية أختمُ الدروس كلّها، وأخرج من يومي للجوَلان في الإقليم الوهراني مدينةً مدينةً، وقريةً قريةً، فألقي في كل مدينة درساً أو درسين في الوعظ والإرشاد، وأتفقد شُعَبَها ومدارسها،

وكانت أيام جولتي كلَّها أيام أعراس عند الشعب، يتلقونني على عدة أميال من المدينة أو القرية، وينتقل بعضهم معي إلى عدة مدن وقرى، فكان ذلك في نظر الاستعمار تحدياً له ولسلطته، وفي نظر الشعب تمجيداً للعلم والدين، وإغاظةً للاستعمار، فإذا انقضت العطلة، اجتمعنا في الجزائر العاصمة، وعقدنا الاجتماع العام، وفي إثره الاجتماع الإداري، وقدّم كل منا حسابه، ونظمنا شؤون السنة الجديدة، ثم انصرفنا إلى مراكزنا.

بلغتْ إدارةُ الجمعية ـ وهي في مستهل حياتها ـ من النظام والقوة مبلغاً قوياً بديعاً، فأصبحنا لا نتعب إلا في التنقل والحديث.

أما الحكومة الاستعمارية فإننا بنينا أمرنا من أول خطوة على الاستخفاف بها وبقوانينها، وقد كنّا نعلن في جرائدنا كلَّ أسبوع بأن القوانين الظالمة لا تستحق الاحترام من الرجال الأحرار، ونحن أحرار، فلتفعل فرنسة ما شاءت، وكان هذا الكلام ومثله أنكى عليها من وقع السهام، لأنها لم تألف سماعه، وقد اطمأنت إلى أنّ الشعب الجزائري قد مات، كما صرح بذلك أحد ساستها الكبار في خطبة ألقاها على ممثلي الأمم في المهرجان الذي أقامته في عيدها المئوي لاحتلال الجزائر، وكان مما قال: لا تظنوا أنّ هذه المهرجانات من بلوغنا مئة سنة في هذا الوطن، فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أنّ مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار.

وكانت أعمال الأخوان[1] في المقاطعتين الأُخريين مشابهةً لأعمالي بمقاطعة وهران، لأننا نجري على منهاج واحد، ونسير على برنامج واحد، عاهدنا الله على تنفيذه.

ولما ضاقت فرنسة ذرعاً بأعمالي، ونفد صبرها من التحديات الصارخة لها، وأيقنت أنّ عاقبة سكوتها عنا هو زوال نفوذها وخاتمة

(١) [ابن باديس والعقبي].

استعمارها، اغتنمت فرصةَ نشوب الحرب العالمية الثانية، وأصدر رئيسُ وزرائها إذ ذاك (دالادي) قراراً يقضي بإبعادي إلى الصحراء الوهرانية إبعاداً عسكرياً لا هوادة فيه، لأنّ في بقائي طليقاً حراً خطراً على الدولة، كما هي عبارته في حيثيات القرار، ووكّل تنفيذ قراره للسلطة العسكرية فنقلوني للمنفى في عاشر مارس سنة (١٩٤٠)، وبعد استقراري في المنفى بأسبوع تلقيت الخبر بموت الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله بداره في قسنطينة بسرطانٍ في الأمعاء، كان يحسُّ به من سنوات، ويمنعه انهماكه في التعليم وخدمة الشعب من التفكير فيه وعلاجه، وقد شيَّعت جنازتَه عشراتُ الألوف من الأمة رغماً عن قسوة الأحكام العسكرية وقت الحرب، واجتمع المجلس الإداري للجمعية ورؤساء الشعب يوم موته، وانتخبوني رئيساً لجمعية العلماء بالإجماع، وأبلغوني الخبر وأنا في المنفى، فأصبحت أدير الجمعية، وأصرّف أعمالها من المنفى بالرسائل المتبادلة بيني وبين إخواني بواسطة رسل ثقات، وكنت حين بدأتْ نُذُرُ الحرب تظهر، وغيومها تتلبّد، اجتمعت بالشيخ ابن باديس في داري بتلمسان، فقررنا ماذا نصنع إذا قامت الحرب، وقررنا من يخلفنا إذا قُبِضَ علينا، وقلّبنا وجوهَ الرأي في الاحتمالات كلها، وقدّرنا لكل حالة حكمها، وكتبنا بكل ما اتفقنا عليه نسختين، ولكن كانت الأقدار من وراء تدبيرنا، فقبضه الله إليه.

بقيت في المنفى ثلاث سنين تقريباً، ولما أطلق سراحي من المنفى أول سنة ثلاث وأربعين كانت فاتحة أعمالي تنشيط حركة إنشاء المدارس، فأنشأتُ في سنة واحدة ثلاثاً وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر كله، كلَّها بأموال الأمة وأيديها، واخترت لتصميمها مهندساً عربياً مسلماً، فجاءت كلها على طراز واحد، لتشهد للأجيال القادمة أنها نتاج فكرة واحدة.

وتهافتت الأمة على بذل الأموال لتشييد المدارس، حتى أربت على

الأربعمئة مدرسة، ولم أتخلَّ بعد رئاستي للجمعية وخروجي من المنفى عن دروسي العلمية للطلبة وللعامة، ولما رأت فرنسة أنّ عقابها لي بالتغريب ثلاث سنوات لم تكف لكسر شِرَتي، وأنني عدت من المنفى أمضى لساناً وقلباً وعزيمةً مما كنت، وأن الحركة التي أقودها لم تزدد إلا اتساعاً ورسوخاً، انتهزت فرصة نهاية الحرب، ودبّرت للجزائر ثورةً مفتعلةً، فقتلت من الشعب الجزائري المسلم ستين ألفاً، وساقت إلى المعتقلات سبعين ألفاً، معظمهم من أتباع جمعية العلماء، وألقتْ بي في السجن العسكري المضيَّق، تمهيداً لمحاكمتي بتهمة التدبير لتلك الثورة، فلبثتُ في السجن سنة إلا قليل، ثم أخرجوني بدعوى صدور عفو عام على مدبري الثورة ومجرميها، كان من زملائي في السجن الدكتور محمد شريف سعدان رحمه الله، والصيدلي عباس فرحات، والمحامي محمد شريف حاج سعيد وغيرهم.

ولما خرجتُ من السجن عدت إلى أعمالي أقوى عزيمة مما كنت، وأصلب عوداً، وأقوى عناداً، وعادت المدارس التي عطلتها الحكومة زمن الحرب، وأحييتُ جميعَ الاجتماعات التي كانت معطلةً بسبب الحرب، ومنها الاجتماع السنوي العام، وأحييتُ جريدةَ «البصائر» التي عطلناها من أول الحرب باختيارنا باتفاق بيني وبين ابن باديس لحكمة، وهي أننا لا نستطيع تحت القوانين الحربية أن نكتب ما نريد، ولا يرضى لنا ديننا، وهمتنا، وشرف العلم، وسمعة الجمعية في العالم أن نكتب حرفاً مما يُرادُ منا، فحكمنا عليها بالتعطيل، وقلنا: بيدي لا بيد عمرو، وحسناً فعلنا، كذلك عطلنا مجلة «الشهاب» الناشرة لأفكار الجمعية.

ولما قررنا إحياء جريدة «البصائر» ألزمني إخواني أن أتولّى إدارتها ورئاسة تحريرها، فقبلت مكرهاً، وتضاعفت المسؤوليات، وثقلت الأعباء، فرئاسة الجمعية وما تستلزم من رحلات وما يتبع الرحلات من دروس ومحاضرات كلُّ ذلك كان يستنزف جهدي، فكيف إذا زادت عليها

أعباء الجريدة وتحريرها، ولكن عون الله إذا صاحب امرأً خفت عليه الأثقال.

كنت أقوم للجمعية بكل واجباتها، وأقوم للجريدة بكل شيء حتى تصحيح النماذج، وأكتب الافتتاحيات بقلمي، وقد تمرُّ الليالي ذوات العدد من غير أن أطعم النوم، وقد أقطعُ الألف ميل بالسيارة في الليلة الواحدة، وما من مدرسة تفتح إلا وأحضر افتتاحها وأخطب فيه، وما من عداوة تقع بين قبيلتين أو فردين إلا وأحضرُ بنفسي، وأبرم الصلح بينهما، وأرغم الاستعمار الذي من همه بثّ الفتن وإغراء العداوة والبغضاء بين الناس، فكنتُ معطِّلاً لتدبيراته في جميع الميادين.

ضرورة الانتقال إلى التعليم الثانوي

بلغ عدد المدارس الابتدائية العربية أربعمئة وزيادة، وبلغ عدد تلامذتها إلى اليوم الذي سافرت فيه إلى الشرق مئات الآلاف بين بنين وبنات، وبلغ عدد معلميها ألفاً وبضع مئات، وبلغت ميزانيتها الخاصة ـ وهي فرع من الميزانية العامة لجمعية العلماء ـ مئة مليون فرنك وزيادة، إلى نهاية خروجي من الجزائر سنة (١٩٥٢)، ولما بلغ عدد المتخرجين من مدارسنا بالشهادة الابتدائية عشرات الآلاف، وجدتُ نفسي أمامَ معضلةٍ يتعسّر حلها، ذلك أنّ حاملي هذه الشهادة ذاقوا حلاوة العلم فطلبوا المزيد، وأرهقوني من أمري عسراً، وألحوا عليَّ أن أتقدم بهم خطوة إلى الأمام، وحرامٌ علي ـ على حد تعبيرهم ـ أن أقفَ بهم دون غاياته، فكان واجباً على أن أخطو بهم إلى التعليم الثانوي، وأهبتُ بالأمة أن تعينني بقوة أبلغ بها غرض أبنائها، فاستجابتْ، فكان ذلك مشجعاً على إنشاء معهد ثانوي بمدينة قسنطينة، نسبناه إلى إمام النهضة ابن باديس، تخليداً لذكره، واعترافاً بفضله على الشعب، فاشترينا داراً عظيمة واسعة

من دور عظماء البلدة، وجعلنا منها معهداً ثانوياً، وهيأنا له من سنته الأساتذة والتلامذة والكتب والمال، فكان التعليم فيه بالمعنى الكامل عند غيرنا من الأمم ببرامجه وكتبه وأدواته، وكان هذا المعهد تاجاً لمدارس جمعية العلماء، وغرة في أعمالها، وكانت نيتي معقودة على إنشاء معهدين ثانويين آخرين، أحدُهما بمدينة الجزائر، والثاني بمدينة تلمسان، وقد بلغ نلامذة المعهد الباديسي في السنة الأولى ألفاً أو يزيدون، وكلهم منتخَبون من مدارسنا الابتدائية من جميع القطر، ثم اشترينا من مال الأمة داراً أخرى تتسع لسكنى سبعمئة طالب، وبعد خروجي لهذه الرحلة افتتحها إخواني من بعدي، بعد أن قسّموها إلى قاعات نوم فسيحة بأسرّتها، ودواليب الثياب، وكتب المطالعة، على ترتيب بديع، وفي الدار ما يريح الطالب من: مغتسلات، وحمامات، ومطابخ، وغرف طعام.

مالية جمعية العلماء

مالية جمعية العلماء تأتيها من موردين: اشتراكات الشُّعَبِ الشهرية، والتبرعات غير المحدودة، وميزانيتُها في السنوات الأخيرة أصبحت ضخمة، وقد قسمتها إلى أقسام:

ـ فمالية بناء المدارس لا تدخل خزينةَ الجمعية، بل تقبضها الجمعية المحلية، وتنفقها على البناء، فإذا تمَّ البناءُ، جرى الحساب علناً على رؤوس الأشهاد بحضرتي، وسُدّ بابها.

ـ والمالية الخاصة بأجور المعلمين والقومة على المدرسة، تؤخذ من آباء التلاميذ بواسطة أمين مال الجمعية المحلية في مقابل إيصالات رسمية مختومة بختمها، ولكل مدرسة جمعية محلية قانونية، تنتخبها جمعية العلماء من أعيان المدينة أو القرية، ولا تحاسب جمعية العلماء إلا في آخر السنة في الاجتماع العام.

ـ والمال الذي يتحصّل من الاشتراك العام في جمعية العلماء هو الذي يدخل إلى خزانتها، ويحاسَبُ عليه أمينُ مالها في التقرير المالي، الذي يتقدّم به إلى الاجتماع العام، ويضاف إليه ما يتحصّل من التبرعات غير المحددة.

أما الجريدة فإنها قائمة بنفسها من أثمان الاشتراك فيها، وقد قررتُ في كل اجتماع عام أن تُعرَضَ على المجلس الإداري جميعُ المداخيل المذكورة من أجور التعليم، والاشتراكات العامة، والتبرعات، كل ميزانية على حدة، وكل مدرسة يفيض دخلها على خرجها، يدخل المبلغ الفائض في الخزينة العامة، وكل مدرسة ينقص دخلها عن خرجها، يعتمد لها من الخزينة العامة ما يسد عجز ميزانيتها، وكل هذا على نظام بديع، يؤدي إلى اشتراكية بين المدارس مع بعضها، وبين الشُّعَبِ والجمعيات المحلية.

أثر أعمالي وأعمال إخواني في الشعب الجزائري

أثرُ أعمالنا في الشَّعْبِ بارزٌ، لا ينكره حتى أعداؤنا من الاستعماريين، وخصومنا من إخواننا السياسيين، فمن آثارنا:

١ ـ بث الوعي واليقظة في الشعب، حتى أصبحَ يعرف ما له وما عليه.

٢ ـ ومنها إحياءُ تاريخ الإسلام وأمجاد العرب التي كان الاستعمار يسدُّ علينا منافذ شعاعها، حتى لا يتسرّبَ إلينا شيءٌ من ذلك الشعاع.

٣ ـ ومنها تطهير عقائد الإسلام وعباداته من أوضار الضلال والابتداع، وإبراز فضائل الإسلام، وأولها الاعتماد على النفس، وإيثار العزة والكرامة، والنفور من الذلة والاستكانة والاستسلام.

٤ ـ ومنها أخذُ كلّ شيء بالقوة، ومنها العمل، هذه الكلمة الصغيرة التي تنطوي تحتها جميعُ الفضائل.

٥ ـ ومنها بذل المال والنفس في سبيل الدين والوطن.

٦ ـ ومنها نشر التحابب والتآخي بين أفراد المجتمع.

٧ ـ ومنها التمسك بالحقائق لا بالخيالات والأوهام.

فكل هذه الفضائل كان الاستعمار يغطّيها عن قصد، لينساها المسلمون على مر الزمان، بواسطة التجهيل وانزواء العقل والفكر.

وقد أصبح الشعبُ الجزائري بفضل جمعية العلماء، وما بذلناه من جهود في محو الرذائل التي مكّنَ لها الاستعمارُ، وتثبيتُ الفضائل التي جاء بها الإسلام.

ولو تأخر وجودُ الجمعية عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا، ولو سلكنا سبيلاً غير الذي سلكناه في إيقاظ الأمة وتوجيهها في السبيل السوي لما قامت هذه الثورة الجارفة في الجزائر، التي بيضت وجهَ العرب والمسلمين، ولو نشاء لقلنا: إننا أحيينا اللسان العربي، والنخوة العربية، وأحيينا دين الإسلام وتاريخَه المُشْرِقَ، وأعدنا لهما سلطانهما على النفوس، وتأثيرهما في العقول والأرواح، وشأنهما الأول في الاتعاظ والأسوة، فأحيينا بذلك كله الشعب الجزائري فعرف نفسه، فاندفع إلى الثورة، يحطِّم الأغلال، ويطلب بدمه الحياةَ السعيدةَ، والعيشةَ الكريمة، ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر.

* * *

مؤلفاتـــي

لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنني أتسلّى بأنني ألفتُ للشعب رجالاً، وعمِلْتُ لتحرير عقوله، تمهيداً لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته فأصبح مسلماً عربياً، وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنساناً أبياً، وحسبي هذا مقرباً من رضا الرب ورضا الشعب.

ومع ذلك فقد ساهمتُ بالكتابة في موضوعات مفيدة، ولكن لم يساعدني الفراغ ولا وجود المطابع على طبعها، ولقد بقيت كلها مسودات في مكتبتي بالجزائر.

فمن أجلّ ما كتبت:

١ ـ «عيون البصائر»: وهي مجموعة من المقالات التي كتبتها بقلمي في جريدة البصائر في سلسلتها الثانية[١].

٢ ـ كتاب «بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر» والتزمت فيها اللهجة السائدة اليوم في مواطن بني هلال بن عامر.

٣ ـ كتاب «النقايات والنفايات في لغة العرب» جمعت فيه كل ما جاء على وزن فعالة من مختار الشيء أو مرذوله.

٤ ـ كتاب «أسرار الضمائر في العربية».

---

(١) [نشر المؤلف رحمه الله الجزء الأول منها في مصر بمكتبة دار المعارف ونشرت ثلاثة أجزاء أخرى في الجزائر بعد وفاته، بإشراف نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي].

٥ ـ كتاب «التسمية بالمصدر».

٦ ـ كتاب «الصفات التي جاءت على وزن فَعل» بفتح العين.

٧ ـ كتاب «نظام العربية في موازين كلماتها».

٨ ـ كتاب «الاطراد والشذوذ في العربية».

٩ ـ «رسالة في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك».

١٠ ـ كتاب «ما أخلّت به كُتب الأمثال من الأمثال السائرة».

١١ ـ «رسالة في ترجيح أنّ الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان».

١٢ ـ رواية «كاهنة أوراس» بأسلوب مبتكر، يجمع بين الحقيقة والخيال.

١٣ ـ «رسالة في مخارج الحروف، وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية».

١٤ ـ كتاب: «حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام» بدأت فيه من أيام إقامتي في دمشق بعد الحرب الأولى، وأتممته بعد ذلك في فترات، وبحثتُ فيه ينابيع المال في الإسلام، واستخرجتُ ينابيعَ أخرى غير منصوصة تلتجىء إليها جماعات المسلمين إذا حزبهم أمر، أو فاجأتهم حادثة.

١٥ ـ كتاب «شعب الإيمان» جمعت فيه الأخلاق والفضائل الإسلامية.

١٦ ـ وهناك «محاضرات وأبحاث» كتبها عني التلامذة في حين إلقائها.

١٧ ـ وهناك «فتاوى» متناثرة.

١٨ ـ ولكنّ أعظم ما دونت «ملحمة» رجزية نظمتها في السنين التي كنت فيها مبعداً في الصحراء الوهرانية، وهي تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت

من الرجز السلس اللزومي في كل بيت منه، وقد تضمنتْ فنوناً من المواضيع: تاريخ الإسلام، ووصفٌ لكثيرٍ من الفرق التي حدثت في عصرنا هذا، وللمجتمع الجزائري بجميع فرقه ونحله، ولأفانينَ في الهزل بالمذاهب الاجتماعية والفكرية والسياسية المستجدة، والإنحاء على الابتداع في الدين، وتصويرٌ لأولياء الشيطان، ومحاورات أدبية رائعة بينهم وبين الشيطان، ووصفٌ للاستعمار ومكايده، ودسائسه، وحيله، وتخديراته للشعوب للقضاء على مقوماتها.

ولم أقرأ للرجاز رجزاً سلساً يلتحق بالشعر الفني مثل هذه الملحمة إلا لابن الخطيب في «نظم الدول» ولشوقي في رجز «دول العرب وعظماء الإسلام» ولبعض الشناقطة.

وكأن الرجز موقوف على نظم المتون العلمية، وهي مقيدة بالاصطلاح العلمي، لذلك كان بارداً بعيداً عن الفن، خالياً من الإشراق والروعة، حتى عدَّه المعري من سفساف القريض، وتخيَّلَ للرجاز جنة حقيرة، وأنا أعتبرُه بحراً كبقية بحور الشعر العربي، يرتفع فيه أقوام، وينخفض آخرون، ولمهيار الديلمي قصائد كثيرة من مسلسلاته من ورن هذا البحر، ولم يقعدْ بها عن الإجادة أنها من الرجز. وشوقي إمامُ الشعر في وقتنا هذا يقول في شأن الغاضّين من الرجز، الظانّين بأنّه مَرْكَبٌ لمن عجز:

تـــرونَ رأيـــاً وأرىٰ خـــلافَـــهْ الكـــأسُ لا تقـــوِّمُ الســـلافـــهْ

* * *

خلاصة الخلاصة

١ ـ ولدتُ عند طلوع الشمس من يوم الخميس الثالث عشر من شهر شوال عام (١٣٠٦) هـ، الموافق للرابع عشر من شهر يونيو سنة (١٨٨٩) م.

٢ ـ حفظت القرآن، ومتون العلم الكثيرة، وأنا ابن تسع سنين، وتلقيت علومَ الدين والعربية في بيت أسرتي على عمّي القائم بتربيتي الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، وكان علامةَ زمانه في العلوم العربية.

٣ ـ مات عمي وأنا ابن أربع عشرة سنة، بعد أن أجازني في العلوم التي تلقيتها عليه.

٤ ـ وهبني الله حافظة خارقة، وذاكرة عجيبة، تشهدان بصدق ما يحكى عن السلف، وكانتا معينتين لي في تحصيل العلم في هذا السن.

٥ ـ بعد موت عمي خلفتُه في إلقاء الدروس على تلامذته وغيرهم إلى أن جاوزتُ العشرين سنة.

٦ ـ بيتُنا عريق في العلم، خرج منه أفذاذ في علوم الدين والعربية في الخمسة قرون الأخيرة، بعد انحطاط عواصم العلم الشهيرة في المغرب.

٧ ـ رحلت إلى المدينة أنا ووالدي مهاجرين، فراراً من الاستعمار الفرنسي، فكنتُ من مدرسي الحرم النبوي الشريف، وتلقيتُ فيها علم التفسير، وعلم الحديث، روايةً ودرايةً، وعلم الرجال وأنساب العرب، ومكثتُ في المدينة المنورة قريباً من ست سنين.

٨ ـ ثم انتقلنا إلى دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى فكنت من أساتذة

العربية في المدرسة السلطانية بها مدة سنتين في عهد حكومة الاستقلال العربي.

٩ ـ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رجعتُ إلى بلدي الجزائر، وبقيت فيها أنشرُ العلم في فترات متقطعة إلى سنة (١٩٣١) ميلادية، وكنت أحدَ اثنين يرجع لهما الفضلُ في تكوين جمعية العلماء، أنا وعبد الحميد بن باديس، وكنتُ في طليعة العاملين على إحياء العلوم الدينية والعربية بالجزائر من الابتدائية إلى العالية، وكنتُ أبرز المشيدين لأربعمئة مدرسة في مدن القطر الجزائري وقُراه، وفي طليعة المجاهدين في سبيل الإصلاح الديني وحرب التدجيل والابتداع في الدين، وبث الوعي القومي، وتصحيح الموازين الفكرية والعقلية في نفوس أفراد الشعب الجزائري.

١٠ ـ بعد ظهور جمعية العلماء للوجود انغمستُ في أعمالها وتشكيلاتها، وانقطعت إلى العلم، وتأسيس مدارسه، ووضع برامجه، وكيلاً لها في حياة ابن باديس، ورئيساً لها بعد موته، على ما هو مفصّل في الخلاصة.

١١ ـ سنة (١٩٥٢) ميلادية رحلتُ إلى الشرق بتكليف من جمعيتي، وكان الباعث على هذه الرحلة أمران:

الأول: السعي لدى الحكومات العربية لتقبلَ لنا بعثات من أبناء الجزائر.

الثاني: مخاطبة حكومات العرب والمسلمين في إعانتنا مالياً، حتى تستطيعَ الجمعية أن تواصلَ أعمالها بقوة، لأنّ الميدان اتسع أمامها، والشعب الجزائري محدودُ القوة المالية، فإذا لم يعنا إخواننا فربما تنتكس حركتنا، وهذا ما ينتظره الاستعمار لنا، وقد قدمت مصر، ثم زرت باكستان، والعراق، وسورية، والحجاز.

فأما قبول البعثات فقد حصلت فيه على الغرض، وأما الإعانة فقد كانت طفيفة، وقامت الثورة الجزائرية المباركة سنة (١٩٥٤)، واستفحل أمرها، فانقطعت عن الجزائر.

١٢ ـ تركت مسودات مؤلفاتي كلها بالجزائر، ولم أصحبها معي لتطبع، أو يطبعَ بعضُها هنا[١] كما كنت آمل، لأني لم أشأ أن أخلطَ عملاً عموميا للجزائر بعملٍ شخصي لنفسي.

وأنا أرجو للثورة الجزائرية التي شاركتُ في التمهيد لها، وتهيئة أسبابها، ختاماً جميلاً، تنال به الجزائر حريتَها واستقلالها.

نفعنا الله بما عَلّمَنا، وبما عملنا، إنه مجازي العاملين المخلصين.

محمد البشير الإبراهيمي

(١) [في القاهرة حيث أقام في فترة الثورة].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مذكرات محب الدين الخطيب

سيرة جيل

صفحات من تاريخ النهضة العربية

في أوائل القرن العشرين

(١٣٠٣ ـ ١٣٤٧ = ١٨٨٦ ـ ١٩٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

محب الدين الخطيب في شبابه

جمعية النهضة العربية

التي أسست في ٨ ذي القعدة سنة ١٣٢٤هـ

الجالسون من اليمين السادة : الأمير نجيب الشهابي . زكي الخطيب . محب الدين الخطيب . صلاح الدين الأعظم . عثمان مردم بك

الواقفون من اليمين السادة : محمد الحفار . الأمير عارف الشهابي . صلاح الدين القاسمي . لطفي الحفار . سامي الأعظم . صبحي المليحي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نسب الأسرة[1]

إنني من أسرة آل الخطيب الحسني الشهيرة في دمشق، انتقلوا إليها من قبل مئتي سنة من بلدة عذراء من أرض خَوْلان في الغوطة الشرقية، وقال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: إذا انحدرتَ من ثنية العُقاب، وأشرفتَ على الغوطة ـ غوطةِ دمشق ـ رأيتَها أولَ قرية تلي الجبلَ.

وإنّ أول من انتقل منها إلى دمشق من آل الخطيب جدُّ الأسرة في دمشق الشيخ عبد الرحيم بن محمد الخطيب الحسني، المدفون في الجنوب الغربي من مقبرة الدحداح، قريباً من جدارِها الغربي[2]، وحوله العديد من أفراد الأسرة بدمشق، وعلى نصابة شاهدةِ قبرِه أنه تُوفي سنة (١١٩٩) هـ ـ (١٧٨٥) م، وأبياتٌ من الشعر:

إليكم كلُّ مكرمةٍ تؤولُ ... وكلُّ مُلِمَّةٍ بِكُمُ تَزُوْلُ
كفاكم يا بني الزهراءِ فخراً ... إذا ما قِيلَ جدُّكُمُ الرسولُ
أبوكم فارسُ الهيجا عليٌّ ... همامٌ لا تقاوِمُه الفحولُ
وأنتم ملجأُ اللاجين ذُخْراً ... وأُمُّكُمُ المطهرةُ البتولُ
إذا افتخرَ الأنامُ بمدحِ قومٍ ... ففي «التنزيل» مَدْحُكُمُ جليلُ

وأسرةُ الشيخ عبد الرحيم الخطيب هذا في عذراء هم أشرافُها، وكانوا قَدِموا إليها من حماة، والذين في حماة منهم آل الكيلاني، كانوا قدموا إليها من بغداد، ويحتفظ جماعةُ عذراء وحماة بشهادة نسبهم إلى السيد عبد القادر الجيلاني، ثم إلى الحسن السبط، سبط النبي ﷺ.

---

(١) العنوانات ليست من أصل المذكرات.

(٢) [في مجلة «الثقافة»: المدفون بمسجد صغير في حي العقيبة بدمشق].

بسم الله الرحمن الرحيم

وكان من جماعة عذراء نقيبُ أشرافِ حماة في عصره السيد علاء الدين ابن عبد اللطيف الحسني القادري العذراوي المتوفى بدمشق سنة (١١٦٢) هـ = (١٧٤٩)م، وله ترجمة في كتاب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» لخليل المرادي مفتي دمشق (٣: ٢٦) المطبوع بمطبعة بولاق سنة (١٣٠١) هـ.

مولد محب الدين ونشأته

ولد محب الدين الخطيب في دمشق في منزلٍ بحيّ القَيْمَرِية في سلخ شوال (١٣٠٣) هـ آخر تموز ـ يوليه (١٨٨٦) م ووالده الشيخ أبو الفتح الخطيب (١٢٥٠ ـ ١٣١٥ هـ = ١٨٣٤ ـ ١٨٩٧ م) كانَ من علماء دمشق ومدرسيها وأئمتها وخطبائها، وكان أمينَ دار الكتب الظاهرية بدمشق من سنة تأسيسها (١٢٩٦ هـ = ١٨٧٩ م) إلى يوم وفاته.

وكان أبوه الشيخ عبد القادر الخطيب (١٢٢٣ ـ ١٢٨٨ هـ = ١٨٠٨ ـ ١٨٨١ م) من كبار علماء دمشق.

والأسرةُ بيتُ علمٍ: خطابةً وتدريساً، ولهم مكانة في التجارة، ومناصب في الحكومة، وامتاز كثيرٌ منهم بالشجاعة والشهامة وسلامة الطوية.

ووالدة محب الدين هي السيدة آسية بنت السيد محمد بن أحمد بن شحادة الجلاّد، كان أبوها من أصحاب الأملاك الزراعية، وأولاده وبنوهم من أهل التجارة والزراعة، ومنهم الآن هاني الجلاد في الطبقة العليا من تجار دمشق.

وكانت السيدة آسية الجلاّد على تقوى وصلاح وفضائل خلقية، يندر مثلها في النساء، وقد توفيت بين مكة والمدينة بريح سَمُوم، وهي عائدة من أداء فريضة الحج مع ركب المحمل الشامي، في أواخر ذي الحجة (١٣١٠) هـ أواسط تموز ـ يوليه (١٨٩٣) م لما كان المحمل يسافر براً

على الجمال، والحجاج في الهوادج، وكانت في حجها مع زوجها وشقيقٍ من أشقائها، وكان ابنها محب الدين صاحبُ الترجمة صغيراً في حِجْرِها ساعةَ موتها، فشمله أبوه بعنايته ورعايته إلى أن توفي هذا الأب يوم (١٠) محرم (١٣١٥) هـ (١٢/٦/١٨٩٧) م وبقيت لرحلة الحجّ هذه صورةٌ في نفس الطفل محب الدين، ولما بلغ محب الدين السابعة من عمره قبيل سفرهم إلى الحج كان قد تعلم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن.

وكان ذهابُهم إلى الحج عن طريق البحر في باخرة طوافة، فسافروا من دمشق إلى بيروت، ومنها إلى حيفا ويافا، ثم إلى الإسكندرية، فبور سعيد، وزاروا القاهرة وطنطا، ثم وصلوا إلى السويس، وأبحروا منها إلى جدة. ولكن سفينة البوسطة الخديوية التي كانوا عليها جنحت بهم في شِعْبٍ من شعاب خليج السويس أو ما بعده، فكادت تغرق بهم، لولا أن لاحتْ لهم من الأفق سفينة أخرى استنجدوا بها، فأنقذتهم، إلى أن واصلوا السفر على سفينة ثالثة بلغت بهم جدة.

وبعد أن أدّوا في مكة وعرفات فريضةَ الحج، عادوا من مكة إلى المدينة ـ وكانوا قد دَفنوا والدةَ صاحبِ الترجمةِ في فلاةٍ بين الحرمين الشريفين ـ ثم واصلوا السفر براً في الهوادج على الجمال عن طريق خيبر، ومدائن صالح، ومعان، وعَمّان، والزرقاء، إلى دمشق، فقطعوا الطريق من مكة إلى دمشق في أربعين يوماً، وكان ذلك قبل إنشاء السكة الحديدية بين المدينة ودمشق، وهي المعطلة من الحرب العالمية الأولى إلى اليوم.

ولا تزال ذكرياتُ هذه الرحلة: من جنوح هذه الباخرة في البحر الأحمر، إلى معالم المدن التي مروا بها بحراً، ومشاهدِ الصحارى والجبالِ براً، وبيوتِ ثمود المنحوتة في جبالِ مدائن صالح في طريق العودة من الحج؛ ماثلةً في ذاكرة صاحب الترجمة من أيام الطفولة إلى الآن.

ولما عادوا من الحج ألحقه والده بالتعليم الابتدائي، واختار له أرقى

مدرسة ابتدائية أميرية للدولة العثمانية في دمشق يومئذ، وعنوانها الرسمي باللغة التركية: (نمونة ترقي) أي: مدرسة الترقي النموذجية، وكانت في البناء الكبير نفسِه الذي تقوم في الجانب القبلي منه دار الكتب الظاهرية، التي كان والد صاحب الترجمة يتولى أمانتها، فكان التلميذ الصغير يصحب والده صباحاً من منزله في حي القيمرية، شرقي جامع بني أمية إلى أن يدخل الابن مدرسته، وينصرف والده إلى عمله في دار الكتب، وفي ساعة الظهر يأتي الابن إلى والده في دار الكتب، فيتناول غداءه الذي يكون قد أحضره في الصباح من المنزل، وعند انصراف التلاميذ من المدرسة مساءً يأتي منها إلى والده في دار الكتب، ليصحبه في العودة إلى المنزل.

وقد حصل صاحب الترجمة من هذه المدرسة على شهادةٍ بإتمام الدراسة الابتدائية بدرجة «على الأعلى» أي: جيد جداً. وتاريخ هذه الشهادة (٢٣) محرم (١٣١٤) هـ تموز ـ يوليه (١٨٩٦) م وكان بين العاشرة والحادية عشرة من عمره، وذلك قبل وفاة والده بسنة واحدة.

وألحقه والده ـ وهو في السنة الأخيرة من حياته ـ بالتعليم الثانوي، وكانت المدرسة الثانوية الأميرية الوحيدة بدمشق يومئذٍ هي التي يسمونها إلى الآن مكتب عنبر[1].

وفوجىء ـ وهو لا يزال في السنة الأولى من دراسته في هذه المدرسة قبل الامتحان ـ بوفاة والده، فأصبح يتيم الأبوين، وكانوا يعيشون في ستر وكفاف في منزل هو مِلْك الأسرة كما هي حال أكثر الأسر المتوسطة الحال في دمشق يومئذ. فلما فقدوا عائلهم، رأى ذووه أن يسلك مسلك والده في طلب العلم الشرعي، ومن ثَمّ ترك المدرسة التي كان فيها، ولازم

(١) انظر لهذه المدرسة وسبب تسميتها هذا الاسم على هامش الصفحة الأولى من كتاب «صلاح الدين القاسمي» المطبوع في القاهرة، ثم ظهر كتاب جديد باسم «مكتب عنبر». [للأستاذ ظافر القاسمي رحمه الله تعالى].

دروسَ العلماء من أسرته وغيرهم، واستغرقت هذه الفترة سنتين.

الشيخ طاهر الجزائري

ثم قيض الله لهذا اليتيم الضعيف إنساناً في أسمى مراتب الإنسانية، فأخذ بيده، وأحسنَ توجيهه في الطريق الذي هداه الله إليه في الحياة.

هذا الإنسان الكامل، هو علامةُ الشرق الإمامُ الحكيم، الشيخ طاهر الجزائري ولد (١٢٦٨) هـ ـ (١٨٥٢) م وتوفي (١٣٣٨) هـ ـ (١٩٢٠) م رحمه الله. فهو أبوه الروحي بعد والده الراحل.

ولما كان والد صاحب الترجمة أميناً على دار الكتب الظاهرية، وكان الشيخ طاهر الجزائري المفتش العام من جانب الدولة العثمانية على جميع دور الكتب في الولايات السورية، من أقصى حلب شمالاً، إلى جنوب فلسطين، فهو في حكم الرئيس على الذين يعملون في دار الكتب الظاهرية وأمثالها، والظاهر أنّ الشيخَ طاهر لم يكن في دمشق عند وفاة والدِ صاحب الترجمة، فلما عاد وعلمَ بانقطاع صاحب الترجمة عن دراسته الثانوية، سعى لدى مديرية الأوقاف السورية، التي كانتْ ترجعُ إليها دارُ الكتب الظاهرية يومئذٍ في صرف رواتب كل العاملين فيها، فوُجِّهتْ وظيفةُ الوالدِ إلى ابنه، على أن ينوب عنه وكيل يقومُ بالعمل إلى أن يبلغ الصغير سن العمل.

وفي فترة انتظار ابتداء الدراسة في المدرسة الثانوية صار الشيخ طاهر الجزائري يختار من مخطوطات دار الكتب الظاهرية مما ألفه أعلام الإسلام كشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية وأضرابه، فيكلّفُ صاحبَ الترجمة بنسخها؛ لتتوسعَ ثقافتُه الإسلامية، وليشغلَ وقتَه بعملٍ علميٍّ مفيدٍ، ولينتفعَ بأجر ما ينسخه من هذه الرسائل.

وتوجد الآن في الخزانة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية رسائلَ

بخط صاحب الترجمة مؤرخةً بتاريخ تلك الفترة[١].

ولما بدأت السنة الدراسية تجددَ التحاقُ صاحب الترجمة بالسنة الأولى من تلك المدرسة الثانوية ـ مكتب عنبر ـ وكان نظام التعليم فيها سبع سنوات، ولوحظ في مناهج السنتين الأُولَيين فيها مواد الدراسة الابتدائية السابقة وتقويتها، والسنوات الثلاث التالية لغاية السنة الخامسة بمنزلةِ الإعدادية، أو دراسة الكفاءة التي كانت في نظام التعليم المصري، والسنتان النهائيتان السادسة والسابعة أشبه بسنتي التوجيهي، وفيها من العلوم: الجبر، والمثلثات، والطبيعة، والكيمياء، والجولوجيا، والفلك، ومبادىء الاقتصاد السياسي، وعلم الأدب التركي.

وكانت لغة التدريس في جميع السنوات هي اللغة التركية، **حتى اللغة العربية كانت تُعَلَّمُ من كتابٍ باللغة التركية مؤلّفٍ للتلاميذ الترك بمدارس الأناضول، والروملي، وأدرنة، وسلانيك، ومناستر... الخ، ومفروضٌ تعليمُ العربية به في جميع المدارس الأميرية بالبلاد العربية العثمانية من أقصى اليمن فالحجاز إلى العراق والديار الشامية وطرابلس الغرب**. وكانوا يعلّمون غير التركية والعربية: اللغةَ الفارسية قواعد ومطالعة من كتاب «كلستان»، واللغة الفرنسية.

الشيخ أحمد النويلاتي

ولما كانت إنسانية الإنسان بمنطقه، وكان المنطق العربي ـ بفطرته ـ عنواناً للإنسانية في دورةِ كمالِها، فقد كان صاحب الترجمة في دور تكوينه

(١) لتأثير هذا الجو في حياة صاحب الترجمة وتكوين ملكته العلمية وثقافته الإسلامية والعربية انظر مقدمة الكتاب العاشر من «الإكليل في معارف همدان وأنسابها، وعيون أخبارها» لأبي محمد الحسن الهمداني طبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة.

الثقافي وتربيته الفكرية والعقلية حريصاً على تقويم لسانه بلسان العرب السليم، فأشار عليه أبوه الروحي الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله بأن ينتفعَ من فضائل العالِم الضليع القارىء الشيخ أحمد النويلاتي، وكان زاهداً منقطعاً للعلم، ومعتزلاً الناس في غرفته في الدَّوْر الأوسط من مدرسة عبد الله باشا العظم بين سوق المدينة في دمشق وسوق السلاح.

مدرسة عبد الله باشا

وكانت هذه المدرسة في ذلك الحين أحدَ حصون الدعوة إلى الإصلاح في عاصمة بني أمية: ففيها غرفةٌ للشيخ طاهر الجزائري، وأخرى للشيخ محمد علي مسلّم، يجتمع فيها مع الشيخ طاهر طائفةٌ من حلقته: منهم محمد كرد علي، والشهيد عبد الحميد الزهراوي وأمثالهما، وفي الدور الأعلى من هذه المدرسة غرفةٌ للشيخ جمال الدين القاسمي، يختلف إليه فيها جماعةٌ من تلاميذه، غير الذين يختلفون إليه في منزلٍ كبير بالقرب من جامع حسّان في حي باب الجابية، فصار صاحبُ الترجمةِ مع تردده السابق على غرف هذا الحصن الفكري من مدرسة عبد الله باشا العظم، يلازمِ شيخَه الجليل أحمد النويلاتي، وقرأ عليه «شرحَ ابن عقيل على ألفية ابن مالك» في النحو، وحفظ بتلقينه مقامات من كتاب «أطواق الذهب» لأبي القاسم الزمخشري.

ولما كان الشيخ النويلاتي قد أتقنَ قراءةَ القرآن بدمشق فقد استفاد منه صاحبُ الترجمة جودةَ النطق بالحروف العربية من مخارجها الأصلية، واستفاد منه فوق ذلك أخلاقاً كريمة، ومعرفةً صحيحة بطبائع الناس، وما ينبغي أن يأخذ الإنسان منهم أو يدع، وكان الشيخ النويلاتي يشبه في معيشتِهِ ونظافة غرفته وانقطاعه عن الناس والأهل والولد ما ذكره الخطابي

في «كتاب العزلة» عن مالك بن دينار من مثل هذه المعيشة النظيفة، والزهد الذي فيه مرضاة الله.

المطالعــة

في هذه الفترة المبكرة تفتّحت أكمامُ التفكير عند صاحب الترجمة، وصار يلقّحُ ثقافتَه الشخصية العربية والإسلامية بما يتلقاه في المدرسة من العلوم الكونية، وبما يضيفه إليها من مطالعاته المتواصلة في دار الكتب الظاهرية، وفي غرف للقراءة أسستها جمعية القديس يوحنا الدمشقي الأرثوذكسية في مدخل حي النصارى بدمشق، وكانت تأتيها المجلات الكبرى المصرية وغيرها، ولا سيما «المقتطف» و«الهلال» و«الضياء»... الخ، ثم بما يقتنيه هو شخصياً من الكتب العصرية والإسلامية، مما يستورده باعةُ الكتب في دمشق من القاهرة وبيروت وإستنبول وغيرها.

العرب والعربية

وكانت هذه المطالعات المتواصلة ليلَ نهار، والتفكير فيها سبيلاً لتكوين رسالة فكرية في مدارك صاحب الترجمة، وعقيدة أدبية في قلبه وروحه، ولعلّ أهم عناصرها انتباهُه إلى أنّ جميعَ أمم الأرض كانت في بداوتها، وجاهليتها ضيقةَ الفكر، ضيقةَ المدارِك، وكانت لغاتُها ـ تبعاً لذلك ـ بدائيةً، جافيةً، فقيرةً، قبل استفحال الحضارة، إلا العرب فلغتهم في بداوتهم واسعة، فكانوا واسعي المدارك، دقيقي الإحساس، مرهفي الشعور، ولغتهم في عصر البداوة ليس لأمة أخرى في بداوتهم لغة تضارعها في سعتها ودقتها وتعبيرها عن ألطف المشاعر، ودلالتِها على المستوى الرفيع الذي كان لأهلها.

أثر ابن تيمية

وساعده اطلاعه على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية في التعرُّف إلى

الإسلام من ينابيعه الأصلية الصافية، وفطرته المجرّدة من البدع والضلات.

قدوة التاريخ

ووقف في زمن مبكر على مزايا الصحابة والتابعين، الذين اضطلعوا وحدَهم بحمل أمانة الإسلام، وتكوينِ هذا العالم الإسلامي، وتعريف الإنسانية بالإسلام الأول النقي، الذي تتجاوب معه الفطرةُ الإنسانية السامية.

رسالة العرب الخالدة

ولما رأى أن هذا مما خصَّ اللهُ به العربَ، والذين تطبّعوا بسجاياهم، واندمجوا في فضائلهم، تكوّنت عند صاحب الترجمة من مجموع ذلك عقيدةٌ بأنّ للناطقين بالضاد ـ ومن سار في قافلتهم من المسلمين والإنسانيين ـ رسالة، وهم المسؤولون الأولون عن القيام بها في كل مكان وزمان، وأنّ على مَنْ يدرك هذه الحقيقة منهم أن يبادرَ إلى الإيمان بهذه الرسالة، ودعوة الآخرين إلى الإيمان بها.

عقيدة ودعوة

وهذه العقيدة ظلّت ثابتةً في قلب صاحب الترجمة وعقله طولَ حياته، ولم يتجدد له بعد ذلك ما يغيِّرُها، أو يدخِلُ عليها أيَّ تعديل.

بداءة العمل

وكان أهم ما يهمُّ صاحبَ الترجمة ـ وهو في فترة دراسته الثانوية ـ

تعريفُ الأذكياء من أترابه وَلداته في المدرسة وخارجها بهذه الرسالة، وإفاضتها من قلبه على قلوبهم، ومن عقله إلى عقولهم، لأنها في يقينه رسالةٌ عظيمةٌ، ولابدّ لتعريف العرب والمسلمين بها من أعوانٍ على ذلك، يضطلعون معه بهذه المهمة، بعد إيمانهم بها.

ولصاحب الترجمة في الصفحة (٣٠) وما بعدها من كتابه «مع الرعيل الأول» [مقالٌ] بعنوان: «في نادي الكلمة: أماني الطفولة وأحلامها» وهذا المقال يصوِّر هذا الأمر المهم من هموم صاحب الترجمة وبعضِ أماني لداته، وهم في طور دراستهم الثانوية بعدُ.

الخطة المُبْصِرَة

كان صاحب الترجمة في ذلك الحين إذا وقع في يده كتابٌ جديد ككتاب «أم القرى» للسيد عبد الرحمن الكواكبي، أو كتاب «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» للشيخ محمد عبده، أو رد الشيخ محمد عبده على هانوتو ـ يقرؤه أولاً لنفسه، وإذا رآه مما يدخل في معاني الرسالة التي آمن بها، يحرص على أن يعيدَ قراءته مع طالب آخر يختاره من زملائه، حتى أعاد لذلك قراءة بعضَ تلك الكتب مرات متعددة، كل مرة مع صديق من الذين تتجاوب قلوبهم مع قلبه: كالشهيد السعيد الأمير عارف الشهابي، الأخ الأكبر للأمير مصطفى الشهابي، الذي تولّى رئاسة المجمع العلمي العربي بدمشق الآن، وصلاح الدين القاسمي، الأخ الأصغر للعلاّمة الشيخ جمال الدين القاسمي، ونابغة حماة الشهيد الكريم صالح قنباز، والوطني الكبير الأستاذ لطفي الحفار، أحد الذين تولوا رئاسة الوزارة السورية فيما بعدُ. وابن عم صاحب الترجمة زكي الخطيب من كبار المحامين والمجاهدين الوطنيين وأعلام الوزارة والسياسة، وسيف الدين الخطيب من مؤسسي المنتدى الأدبي في العاصمة العثمانية،

وأحد شهداء مشانق جمال باشا، ورشدي الحكيم من أهل العلم في وزارة العدل السورية، ومن نوابغ الأدب في دمشق، وعثمان مردم الأخ الأكبر لجميل مردم أحد رؤساء الوزارة السورية السابقين[١].

باكورة القلم

وبدأ صاحبُ الترجمة يمرّنُ قلمَه على الإنشاء بترجمة بعض المقالات العلمية، والقِطَع الأدبية، عن اللغة التركية في مجلاّتها وكتبها، وأخذ يرسل بما يترجمه أو ينشئه إلى صحيفة «ثمرات الفنون» التي كان يحرّرها في بيروت الشهيد أحمد حسن طبارة، فكان في أول الأمرِ يوقّعُ على ما يكتبه بحرفي (م.خ) فلما آنسَ القبولَ بل التشجيع على هذه المقالات، صار يوقِّعُ على ما يكتبه باسمه الصريح.

حلقة صغيرة

وكانت في دمشق في تلك الحقبة حلقةٌ أخرى أكبر من حلقة محب الدين الخطيب التي سماها الأمير مصطفى الشهابي «في محاضرات معهد الدراسات العالية» الحلقةَ الصغيرةَ، وكان يرأس حلقةَ دمشق الكبيرة الشيخ طاهر الجزائري[٢]، ومن أركانها الشيخ جمال الدين القاسمي،

(١) انظر لهذا النشاط المبكر: فصل «حلقة دمشق الصغيرة» في ص (٥٢ ـ ٥٦) من «محاضرات عن القومية العربية: تاريخها، وقوامها، ودواعيها»، للأمير مصطفى الشهابي ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية الذي أسسته في القاهرة جامعة الدول العربية، وهو منشور أيضاً في المجلد السادس لسنة (١٩٥٧) من مجلة «الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» التي كان يشرف عليها المؤرخ المصري الأستاذ شفيق غربال. [وانظر صور هؤلاء الأعلام في مقدمة هذا الباب].

(٢) انظر الشيخ طاهر الجزائري المصدر السابق للأمير مصطفى الشهابي (ص٤٩ ـ ٥٢)، ومجلة «الجمعية المصرية للدراسات التاريخية»: المجلد السادس لسنة (١٩٥٧).

والشيخ عبد الرزاق البيطار، ومفتي الفيلق العثماني الخامس الذي مركزه دمشق الشيخ سليم البخاري والد رئيس الوزراء نصوحي البخاري، والشهيد جلال البخاري، ومن أهم رواد تلك الحلقة أيضاً رفيق بك العظم مؤلف كتاب «أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة» ومحمد كرد علي من مؤسسي المجمع العلمي العربي بدمشق. والشهيد عبد الحميد الزهراوي، والشيخ محمد علي مسلّم، الذي توفي قبل الاكتهال، فلم يشتهر، والشهداء الثلاثة القائم مقام أركان حرب سليم الجزائري، وشكري العسلي، وعبد الوهاب المليحي الإنكليزي، وفارس الخوري رئيس المجلس النيابي ورئيس الوزارة، وغيرهم من أعلام الشام يومئذ.

وكان لهذه الحلقة اجتماع دائم بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، وأكثر ما كان يكون هذا الاجتماع في منزل رفيق بك العظم، وأخيه عثمان بك، وهو في نزلة حي مادنة[1] الشحم، وكان محب الدين الخطيب ـ و هو حديث السن ـ الوحيد الذي يلازمُ الاجتماع معهم في هذه الحلقة، ثم يكون الصلةَ بينها وبين حلقته الصغرى التي تقدمت الإشارة إليها.

في المدرسة الثانوية

وفيما كان محب الدين في فصل الدراسة بالسنة السادسة من المدرسة الثانوية، وكان مدرس إحدى المواد ـ التي لا تدخل في معاني رسالة صاحب الترجمة ـ يلقي درسه، لاحظ المدرس أنّ محبَّ الدين مشغول الفكر عنه بمطالعةِ كتابٍ آخر، فدنا منه، ونظر فيما يقرأه، فوجد بين يديه كُنّاشاً حافلاً بقصائدَ تركية لشاعر الترك الأكبر، رأسِ الأحرارِ العثمانيين نامق كمال بك وطبقته، وكلُّها في تمجيد الحرية، تتخللها قصائد ومقطوعات أخرى عربية من هذا القبيل، ففتش المدرس درجَ التلميذ،

(١) [المئذنة].

فاطّلع فيه على كتب كلها ممنوعة التداول في زمن السلطان عبد الحميد، فأبلغَ المدرسُ إدارةَ المدرسة، وعملت الإدارة محضر تحقيق، وصادرتِ الكتب والمكتوبات، وأسقطت من درجات الأخلاق والسلوك لصاحب الترجمة درجتين، ولما كان هذا الحادث يعدُّ وصمةً في تاريخ إدارة المدرسة حقد مديرها (ناظرها) وأعوانه على صاحب الترجمة، فإنهم عند انتهاء السنة الدراسية حرصوا على إسقاطه في الامتحان، وتعمدوا بخسه في تقدير درجاته في مواد الدراسة، بعد أن كانوا أنزلوا درجته في الأخلاق والسلوك من على الأعلى (جيد جداً) إلى أعلى أي (جيد)، ومع ذلك لم يستطيعوا إسقاطه إلى حد الرسوب، فكان له امتحان ملحق (إكمالي)، ولما لم يكن من المنتظر عند إعادة الامتحان الملحق أن يمكّنوه من النجاح طلب من الإدارة الإذن في الانتقال إلى مدرسة بيروت الثانوية الأميرية بحالته التي هو عليها، وفي مدرسة بيروت أدى الامتحان الملحق بنجاح تام، والتحق بالسنة السابعة، وهي السنة النهائية لإتمام الدراسة الثانوية، ولما كانت درجات الشهادة الثانوية تقدر عندهم بمعدل درجات السنتين النهائيتين، فإن البخس الذي وقع على درجات بعض مواد السنة السادسة بدمشق أثر على معدل الشهادة الثانوية كما سيأتي.

وبانتقال محب الدين من دمشق إلى مدرسة بيروت انتقل معه كثيرون من نوابغ تلاميذ مدرسة دمشق الثانوية، ومنهم جميع الأمراء الشهابيين من أبناء وادي التيم: حاصبيا وراشيا.

وفي مدرسة بيروت الثانوية أمضى محب الدين السنة السابعة النهائية، وكان له فيها نشاطٌ أدبي وقومي، كالذي كان له في دمشق، وبعد الامتحان حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية ولكن بدرجة «أعلى» أي جيد، وكادت تكون بدرجة (جيد جداً) لولا تأثير درجاته السابقة في امتحان السنة السادسة بدمشق، التي تعمّدت الإدارة هناك بخسها كما تقدم، وكان نيله الشهادة من بيروت في (٦) جمادى الأولى(١٣٢٣) هـ (٩/ ٧/ ١٩٠٥) م.

في الطريق إلى الجامعة

وبعد انقضاء عطلة الصيف حضر صاحبُ الترجمة من دمشق إلى بيروت ليبحر منها إلى إستنبول عاصمة الدولة العثمانية حينئذ، وفيما هو في بيروت زار مدرسته الثانوية، ليجدِّد العهد بلقاء مديرها (ناظرها) ومن يلقاهم فيها من أساتذته، فرحّب به مدير المدرسة كثيراً، وأكرمه، وعرض عليه أن يكتب له رسالةَ توصيةٍ باسم المدرسة إلى رياسة مرفأ بيروت، بأن تعملَ على خفض ثمن نول (أجرة) السفر لهذا الطالب المتخرّج من المدرسة إلى النصف، وقد تم ذلك.

وفي الباخرة التي أبحرت به إلى إستنبول تعرّف بالشهيد عبد الكريم قاسم الخليل في ظروف تستحق التفصيل في مذكرات أوسع مجالاً من هذه الترجمة، وقد سبق أن تناولها الأستاذ عجاج نويهض ليدوّنها في كتاب له عن تاريخ الحركة العربية من نشأتها الأولى في هذا العصر.

وعند وصول صاحب الترجمة إلى إستنبول التحق فيها بكليتين معاً، وهما الحقوق والآداب، وكان انتقاله إلى إستنبول، واندماجه في محيط الطلبة العرب فيها من أبناء الأقطار العربية ـ غزواً أدبياً وقومياً بكل معاني هذه الكلمة كما سيأتي.

* * *

في العاصمة إستانبول

نزل محب الدين في إستنبول في حي (جنبرلي طاش)، وهو الحي الذي يكثر فيه أبناء العرب من طلاب المدارس وطلاب الوظائف، لقربه من المدارس ومن الباب العالي، ومن مشيخة الإسلام التي كانت المرجعَ في تعيين القضاة الشرعيين.

جهل أبناء العرب لغتهم العربية وسعيهم لنيل الوظائف

هال صاحبُ الترجمة عند وصوله إلى هذه البيئة الجديدة أنّ جميع أبناء العرب من سوريين وفلسطينيين وعراقيين وحجازيين وغيرهم، يجهلون قواعدَ لغتهم وإملاءها، فضلاً عن آدابها وثقافتها، ويتكلّمون ـ حتى فيما بينهم ـ باللغة التركية، وليس فيهم إنسانٌ واحدٌ له رسالة سامية في الحياة، ولا لأحدهم مطمَعٌ، إلا أن يحذقَ الكلام والكتابة باللغة التركية، ويندمجَ في أهلها، ثم يكونَ مستعبَداً للوظيفة، التي يرجو أن يحصل على المنزلة من طريقها.

الصحافة والصحف الداعية إلى العروبة

وكان محمد كرد علي في هذا الوقت قد انتقل من دمشق إلى مصر، والتحق بقلم تحرير جريدة «الظاهر» التي كان يصدرها محمد أبو شادي المحامي، ثم بقلم تحرير «المؤيد» لصاحبها شيخ الصحافة في مصر الشيخ علي يوسف.

ثم أخذ يستعدُّ لإصدار مجلة «المقتبس» الشهرية، فطلب منه محب

الدين أن يوافيه بجميع ما ينتهي من قراءته من الصحف المصرية، وما يصل إليه من صحف سورية والمهجر وأمريكة، ليستعينَ بذلك على تحويل من يتصل بهم من شباب العرب في إستنبول عن طريق التتريك، وليشعرَهُم بأنّ في دنيا العرب آداباً وصحافةً وبياناً وشعراً عصرياً قوياً، وأنّ في الكرة الأرضية وفي الكيان الإنساني شيئاً اسمه: عرب وعربية وعروبة. فجعل محمد كرد علي يرسل إلى صاحب الترجمة مع بريد كل باخرة تقوم من الإسكندرية إلى إستنبول طرداً بريدياً كبيراً من الصحف بعنوان فرع البريد الفرنسي في (غلاطية) الحي الأفرنجي من الأستانة.

وفي موعد وصول البريد من الإسكندرية إلى غلاطية كان صاحب الترجمة يذهب إليها من (جنبرلي طاش) ويطلب هذا الطرد، ويحمله ويعود به إلى غرفته في (معاون بك خان) المجاور (لجنبرلي طاش)، وكان الشبان الشهابيون وغيرهم من الذين كانوا على صلة بمحب الدين في دمشق وبيروت، أو الذين تعرّف عليهم بعد ذلك للمرة الأولى في إستنبول ومنهم الشهيد عبد الكريم الخليل، وفايز بك العظم، من فرع أسرة العظم في حماة، وشكري الجندي، الذي صار فيما بعدُ من كبار رجال القضاء في سورية، ومظهر رسلان، الذي صار فيما بعد وزيراً ورئيسَ وزراء في الأردن، وغيرهم كثيرون يحضرون إلى غرفة صاحب الترجمة للاطلاع على الصحف.

العلم أول خطوة

ومع الأيام السريعة المتوالية استطاع محب الدين أن يتخيّر من هؤلاء الشباب طائفةً أقنعها بأنّ من الخير لها أن تتعلّم قواعد اللغة العربية، وأن تقرأَ أو تحفظَ قِطعاً بليغةً من الأدب العربي، واتفق مع صديقه القديم الأمير عارف الشهابي ـ وهو أديبٌ شاعرٌ وابنُ شاعر ـ على أن يقتسما هؤلاء الشبان الراغبين في تقوية ملكتهم باللغة العربية، فيتولّى الأمير

عارف ـ وكان يسكن في منحدر (قوم قيو) قريباً من ساحل البحر ـ تعليمَ حلقةٍ من الشباب، وهم الساكنون على مقربة منه، ويتولّى محب الدين تعليم حلقة أخرى أكبر من تلك من الشباب الساكنين في (جنبرلي طاش) والأحياء القريبة منه.

تعليم النحو وطريقته

ورسم محب الدين خطة الدراسة في الحلقتين، بأن تعلّم قاعدة واحدة من قواعد اللغة العربية نظرياً، ثم تطبّق عملياً مدة طويلة بالقراءة والإنشاء، ولا ينتقل منها إلى قاعدة أخرى إلا بعد إتقان استعمال القاعدة الأولى، واعتياد اللسان على التزامِ الصواب في استعمالها، ومع تفهّم القاعدة والتمرّن على استعمالها يحفظ المتعلم بضعةَ أبياتٍ من بليغ الشعر العربي العصري أو القديم، ويشترط أن تكونَ الأبياتُ المختارةُ للحفظ والقطع المختارة للقراءة ذاتَ مرمى توجيهي، توقظ في نفس الطالب مشاعرَ الاتصال بقوميته العربية وماضيه الإسلامي، والارتياح إلى السجايا والأخلاق التي ترفع مستواه إلى المرتبة التي تؤهّل الجيل الجديد لأن يكونَ من أهل الحق والخير.

كانت طريقته في تعليم العربية مختصرة وقوية وذات أهداف بينة، وكان شبابنا الذين يتعلّمون لغتهم بهذه الطريقة يشعرون يوماً بعد يوم بعظمة قوميتهم العربية وبجلال الإسلام، ومفاخرهما.

جمعية النهضة العربية

وفرضَ صاحبُ الترجمة على من يقصّر في الدرس، أو يتخلّف عن حضوره في الموعد المحدد؛ إتاواتٍ مالية خفيفة، فتحَ لها صندوق خاص، تولى أمانته شكري الجندي، وكان التعليم نفسه مجاناً في الحلقتين.

وبعد وقت قريب ـ وبالتحديد في يوم الإثنين (٨) من ذي القعدة (١٣٢٤) ـ (٢٤) أيلول ـ ديسمبر (١٩٠٦) ـ كاشفَ محب الدين الخطيب الممتازين من شباب الحلقتين، بأنّ هذا العمل الذي نحن فيه يبشر بنهضة، وأنها نهضة مباركة إن شاء الله، واقترح أن يسمِّي المشتركون حلقتهم ـ بل حلقتيهم ـ جمعية النهضة العربية.

وهكذا كان استدراج هؤلاء الشبان الذين هم في حكم المتتركين، وكان ترغيبهم في مطالعة الصحف والمطبوعات العربية التي يرسلها محمد كرد علي من مصر إلى صديقه محب الدين الخطيب في إستانبول ـ **خطوةً أولى** لرجوعهم إلى أنفسهم وإلى عروبتهم.

ثم كان تحبيب لغتهم العربية إليهم، وتيسير السبيل لتقويم ألسنتهم بتعليمهم قواعدَ اللغة، وتلقينهم مختاراتٍ من بليغ منثورها ومنظومها **خطوةً ثانيةً** لهذا المنهج.

ثم كان تخيّر الممتازين من أبناء هذه الدروس لتكونَ منهم جماعة ناهضة تعتز بعروبتها، وتعملَ على وصل جهود الخلف بالسلف في سلسلة التاريخ **الخطوة الثالثة** إلى الأمام نحو مستقبل منير إن شاء الله.

غير أن هذا النشاط بمراحله الثلاث كان محدوداً ضيّق النطاق، لقلة عدد الشباب الذين يستفيدون من هذه الحركة الثقافية والقومية، وكان لابد لتجديد الدم في حلقتي محب الدين الخطيب وعارف الشهابي ـ وبالتالي في جمعية النهضة العربية الحديثة الولادة ـ من توسيع نطاق الاتصال بأكبر عدد ممكن من شباب العرب في إستنبول، ثم السعي لفتح ميدانٍ لمثل هذا النشاط في الوطن بعد ذلك، لأن الأساسَ ينبغي أن يكون هناك.

لقاء في مقهى

ولما كان أكثر الشبان يرتاحون إلى التردد على المقاهي، ولا تجذبهم مطالعة الصحف العربية، خطرَ ببال محبّ الدين أن يكون لشباب العرب

في إستنبول مقهى خاص بهم، يفضلونه عن غيره، ويسهل الاجتماع بهم فيه، وبعد المداولة والتشاور مع أعضاء الجمعية ـ ولاسيما شكري الجندي أمين صندوقها ـ وقع الاختيار على مقهى من مقاهي (ديوان يورلي) شارع الدواوين، وهو الشارع الرئيسي في حي (جنبرلي طاش) ويسمّى هذا المقهى بالتركية (روشن قهوه سي)، ويقع في نقطة تجتمع فيها المزايا كلها، لتوسط موقعه، ولأنه على مفترق أربع طرق، أحدها شارع (طارق بارزي) ويقابله منحدر حي (قوم قيو) ويعارضهما من الناحيتين شارع (ديوان يورلي) العام، وهذه القهوة لرجل أرنؤوطي اسمه محمد آغا، ويظهر عليه ضيق المعيشة، فاجتمع به محب الدين وشكري الجندي وأغرياه بدخل يزيد عن دخله الحالي، ووعداه بتحسين حال المقهى بأدواته وكراسيه، وبأنهم سيضعون فيه حاكياً (غرامافون) بأسطوانات عربية، تجذب شباب العرب إليه.

وتم الاتفاق، ودبت الحيوية والحركة في المقهى، وصارت أسطوانات ـ للشيخ سلامة حجازي، وعبده الحامولي، وصالح عبد الحي، وغيرهم من كبار المغنين والموسيقيين العرب في ذلك الحين ـ يتردد صداها العالي في أربعة شوارع، وأقبل شباب العرب على تمضية أوقات فراغهم في هذا المقهى، بدلاً من تمضيته في المقاهي الأخرى، وأخذ أعضاء الجمعية يعقدون الصداقات مع من يتوسمون فيه الخير من أذكياء هؤلاء الشباب، ومن هؤلاء الأذكياء صارت تتغذّى حلقة محب الدين الخطيب في (معاون بك خان) المجاور (لجنبرلي طاش) وحلقة الأمير عارف الشهابي الواقع مسكنه في حي (قوم قيو).

أول حفلة عربية

وكانت النتيجة الأولى لهذا النشاط الجديد ازديادَ عدد الملتفين حول مؤسسي النهضة، والشعور بالحاجة إلى لقاء معهم في حفلٍ متسع لتبادل المشاعر، والأفكار الجديدة، والآمال المتفتحة، ولكن أينَ يمكن أن

يكون هذا اللقاء، وكيف يُقام هذا الحفل وهم في إستانبول، وفي حكم السلطان عبد الحميد، وعيون رجال المابين مبثوثة في كل مكان، وكان من أمثالهم يومئذ قولهم: للجدران آذان، وفيما هم في التفكير والتدبير قيل لهم: إنّ في جزيرة (بيوك آضه) حديقة واسعة يملكها أحمد باشا الزهير من أعيان البصرة، وفي الإمكان إقامة هذا الحفل في أرجائها الواسعة البعيدة عن العيون والآذان، وبذلك يكون قيام أول حفل لأول جمعية عربية في عاصمة آل عثمان على أرض عربية، توحي بالمعاني التي لا يعبر عنها جوٌّ آخر.

وفي صباح يوم الثلاثاء (٥) جمادى الآخرة (١٣٢٥) هـ (١٣) يوليه (١٩٠٧) م كانت الباخرة القادمة من إستانبول إلى (بيوك آضه) تحمل من الركاب أضعاف العدد الذي اعتادت أن تحمله إلى هذه الجزيرة في الأوقات الأخرى، واجتمع شبابُ العرب في الحديقة البصرية، يمرحون ويسرحون، ثم انتظموا في حلقة واسعة، توسطها أخوهم محب الدين الخطيب، فألقى عليهم خطبة طويلة عنوانها: «واجباتنا»، حتى إذا انتهى من إلقائها تقدّم أخوه الشهيد السعيد الأمير عارف الشهابي، فألقى قصيدةً عنوانها «نحن والأغيار» وقد أشار إلى ذلك صلاحُ الدين القاسمي في خطبته السنوية بجمعية دمشق في المحرم سنة (١٣٢٨) هـ أواخر سنة (١٩٠٩) هـ المنشورة في ص (٤ ـ ١٠) من كتاب «الدكتور صلاح الدين القاسمي» المطبوع بالقاهرة سنة (١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ م) وسنقتبس منها فقرات أخرى تاريخية بعد قليل.

رقابة الضبطية

إنّ هذا النشاط الطارىء على شباب العرب في إستانبول بين سنتي (١٣٢٤ و١٣٢٥) هـ كان محط الأنظار، والحديثُ عنه يدور بين كل عربي وعربي في العاصمة العثمانية. والظاهر أن نظارة الضبطية (الأمن العام) شعرت بهذا النشاط غير العادي، فضربت عليه نطاقَ رقابتها، ولما أمسك

رجالَها بالخيوط التي تتصل بهذه الحركة رجعتْ بهم كلها إلى مصدرٍ واحد، وهو غرفةُ محبّ الدين الخطيب.

وفيما كان محب الدين في حلقة تدريس العربية بغرفته بعد العصر من أحد الأيام، إذ طرق باب الغرفة، وإذا بالداخل فريد باشا اليافي، من كبار موظفي نظارة الضبطية يومئذ، وكان قبل ذلك مدير الشرطة (البوليس) بولاية بيروت، وقبلها كان حاكم يافا الإداري للدولة العثمانية.

ولما كان حاكماً ليافا كان قاضيها الشرعي الشيخَ أبو النصر الخطيب ـ والد الشهيد سيف الدين، وعم محب الدين شقيقَ والده ـ وكان الحاكم الإداري والقاضي الشرعي وهما في يافا صديقين حميمين، ثم أدت بهما هذه الصداقة إلى المصاهرة، فتزوّجَ فريد باشا بنت الشيخ أبي النصر الخطيب شقيقة سيف الدين[1]، وعندما طرق فريد باشا باب الغرفة في (معاون بك خان) لم يكن يعلم أنّ هذا مسكن محب الدين الخطيب، وإنما تلقى الأمر بأنّ طائفةً من شباب العرب لهم نشاط تجهل الحكومة حقيقته، ورأس هذا النشاط في هذا المكان، ويراد من فريد باشا البحث عن الحقيقة، وتقديم تقرير عنها لنظارة الضبطية، فلما دخل فريد باشا الغرفة، وأدار نظره في الشباب الجالسين فيها علم أنّ محب الدين هو صاحب الغرفة، وكانت مليئة بالكتب العربية غير المدرسية، وبالصحف العربية مصرية وسورية وصحف المهجر الأمريكي، «المؤيد» و«اللواء» و«الأهرام» و«المقطم».. الخ، فقال فريد باشا لمحب الدين: هل يمكن أن أتحدث معك بكلمتين على انفراد؟

أجاب: حباً وكرامة، وطلب من الحاضرين أن يخرجوا، فانتقلوا إلى حجرة مجاورة، كان يسكنها ابن عمه زكي الخطيب، الذي كان يدرس

(١) للشيخ أبي النصر الخطيب ترجمة في كتاب «فهرس الفهارس» للسيد عبد الحي الكتاني من أعيان المغرب وكبار علمائها، وفي «منتخبات تواريخ دمشق» للسيد تقي الدين، وفي «نموذج الأعمال الخيرية» ص ٤٣ ـ ٤٤.

الحقوق، ودار بين الضيف وصاحب الغرفة الحوار الآتي:

فريد باشا: لمن هذه الغرفة؟

محب الدين: هي غرفتي، أسكنها وأذاكر دروسي فيها، وألقى فيها أصدقائي.

فريد باشا: ومن هؤلاء الذين كانوا هنا؟

محب الدين: أصحابي، وبعضهم زملائي في المدرسة، وكنا نتذاكر في دروس باللغة العربية.

فريد باشا: وما هذه الجرائد والكتب؟

محب الدين: هي جرائد وكتب لغتها العربية جيدة، فنطالع فيها لنتمكن من تعلّم لغتنا.

فريد باشا: ونحن الآن هنا في أي بلد؟

محب الدين: في إستانبول.

فريد باشا: أنتم مراقبون من نظارة الضبطية منذ أسابيع، ولما قويت الشبهة بكم نُدِبْتُ أنا للقبض عليكم، والذهاب بكم للتحقيق، كما أنّ عساكر الشرطة في الشارع ينتظرون مني أن أدعوهم ليصطحبوكم، ويذهبوا بكم، وما كنت أعلم أنّ هذه الغرفة التي أُعطيتُ عنوانها هي لك، وأنك أنت الذي سأقبض عليه، لأنّ أبناء عمك صلاح الدين[1] وزكي وسيف الدين يزورونني كلهم إلا أنت، فلا أعلم عنك ما أعلمه عنهم، والآن فإني في ارتباك وحيرة، لأجل الرابطة العائلية لا أستطيع أن أقومَ بالمهمة التي جئت بها، وسأخاطر فأذهب لكتابة تقرير بأن الأمر مبالغٌ

(١) كان من ألمع رجال القضاء في دمشق وحلب صلابةً في الحق، ومتانةً في الخلق، ومارس حيناً المحاماة، وفي فترة حياته التقاعدية كان الكاتب بالعدل في دمشق، وكان قوي البنية والهمة، ممتازاً بالشجاعة والثبات.

فيه[١]، وأنه لا محلَّ لهذه الشبهة، لكنهم لكن يكتفوا بتقريري، وسيواصلون المراقبة، وإذا جاءَكم بعدي مندوبٌ آخر لمثل هذه المهمة فسيقع الضرر عليَّ، كما يقع عليكم، لذلك يجب عليك في الحال ـ عندما أقوم أنا من هنا ـ أن تحرقَ هذه الصحف كلها، والأوراق التي لا علاقة لها بمناهج التدريس الرسمي، وأن تمنعَ إخوانك من مواصلة الاجتماع عندك، وإن لم تفعل فستجر الأذى والويل إلى نفسك، وإلى كل من له صلة بك، وإليَّ أنا قبلكم جميعاً. وسلم، وذهب...

عقب ذلك دعا صاحبُ الترجمة إخوانَه من غرفة ابن عمه زكي، وقص عليهم ما دار من حديث بينه وبين مندوب نظارة الضبطية، فوقف الشهيد عبد الكريم الخليل رحمه الله، وقال لفايز بك العظم: أما أنت فتذهب الآن مع محب الدين إلى ساحل البحر في (قوم قيو) للنزهة، وتمران في طريقكما بالأمير عارف الشهابي، وتخبرانه بما وقع، ليكونَ على استعداد للمفاجآت، وأنا وأنتم سنقوم الآن بإحراق هذه الجرائد والأوراق، وسآخذ مجموعة الكتب الزائدة عن حاجة الدراسة فأضعها في صندوق، وأودعه في مكان أمين.

وكان عبد الكريم الخليل من شيعة لبنان، وله أصدقاء إيرانيون، والكتب التي جمعها في الصندوق كانت النواة الأولى لمكتبة محب الدين الخطيب، أودعها عبد الكريم عند صديق له إيراني من تجار السكاير والتبغ، وبقي ذلك الصندوق مودعاً عند ذلك الإيراني، ولم يتيسر استرداده إلى الآن، وقد مضى عشرات من السنين على هذا الحادث.

وقع هذا كلُّه عندما كان محب الدين في نهاية السنة الدراسية الثانية

---

(١) كان ناظر الضبطية في ذلك الحين شفيق باشا الحلبي من كبار أعوان السلطان عبد الحميد وموضع ثقته، ولأنه من أبناء العرب فقد كان بينه وبين فريد باشا اليافي مودة واتصال وثيق، وهو الذي رقّاه من مديرية شرطة (بوليس) ولاية بيروت إلى منصبه في نظارة الضبطية، ولعل فريد باشا لم يكن يخشاه كما لو كان الناظر من الأتراك.

بالحقوق، ونظراً لاتساع نشاطه الخارجي، اكتفى بالحقوق، وانقطع عن كلية الآداب، التي كان قد انتسب إليها في السنة الماضية، وتم الامتحان بنجاح إلى السنة الثالثة، وكانت الخطة أن يتفرّغ في العطلة المدرسية لمواصلة العمل في جمعية النهضة العربية، لولا أنّ شدة البوليس الحميدي حملت صاحب الترجمة باقتراح إخوانه وأحرارهم ـ على أن يتركَ إستانبول في العطلة المدرسية، ويسافرَ إلى دمشق، وقد شملت الرقابة منازلَ كثيرين، ممن كانوا يترددون على غرفته، وعلى الغرفة الثانية لعارف الشهابي.

وكان محب الدين الخطيب قبل هذه الفترة قد كتب إلى اثنين من خلصائه وأركان حلقته الدمشقية، يخبرهما بتأسيس جمعية النهضة العربية في إستانبول، ويدعوهما إلى الالتحاق بها، وأن يتعاونا بعد ذلك على تأسيس فرع لها في دمشق، وقد سجّل هذا أحدُهما الطبيب صلاح الدين القاسمي في خطبة ألقاها في الاجتماع السنوي للجمعية بدمشق في محرم (١٣٢٨) أواخر سنة (١٩٠٩) م ثم نشرت في ص (٤ ـ ١٠) من مجموعة أعماله التي طبعت بالقاهرة سنة (١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ م).

واغتنم صاحب الترجمة العطلة المدرسية في دمشق لتعهد البذرة الطيبة وذلك في صيف (١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م).

وقد كان سفرُه من إستانبول إلى الشام في منتهى الحكمة والصواب، وخصوصاً بعد أن علم أنّه في غيبته قد انضم إلى المصاعب التي يلقاها المنتسبون إلى جمعية النهضة العربية في إستانبول ظهورُ لغطٍ مِنْ بعضِ الذين في قلوبهم مرض، وعلى رأسهم مظهر رسلان، وتامر حمادة، وهذا من أبناء أعيان الهرمل، وحينما كان محب الدين في دمشق تلقّى رسالة أخيرة من الأمير عارف الشهابي في إستانبول، طلب إليه فيها أن يبقى في دمشق بعد انتهاء العطلة المدرسية مدة سنة إلى أن تهدأ الحالة في إستانبول، وتنقطعَ الرقابة على الجمعية وأعضائِها والملتفين حولهم.

* * *

من دمشق إلى الحُدَيْدَة

وكانت حلقة الشيخ طاهر الجزائري بدمشق لا تزالُ إلى هذا الحين تعقِدُ اجتماعاتها بعد ظهر يوم الجمعة مِنْ كلّ أسبوع في منزل رفيق بك العظم في مادنة الشحم ـ مع أنّ الشيخ طاهر الجزائري ورفيق بك العظم ومحمد كرد علي سافروا وأقاموا في مصر ـ فعاد محب الدين للاجتماع مع هذه الحلقة أسبوعياً.

وفي يوم الجمعة كان الاجتماع منعقِداً، وكان من المجتمعين القائم مقام أركان حرب: سليم بك الجزائري ـ ابن أخت الشيخ طاهر ـ وشكري بك العسلي، وعبد الوهاب الإنكليزي المليحي، وفارس بك الخوري، وآخرون، وفي نهاية الجلسة قال فارس بك، وكان في ذلك الحين في وظيفة الترجمان الأول للقنصلية البريطانية العامة بدمشق قال لسليم بك الجزائري: إنّ القنصل البريطاني هنا تلقّى كتاباً من قنصلية الحديدة في اليمن، ترجو منه أن يختار شاباً عربياً مسلماً، ليكونَ في منصب الترجمان لها، وأنّه يُشْتَرطُ فيه أن يحسن مع لغته العربية؛ اللغة التركية، ويكون له إلمامٌ بالقوانين العثمانية وشؤون القضاء، لأن الوظيفة قضائية، يحضر فيها الترجمان جلسات المحاكم التي يكون فيها أحد تبعة القنصلية طرف في القضية، والمهم أن يكون من أهل الاستقامة، وله إلمام ثقافي، وذكر أنه لا علاقة لعمله بشيء من أمور السياسة، لاسيما وأنّ القنصلية نفسها مهمتها إدارية، وتُعنى بشؤون التجارة، فهي غير سياسة (دبلوماسية)، وقال فارس بك لسليم بك: وإني كنتُ أعلم أنّ كثيراً من أبناء الجالية الجزائرية في دمشق كانت الحكومة العثمانية قد أباحت لهم الدراسة

بالمجان في مدرسة دار اللغات التي أسستها في إستانبول، وفي المتخرجين الجزائريين من هذه المدرسة من تتوفر فيهم هذه المزايا المطلوبة، فإذا رأيتَ أنّ من مصلحة أحدٍ منهم أن يشغلَ هذا المنصب أرجو أن يكونَ في هذا العمل خير له، فوعده سليم بك أنْ يبحث له عمن تتوفر فيه هذه المزايا، ويخبره في الأسبوع الآتي.

وكان صاحب الترجمة يسمع حديثهما، فلما انتهيا ونهضا ليخرجا، اقترب من فارس بك وقال له:

ـ هل تراني يا فارس بك أصلح للعمل الذي كنتَ تفاوِضُ فيه سليم بك الآن؟

أجابه فارس بك:

ـ أأنت مجنون؟ أنتَ في السنة الثالثة من كلية الحقوق، ونحن ننتظر انتهاءك من الدراسة بعد سنتين، وإخوانك كلهم يرونَك موضعَ رجائهم، ومناطَ آمالهم في أمور كثيرة.

قال محب الدين: إنّ اليمن وطن من أوطاننا، واتصالنا به منقطع، وأنا أحبُّ أن أعرفه عن قرب... ثم أطلعه على كتاب الأمير عارف الشهابي، والأمير عارف من مدينة حاصبيا من وادي التيم التي منها فارس بك، وقال له:

ـ إن إخواني يطلبون مني أن لا أعود إلى إستانبول لمدة سنة على الأقل، وإني إذا قضيت في اليمن هذه السنة التي ستضِيْعُ على كلّ حال من مدة دراستي فلن أخسرَ شيئاً، وإذا صار الجو في إستانبول صالحاً لعودتي إليها أستقيل من هذا العمل في اليمن، ولا يكون قبولي هذه الوظيفة في الحديدة قد غير شيئاً من مجرى حياتي الدراسية وما بعدها.

قال فارس بك بعد أن قرأ كتاب الأمير عارف الشهابي بإمعان وبصيرة:

ـ أنا كنتُ أطمعُ لوظيفة الحديدة فيمن هو أقل منك، وما دامت

ظروفك هذه كما يدلُّ عليها كتابُ الأمير عارف، مضافاً إلى ذلك رغبتك في التعرف إلى تلك الجهات، فإني سأبيض وجهي بك، وأنتَ حيثما تكون لا تستطيعُ إلا أن تكون في خدمة قوميتك والنصح لها، ومع ذلك راجعْ نفسَك بأمرٍ جاءَك الآن على حين فجأة، فإذا انشرح له صدرك بعد التروي والتدبر، وصممتَ على ما تراه الآن فأخبرني، وأنا أتمم ذلك إن شاء الله.

وتم الأمر، وجاءت الموافقة من قنصل الحديدة، وتعيّنَ وقتُ السفر في تشرين الثاني ـ نوفمبر (١٩٠٧) فرسم محب الدين خطته أن يقضيَ تشرين الأول ـ أكتوبر في مصر إلى جانب شيخه وأبيه الروحي الشيخ طاهر الجزائري، وصديقِه محمد كرد علي، ثم ليكونَ على مقربة من مركز النهضة العربية، وليتصل ـ على قدر الإمكان ـ بأركانها في مصر وأعلامها، ثم يسافر من مصر إلى الحُدَيْدَة في أول تشرين الثاني ـ نوفمبر.

أمل وعمل ووداع

وكان السرور والابتهاج بهذا الخبر عظيماً جداً في جمعية النهضة العربية بدمشق وكلّ من لهم صلة بحلقة محب الدين القديمة أيّام دراسته الثانوية، وكان قبل ذلك يتردد بينهم اقتراحٌ بأن تقام حفلة افتتاح للجمعية في دمشق، فلما تقرر سفر محب الدين إلى اليمن تجدد اقتراحٌ آخر، بأن تكونَ تلك الحفلة حفلةَ وداعٍ له أيضاً، وتقدّم صلاح الدين العظم إلى إخوانه بأنْ تكونَ الحفلة على نفقته الخاصة، ودعا لذلك أعضاء الجمعية إلى قضاء يوم في بستان كبير بأرض الوادي، يكون يوماً تذكارياً يعتبر يومَ تحقيق الأمل بتأسيس جمعية النهضة العربية بدمشق، ويوماً تذكارياً لسفر مؤسس الجمعية ورئيسها إلى أفق جديد من آفاق العمل.

وتم ذلك في يوم الجمعة (٧) رجب (١٣٢٥) (١٦) آب ـ أغسطس

(١٩٠٧) وهنا ألقيتُ فيها خطبة عنوانها: «الدين والإصلاح» وألقى خطبةً ثانيةً صلاح الدين القاسمي عنوانها: «العلم والاجتماع»، وثالثة ألقاها زكي الخطيب بعنوان: «الإنسان والتربية»، ورابعة ألقاها رشدي الحكيم في موضوع «التقدم»، وخطب لطفي الحفار في «اللغة العربية».

بين دمشق وإستانبول

بسبب الظروف التي ألمّتْ تحولَ نشاطُ الجمعية من مركز الجمعية إلى دمشق، وأعان على هذا أنّ دمشق من جهة ثانية أنبتت محبة العربية وفكرة العروبة في طوائف وجماعات كثيرة من الشباب، الذين يطلبون العلم أو الوظائف في العاصمة العثمانية، وكانت جمعية النهضة العربية أولَ جمعية قامت بدعوتها العربية في ذلك المحيط[١] ومن أبنائها مثل الشهيدين: عبد الكريم الخليل وسيف الدين الخطيب.

---

(١) وقد لُوحظ أنّ شباب العرب الذين عاشوا في إستانبول في السنتين (١٣٢٤ و١٣٢٥ ـ ١٩٠٦ و١٩٠٧)وما بعدهما أصبحوا كلّما زاروا بلادهم أو عادوا إليها يدعون إلى ما تدعو إليه جمعية النهضة العربية من إحياء مآثر العروبة والإسلام، وتوثيق أواصر الارتباط بين آتيهما وماضيهما.

وفي ربيع الآخر (١٣٢٥) تلقى محب الدين رسالة منظومة من الأستاذ حسن الرزق من أفاضل حماة، يوجّه فيها الخطاب إليه، وإلى أخيه الأمير عارف الشهابي، ويشير إلى ما عرفه من فايز بك العظم عن نشاطهما، والمجهود الذي بذلاه في إستانبول، ويقول في منظومته:

محبَ الدينِ والوطنِ ... أيا مَنْ فاز بالفِطَنِ
لقد وصفوك عندي يا ... صدوق السِّرّ والعَلَنِ
فهذا فايزُ العظمِ ... وربُّ المجدِ والمِنَنِ
لقد أثنى عليك بأنَ ... نكَ العارِي عن الدَّرَنِ
بمقتبس مقالتكم ... على الإطراء تحملني
مبادئها الشريفة لو ... رعاها كلُّ مؤتمن
لكل فتى وظيفته ... وواجبه بهذا الزمن

المنتدى الأدبي وما بعده من الجمعيات

ثم كان منهم الذين دعوا إلى تأسيس المنتدى الأدبي، ومن وراء المنتدى الأدبي قامت الجمعية القحطانية، التي تكوّنت حول القائم مقام أركان حرب سليم بك الجزائري، وكان أكثر أبنائها من الضباط السوريين، وطلبة المدرسة الحربية في إستانبول، وعلى أثرها قامت جمعية العهد متكتلة حول الضابط البكباشي أركان حرب عزيز بك علي المصري، وأكثرُ المنتسبين إليها من الضباط العراقيين وطلبة المدرسة الحربية في إستانبول أيضاً.

دور جمعية النهضة العربية في الأستانة

إنّ جمعية النهضة العربية هذه تأسست يوم الإثنين (٨) ذي القعدة (١٣٢٤) (٢٤) أيلول ـ سبتمبر (١٩٠٦) م في العاصمة، وهي تضم أبناء العرب في دنيا العرب كلِّها، وأما ما سبقها من الجمعيات في بيروت وغير بيروت فهو إنما كان من عمل الأفراد لظروف خاصة ولوقتٍ محدود، ولم يكن لهم ما كان لدعاة النهضة العربية ـ في إستانبول ثم في دمشق ـ من إيمان برسالة ثبتوا عليها طوال الحياة، كما لم يكن لدعوتهم نتائج متواصلة من ذلك الحين إلى الآن.

قضى محب الدين الأسابيع القليلة الباقية لموعد سفره إلى الحديدة في تثبيت المركز العام الجديد لجمعية النهضة العربية بدمشق، وكان أكثر اجتماعاته بإخوانه لهذا الغرض في منزل عثمان بك مردم وأخيه جميل بك في حي المارستان جنوبي سوق الحميدية، وفي المنزل الآخر لآل مردم في طريق الصالحية، وكان في بعض الليالي تمتد به الجلسات معهم فيبيت هناك إلى اليوم التالي، وكان مما أشار به على إخوانه أن يستعينوا في تعليم

الشباب اللغة العربية باسم الجمعية بأستاذه الشيخ أحمد النويلاتي. ولم يسافر محب الدين إلى اليمن إلا بعد أن وُطّدَتْ أمورُ الجمعية، واطمأنتِ القلوبُ إلى مستقبلها.

الوداع

كان مساء الثلاثاء (٨) رمضان (١٣٢٥) (١٥) تشرين أول ـ أكتوبر (١٩٠٧) آخر أيام محب الدين الخطيب بدمشق قبل سفره إلى اليمن، فاكتظّ منزلهُ في حي القيمرية بالمودعين من إخوانه وأصحابه، وكان في مقدمتهم الطبيب عبد الرحمن الشهبندر، وزير الخارجية في عهد فيصل الأول، والزعيم في الثورة السورية الكبرى، والأمير أحمد الشهابي، ولطفي الحفار، ورشدي الحكيم، وصلاح الدين القاسمي، ومحمد الحفار، وسامي العظم، وصبحي المليحي الإنكليزي، وزكي الخطيب، وكثيرون من بني عمومة صاحب الترجمة، والعالم الجليل الشيخ مصطفى الطنطاوي ـ والد الأستاذ علي الطنطاوي [١] ـ وذلك قبل أن يولد له ـ وآخرون كثيرون غيرهم.

وفي صباح الأربعاء كان صاحب الترجمة في محطة البرامكة، وهي محطة السكة الحديدية من دمشق إلى بيروت محاطاً بجموع المودّعين ممن سهروا عنده في الليلة الفائتة وغيرهم، ولم يتخلّف عن هذا الوداع مِنْ معارفه إلا مَنْ كان صاحب معذرة، أو غائباً عن دمشق في جهات أخرى.

وفي بيروت زار صاحبُ الترجمة في اليوم التالي الخميس (١٠) رمضان عضويّ الجمعية عثمان مردم وجميل مردم وكانا تلميذَين في مدرسة (أوجيه) الفرنسية العلمانية، فاستقبلاه في المدرسة، وحضر

(١) [من الجدير بالذكر أن الأستاذ علياً الطنطاوي هو ابن أخت الأستاذ محب الدين الخطيب].

الاستقبال كل التلاميذ الدمشقيين زملاء ابني مردم، وزوّد محب الدين الخطيب صديقيه بكتب أحضرها لهما معه من دمشق، وبعد الظهر زار الكلية الأمريكية، فلقي فيها أخاً ثالثاً لابني مردم وآخرين من التلاميذ الدمشقيين، وبعد انتهاء هذا اللقاء زار مكتبة الكلية، واطلع على بعض نوادرها، وهكذا أمضى بضعةَ أيام في بيروت انتظاراً لموعد سفر الباخرة، فجدَّدَ خلالها صلته بمعارفه من أهل الفضل، ومنهم محرر جريدة «ثمرات الفنون» وغيره.

وفي مساء الإثنين (١٤) رمضان (١٣٢٥) (٢١) تشرين الأول ـ أكتوبر (١٩٠٧) ركب الباخرة الفرنسية (يورتغال) من بواخر شركة (المساجيري ماريتيم) وفي صباح الأربعاء (١٦) رمضان ألقت الباخرة مراسيها في مرفأ بور سعيد، فنزل، وكان معه صندوق كتب وبعضَ الأمتعة الثقيلة، وقام بشحنها في النقل البطيء، وأرسل برقيةً إلى محمد كرد علي بموعدِ وصوله بالقطار الذي يسافر فيه إلى القاهرة، ولما وصل القطار إلى محطة باب الحديد، وجدَ في انتظاره أحمد كرد علي شقيق الأستاذ محمد كرد علي، فذهبا معاً إلى منزلهما في شقة تقع على ناصية شارع الشيخ ريحان، أمام وزارة الداخلية، بجوار الست الشامية، وكان الشيخ طاهر الجزائري قد علم بقدوم تلميذه، فحضر معجلاً إلى منزل الأستاذين كرد علي، ورحّب بضيفهما، وفرح كثيراً بهذا اللقاء بعد فراقٍ طويل، وذهبوا جميعاً لزيارة رفيق بك العظم، وكان صلاح الدين العظم يسكن في جواره بشارع خيرت، بجهة البركة الناصرية، وفي السهرة كان الحديث عن جمعية النهضة العربية وأهدافها، وآمال محب الدين وأصدقائه فيها، وكان محمد كرد علي ينشر في مجلة «المقتطف» سلسلة فصول بعنوان «عمران دمشق» فعرض محب الدين عليه أن تتولّى جمعية النهضة العربية جمعَ هذه الفصول وطبعِها في كتابٍ مستقل.

وبات الضيف في منزل الأستاذ كرد علي، وفي صباح الخميس (١٧)

رمضان خرجا معاً إلى مطبعة «الجريدة» وكانت في دار محمود سامي باشا البارودي بغيط العمدة المطل على باب الخلق، ثم ذهب إلى مطبعة جريدة «الظاهر» ـ التي كان يصدرها محمد أبو شادي المحامي ـ وهي الدار التي كتَبَتِ الأقدارُ أن يتولاّها صاحبُ الترجمة بعد نحو عشرين سنة، ويصدر منها مجلته «الزهراء» وصحيفته: «الفتح»[١] وكانت مطبعة الظاهر هي التي تطبع للأستاذ كرد علي مجلته «المقتبس»، فعرضوا عليه بعض ملازمها للتصحيح.

وخرجا بعد ذلك، فافترقا، محمد كرد علي إلى «جريدة المؤيّد»، لأنه كان من محرريها، ومحب الدين إلى دار الكتب، ليتعرّف إلى أحوالها ونظامها وبعض نوادرها.

ثم حضر أحمد كرد علي، فصحب محب الدين إلى جهة حي الحسين والأزهر، وعادا معاً إلى الدار في شارع ريحان، وحضر الشيخ طاهر في المساء، ثم ذهبوا معاً إلى دار رفيق بك العظم في شارع خيرت، وكان

---

(١) وللدكتور أحمد زكي أبي شادي قصيدة عنوانها «نقلة الزهراء» في ص (٥٢٣ ـ ٥٢٥) من ديوانه الكبير «الشفق الباكي» يقول فيها:

جدّدتَ «بالزهراءِ» فجرَ شبابي ... وأعدتَ لي صوراً من الأحبابِ
قسماً محبَّ الدين مثلك إنه ... ينسي عظيم الحَظِّ كل طِلابِ
بالأمسِ كنتَ مُذكّري بطفولتي ... في مجمعِ العرفانِ والآدابِ
واليومَ تنشرُها حياةً غَضَّةً ... في معهدٍ جدرانُه أولَى بِيَ

ويقول بعد ذلك ص (٥٢٧) جواباً على رسالة:

شكراً لشكرِكَ يا محبَّ الدّينِ ... ولو انّه زادَ دَيْنَ ديْنِ
مَنْ ذا بخلقِك في جلالةِ برِّهِ ... بمواطنيه وفي جمالِ حَنِيْنِ
متواضعٌ يَهَبُ الأنامَ جهودَهُ ... وسخيُّهم بخزائنٍ كضنينِ
مَضتِ السنونُ عليه في استبسالِهِ ... ويظَلُّ لا يعبا بمرِّ سنينِ
جرتِ البراعةُ من دماءِ شعورِهِ ... جريَ الرّسالةِ عن نبيٍّ يقينِ
يمضي ويشقَى في سبيلِ ذيوعها ... وهداه بالعقبى أبرُّ ضمينِ

هناك حقي بك العظم رئيس حكومة دمشق فيما بعد، وحسن بك حمادة صاحب «مجلة الأحكام الشرعية».

دعوة مسلم روسي لمؤتمر إسلامي

وكان في زيارة القاهرة في تلك الأيام إسماعيل بك قصير نسكي من كبار أعيان مسلمي روسية، وصاحب جريدة «ترجمان» التركية اليومية في مدينة (باغجه سراي)[١] وقد جاء إلى مصر للدّعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي فيها لدراسة أحوال المسلمين عموماً ومسلمي روسية على الخصوص، وحضر في هذه الليلة لزيارة رفيق بك العظم للمذاكرة معه، والاستعانة به لتحقيق ذلك.

واقترح الشيخ طاهر بعد ذلك أن يكونَ محبُّ الدين ضيفاً عليه في منزلٍ كان يسكنه مع الشيخ مصطفى القباني من دمشق في شارع حوش قدم بجوار الغورية، فاستحسنتُ ذلك، لأن الأستاذ كرد علي يسكنُ مع أسرته، والشيخ طاهر وصاحبه لا يشاركهما في المنزل غير عبد الفتاح قتلان، الذي أصبح بعد ذلك شريكاً لمحبّ الدين في المكتبة السلفية، وصاهره محب الدين بالزواج من شقيقته، وكان عبد الفتاح في هذه الفترة في بدء نشأته، وهو ابن خال الشيخ مصطفى القباني، فاستعان به محب الدين في كثير من الشؤون في الأيام الباقية له في القاهرة قبل مغادرتها إلى الحديدة.

دار الكتب وفهارسها

وفي يوم الخميس (٢٤) رمضان (٣١) تشرين الأول قصد محب الدين

(١) [تقع المدينة في شبه جزيرة القرم].

إلى دار الكتب للبحث عن رسالة «إيساغوجي» لابن المقفع[١]، وكان قد سمع من الأستاذ الشيخ طاهر أنّ منها مخطوطة محفوظةً في أحد المجاميع هناك، وكان محب الدين يهتم بنفثات قلم ابن المقفع، ويتوقّع أن يكونَ لهذه الرسالة شأنٌ في تاريخ نقل علم المنطق إلى العربية، وقد بحث كثيراً في مفردات المجاميع بدار الكتب فلم يجد لها ذكراً، واستدلّ من ذلك على أنّ فهرس دار الكتب قاصرٌ في وصف المجاميعِ، ولا يرشِدُ إلى كل ما فيها.

الروسي المحاضر

وخرجَ صاحبُ الترجمةِ من دار المؤيّد لسماع الخطبة مساء الجمعة في فندق الكونتنتال من إسماعيل بك قصير نسكي عن داء المسلمين ودوائهم، وعن أحوال مسلمي روسية، ويدعو فيها إلى عقد مؤتمر إسلامي لدراسة هذا الموضوع، والظاهر أنّ الأستاذ محمد كرد علي هو الذي أشار على منظّم قائمة الدعوة إلى هذا الاجتماع بأن يكتب اسم محب الدين في جملة المدعوين، وفي مساء اليوم التالي الجمعة (٢٥) رمضان، أول تشرين الثاني ـ نوفمبر تم هذا الاجتماع، وألقى فيه إسماعيل بك كلمته باللغة التركية الشرقية، وكان يتولّى رجل ترجمتها فقرة بعد فقرة، وفيها تفاصيل واستطرادات فرعية كان يحسن أن تكونَ في تقريرٍ يقدَّمُ إلى المؤتمر المدعو إلى عقده، فإنّ إيرادها في هذه الخطبة أورثها ضعفاً، حتى انصرف بعض السامعين قبل انتهائها، وإنْ كان الجميعُ قد ارتاحوا إلى ما عليه مسلمو روسية يومئذ من النشاط الاقتصادي، وعسى أن يكون المؤتمر الذي يدعو المحاضر إلى عقده أكثرَ اهتماماً بموضوع داء المسلمين ودوائهم، ويكون الإلمام فيه بمستوى المسلمين الخلقي والفكري هو الأساس الذي تقوم عليه النهضة الاقتصادية، فتكون هي بعد

(١) [إيساغوجي مدخل إلى علم المنطق ألفه باليونانية فرفوريوس الصوري، وقد نسبت ترجمته إلى ابن المقفع، انظر «ابن المقفع» للدكتور عبد اللطيف حمزة ص(١٣٨) ومقدمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني لتحقيقه لمتن «إيساغورجي»].

ذلك إحدى نتائج تقدمه وارتقائه، لأنّ الاقتصاد إذا لم يقم على أساس من الأخلاق والتربية الاجتماعية قد يكون مشوباً خيرُه بشره، بل قد يطغى شرُّه على خيره في بعض الأحيان.

اللجنة التمهيدية للمؤتمر الإسلامي

وفي المساء من يوم السبت (٢٦) رمضان زار محب الدين منزل رفيق بك العظم مع الشيخ طاهر ومحمد كرد علي وآخرين، ولم يكن رفيق بك بالمنزل، لكنه ما لبث أن حضر هو وإسماعيل بك، ثم جاء طلعت بك حرب، وأبو النصر بك، صاحب الموسوعات، وحقي بك العظم وآخرون، لم يعرفهم صاحب الترجمة، وكانوا مهتمين بأمر تكوين اللجنة التحضيرية للمؤتمر الإسلامي، وكان المنتمون إلى الحزب الوطني بمصر مستائين من ميل قصير نسكي إلى التعاون مع الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد»، واختصاصه بالدعوة إلى سماع خطبته، وحصلت مشادّة في منزل رفيق بك حول اللجنة التي يُرَادُ تأليفُها توطئَةً لعقد المؤتمر، ولما انتهوا من هذا الموضوع انصرف بعض الحاضرين، وتفرّغ رفيق بك ـ صاحب المنزل ـ لتعريف إسماعيل بك بالشيخ طاهر الجزائري ومحمد كرد علي ومن معهما، وبعد فترة أخرى وجيزة انصرف صاحبُ الترجمة مع الشيخ طاهر إلى منزله.

وعلى هاته الوتيرة من تمضية الوقتِ بزيارة معالم القاهرة وأعلامها انقضت الأيّام المخصصة لزيارة مصر.

وقبل سفر محب الدين قام محمد كرد علي بجولة إلى الإسكندرية وطنطا، وعند عودته حمل إلى محب الدين تحية خاصة من مصطفى صادق الرافعي بطنطا، وأبلغه بأنّه يرغب في الاجتماع به عما قريب،

ولكنّ إزماعَ محب الدين السفر بسرعةٍ حال دون ذلك[١].

جمعية الشورى العثمانية وفروعها

ومما قام به صاحب الترجمة مدة وجوده في القاهرة اجتماعهُ بأركان جميعة الشورى العثمانية، الذين كانوا يطالبون للبلاد العثمانية بالحكم النيابي، وإعلان الدستور، ووضع حَدٍّ للحكم الفردي، وكان من أركان هذه الجمعية الدكتور عبد الله بك جودت الأديب التركي الكبير، وصاحب مجلة «اجتهاد» التركية، ورفيق بك العظم، والسيد رشيد رضا وآخرون، وقد ذكروا لصاحب الترجمة أن لجمعيتهم في داخل البلاد العثمانية ثلاثة عشر فرعاً، وأنهم يرغبون في توسيع نشاطها في البلاد العربية أيضاً، فوعدهم محب الدين خيراً، وقال: إنّ الدعوة إلى حكم الشورى ومبادىء الشورى، والعمل للتخلص من الحكم الفردي كلُّ ذلك مما نعتقِدُ فيه الخيرَ، ولما كان التعاون على الخير فريضة، فإنّه وعدهم أنه سيعمل لذلك في البيئة التي يصل إليها، وبناءً على هذا التفاهم كتبوا له تفويضاً بأن يتخيَّر لجمعيتهم من العثمانيين الرجال الصالحين، وإذا تمكن من تأسيسِ فرع للجمعية هناك، فسيكون الفرعَ الرابعَ عشر، إن لم يتأسس قبله فرع في بلد آخر.

إلى عدن فالحديدة ثم إلى جزيرة قمران

وقضى صاحب الترجمة أواخر رمضان وأيام عيد الفطر لسنة (١٣٢٥) في القاهرة في هذا النشاط إلى أن كان يوم الأحد (١١) شوال (١٧) تشرين

(١) لمّا كان صاحب الترجمة في إستانبول كان مصطفى صادق الرافعي يراسل عمر بك الرافعي أحد زملاء محب الدين في دراسة الحقوق، واقترح مصطفى على عمر بك ـ وهو من الشعراء ـ أن يترجِمَ شيئاً من الشعر التركي، فأجابه بأنّ في استطاعة محب الدين أن يقومَ بذلك، وكان هذا سبب التعارف بينهما قبل اللقاء.

الثاني ـ نوفمبر فركب القطار إلى السويس انتظاراً لباخرة تقله إلى الحديدة، فلم تتيسر له غير باخرة نمساوية اسمها (جيزلا) وهي لا تقف في البحر الأحمر إلا في عدن، فسافر عليها في مساء الثلاثاء (١٩) نوفمبر ـ تشرين الثاني إلى عدن صباح الإثنين (٢٥) منه، وفي فجر الثلاثاء (٢٦) منه استقل باخرة هنديةً صغيرة اسمها (ودكوك) بلغت به الحديدة صباح الأربعاء (٢٧) منه.

وفي الحديدة علم أنّ القنصل والقنصلية انتقلا إلى جزيرة قُمران لمراقبة حجاج الهند والشرق، المحتم قانوناً على بواخرهم أنْ تُنْزِلهم في المحجر الصحي العثماني الكبير المقام في هذه الجزيرة، ولما كانت الباخرةُ الصغيرة (بودكوك) ستواصِلُ سيرَها إلى مياه قمران، كان لابدّ من الذهاب إلى هناك، فأبحر في صباح الخميس (٢٨) تشرين الثاني ـ نوفمبر، ووصل إلى قمران في وقت الضحى، وقد أحسن القنصل استقبال ضيفه، وأخبره أنّ البقاء في هذه الجزيرة سيستمر شهر كانون الأول ـ ديسمبر كله وأياماً من بعده، وكان صاحب الترجمة في هذه المدة يتناول الطعام غداءً وعشاءً مع القنصل في القنصلية، لأنّ الجزيرة لا مطعمَ فيها ولا فندق، وأمر القنصل فرّاش القنصلية أن يبحث لضيفه عن منزلٍ نظيفٍ في جهة قريبة، وكان هذا الفرّاش صومالياً ألمعياً، يحسن مع لغته المحلية اللغة العربية كأهلها، ويحسن التفاهم بالإنكليزية، وفي وقت قصيرٍ وجدَ المسكنَ المطلوبَ على البحر، والمد والجزر يتداولان الساحلَ بمشهدٍ لطيفٍ، وهذا ما خفف من ثقل الغربة ووحشتها.

وجعل صاحب الترجمة يتردد على القنصلية نهاراً في أوقات العمل، يتعرف فيها على هذا الجو وأحواله، وأول ما تعرّف بكبير كتاب المحجر من موظفي الحكومة العثمانية وهو طاهر بك يوسف رجب من أعيان الحديدة، وهو يحسن التركية مع العربية، وله ثقافة تتناسب مع وظيفته، فانعقدت معه الصداقة والمحبة، وكان من موظفي المحجر شبان يمنيون،

وبعضهم من الترك، قدموا من إستانبول، وكان أحدهم من خريجي الحقوق فيها، فامتزج بصاحب الترجمة هكذا كان هذا المحيط الجديد على ضيفه لا يخلو من أسباب الأنس والارتياح.

وفي (٧) كانون الثاني ـ يناير (١٩٠٨) انتهى موسم الحجر الصحي للحجاج، وكانت عودتنا من قمران إلى الحديدة على سنبوك شراعي اسمه المستبدل، فقام في عصر ذلك اليوم الثلاثاء، وبلغ مياه الحديدة صباح الخميس.

وفي الحديدة وكان أول تعارف صاحب الترجمة في هذا البلد اليمني بينه وبين تاجرين دمشقيين اهتمّا له باختيار منزلٍ لإقامته.

وكان في القنصلية اثنان من الكتبة من مواليد الحديدة: أحدهما حسن صالح النجدني من أصل إيراني، والآخر من أصل حضرمي، فوضعا مشكورين كلَّ خبرتهما وما في طاقتهما من جهدٍ لراحة هذا الضيف الجديد.

القنصل

وكان قنصل إنكلترة في الحديدة يومئذ هو الدكتور ج. هـ. ريتشارد وهو الإنكليزي الوحيد في الحديدة في ذلك الحين، وهو من مواليد الهند، أبوه إنكليزي وأمه آسيوية[١]، وهو برتبة نائب قنصل، يعرف مع الإنكليزية الهندوسية والعربية قراءةً وتكلُّماً، وفي مدة إقامةِ محبّ الدين معه في قمران عرف القنصل أنه يتعاون مع شاب لم تجذبه إليه الوظيفة أو المطامع، وأنه يؤمِنُ بمبادىءَ هي ألزمُ له من كلِّ ما يلتزم الآخرون به.

(١) ولأجل أن يداري جانبَه الآسيويّ من كيانه تزوّجَ ببريطانية في ضِعْفِ سنه، وهي تمشي على عكاز، وفيها كبرياء تتصنّعه على عادة الإنكليز في خارج بلادهم، ولذلك الضعف كان صاحبُ الترجمة يتباعَدُ عن القرب من أماكنِ وجودهما.

امتيازات أجنبية

وقد تبين لهذا الموظف الجديد أنّ العمل المطلوبَ منه هو حضور الجلسات في المحاكم عندما تكون فيها لأحد رعايا القنصلية قضية، ليطمئن باسم القنصلية على سير العدالة فيها، وهو لذلك يجلِسُ مع رجال المحكمة، ولكن لا رأيَ له فيما يتولّونه ويتداولون فيه، وقد تصدرُ بشأن هذه القضايا قبل تقديمها للقضاء كتابات بالعربية من القنصلية إلى الجهات الرسمية، وكان قبلاً يتولى إعدادَها أحدُ الموظفين المحليين في القنصلية بإشراف القنصل، فنيطت الآن بصاحب الترجمة الموظف الجديد، ليتمكن من متابعة القضايا في مراحلها جميعاً.

وكان رعايا القنصلية في الحديدة وسائرِ اليمن إلى حدودِ عسير، هم: أولاً من الهنود، ثم أُضيفَ إليهم عنصر اليونانيين، لأن حكومة اليونان لا قنصلَ لها في اليمن، وأناطت أمورَ رعاياها بالقنصلية الإنكليزية.

في المقهى

وكان أول ما اهتمّ به الضيفُ الجديدُ أن يعرفَ البلد، وأن يتصل بأهل الثقافة والنباهة من أهلها، وموظفي الحكومة، وضباط الفرقة الرابعة عشرة من الجيش العثماني السابع، التي مركزها في الحديدة، وكان هذا الأمر يسيرُ الآن في مرفأ الحديدة، حيث يوجَدُ على ساحلها مقهى (كازينو) للبلدية، يمرُّ عليه من بعدِ الظهر أكثرُ الموظفين والضباط، وكان لابدّ لمثل هذا الضيف الجديد أن يقصِدَ هذا المقهى للراحة وتناول القهوة، فبدأ يتعرَّفُ فيه إلى كلّ من يترددُ عليه منهم.

الفرع الجديد لجمعية الشورى العثمانية

وعلم محب الدين أنّ قائد الحديدة [هو] البكباشي شوقي بك المؤيد

العظم، وأنّه مشهورٌ بالنزاهة والاستقامة والسيرة الممتازة، فانعقدت بينَه وبين محب الدين صداقةٌ وثيقةٌ زادها وثوقاً صداقته السابقة بالمؤرّخ الشهير رفيق بك العظم، وابن عمه حقي بك، وصداقته من قبل ذلك أيضاً بشبان هذه الأسرة في دمشق وحيثما كانوا، وتمَّ في وقت قريب أن كاشف محبُّ الدين صديقَه هذا بأمر جمعية الشورى العثمانية، وأنه مندوبٌ من قبلها لتأسيس فرع لها في اليمن، ولما اطلع شوقي بك على قانونها وعلى جريدتها التي تصدرها في القاهرة بالتركية والعربية، وعلم أنّ من أهمّ أركانها رفيق بك وحقي بك العظم، فإنّه طلب الانضمام إليها، وأرشدَ محبَّ الدين إلى طائفةٍ من الضباط الأحرار، الذين كان في إبعادِ بعضِهم عقوبةً لهم على نزوعهم للحرية، وكراهيتهم للحكم الفردي، وميلهم إلى الحياة النيابية، وهكذا صار لجمعية الشورى العثمانية في الحديدة الفرع الرابع عشر، بعد فروعها الثلاثة عشرة المنتشرة في داخل البلاد العثمانية، وصار كلّما انتقل عمل ضابط منهم من الحديدة إلى صنعاء أو غيرها في داخل اليمن يدعو في منطقة عمله الجديد مَنْ يتوسم فيهم الخيرَ من زملائه الضباط إلى الدخول في معية الشورى العثمانية.

وكان من اتصال محبّ الدين بالمحاكم أن توثقت الصداقة بينه وبين أحمد فؤاد بك مصطفى زادة رئيس محكمة التجارة، وصارا زميلين، يكادان لا يفترقان، وكذلك بينه وبين فضيلة القاضي الشرعي، وكانت المحكمة الشرعية هناك تنظر في ذلك الحين ـ عدا القضايا الشرعية ـ القضايا المدنية كلها أيضاً، وكان هذا والقاضي الشرعي من مسلمي جزائر البحر الأبيض، وهو يحسن مع اللغة التركية اللغة اليونانية، وله ثقافة واسعة، وفكر مستنير، فتمكن محب الدين من تحبيب شيخ الإسلام ابن تيمية إليه، وأرسلَ إلى مصر يطلب له كتب الشيخ محمد عبده وأمثاله.

وكان من الموظفين الممتازين في الحديدة صالح بك قتلان الدمشقي، وهو مدير عام لجميع مرافق البريد والبرق (التلغراف) في منطقة الحديدة

وما يتبعها، ويحسن لغات كثيرة شرقية وغربية، وكان لعلاقته الوثيقة بمحب الدين دورٌ عظيمٌ ستأتي الإشارة إليه فيما بعد. وهكذا اتسع النطاق لنشاط صاحب الترجمة في وقت وجيز أكثر مما كان يتوقع.

وكذلك تعرّف بكثير من تجار البلد الممتازين وأعيانها، وفي مقدمتهم الشيخ صالح شاذلي، والشيخ صالح رجب، شقيق طاهر بك رجب، ومرجان الجزائري، وتعاون معهم في نشاطٍ يأتي بيانُه، وأكثر ما كان لقاؤه بالتجار وأعيان البلد في مقهى كبير جداً، أقيم في العراء، وراء آخر مباني البلد، ويديره هندي بارع كثير الأعوان، فكان محب الدين كلما وجد متسعاً من الوقت في السهرة يلتقي بأصدقائه في هذا المقهى، أو في منازلهم، خصوصاً الشيخ صالح شاذلي ومن يلوذ به من أنصاره وأحبابه.

ومضت الأشهر الأولى من عام (١٩٠٨) على هذه الوتيرة منضماً إلى ذلك مواصلة محب الدين لإخوان نشاطه السابق بالمكاتبة إلى دمشق وإستانبول والقاهرة، متعهّداً جمعية النهضة العربية على الخصوص، ولا سيما مركزها الجديد في دمشق، مع مكاتبة جمعية الشورى العثمانية بواسطة رفيق بك العظم وابن عمه حقي بك، ولا يزال محتفظاً إلى الآن برسائلهما الكثيرة الخاصة بجمعية الشورى، وجهاد العثمانيين للتخلّص من الحكم الفردي، والحصول على الحياة النيابية.

ثورة أنور ونيازي

وجاء شهر تموز ـ يوليه (١٩٠٨) وفيه اندلعت الثورة في جبال رسنة من ولاية مناستر، ثورة أنور ونيازي الضابطين في الجيش العثماني مع بقية ضباط وقوات فرقهم يطالبون السلطان عبد الحميد بالحكم النيابي، وإعلان الدستور، الذي كان ألغاه في بداية حكمه، وصارت البرقيات ـ (روتر) و(هافاس) وغيرهما ـ تذاعَ عن ذلك في أطراف الأرض، بينما

يمنع نشرها في البلاد العثمانية، ولما كان المديرُ العام للبريد والبرق في الحديدة صديقاً حميماً لصاحب الترجمة، وعضواً في جمعية الشورى العثمانية، فإنه كان يوصل أخبارَ الثورة التي تتناقلها أسلاك البرق إلى محبّ الدين، ومنه إلى قائد مركز الحديدة البكباشي شوقي بك المؤيد العظم، رئيس الفرع الرابع عشر للجمعية، وإلى الممتازين من ضباط الفرقة الرابعة عشرة من الفيلق السابع من الشباب الداخلين في الجمعية، والمتلهفين على قيام الحكم النيابي في الدولة العثمانية، ولم يكتف المدير العام للبريد والبرق بهذه المعاونة، بل صار يبيح استعمال ما تحت سلطته من أسلاك البرق في المخابرة مع أعضاء جمعية الشورى العثمانية في البلاد اليمنية الأخرى ـ صنعاء وغيرها ـ كلّ ذلك بطريقة سرية خاصة وبلا أجر، وتسمى عندهم (سرفيس) أي: مكالمات إدارية للخدمة الرسمية.

* * *

إعلان السلطان عبد الحميد للدستور والموقف في اليمن

وفي أواسط تموز ـ يوليو (١٩٠٨) أذعن السلطان عبد الحميد للثورة، وأجاب مطالبها، وأعلن الدستور في إستانبول وسائر الولايات العثمانية.

أما الجهة الرسمية في ولاية اليمن، وكان على رأسها المشير أحمد فيضي باشا الذي كان قائد الفيلق السابع، وفي الوقت نفسه الحاكم الإداري في اليمن كله، فكانت تتجاهلُ كلّ ما وقع في الدولة، وكأنه لم يكن، فأُوْعِزَ في الجمعية إلى بعض الأهالي ومنهم السيد أحمد شارة، والسيد علي زواك، والشيخ صالح الشاذلي بأن يرسلوا برقيات الشكوى من تصرف المشير فيضي باشا وأعوانه، لأنهم من أنصار الحكم السابق، فلم يكن لذلك أيَّ تأثير في المراجع العليا.

وحينئذ زار محب الدين شوقي بك المؤيد قائد المركز ورئيس الجمعية، وقال له: **يخيل إليَّ أنّ رجال الحكم الجديد يريدون أن يَحرموا اليمنَ ـ وربما غيرها أيضاً من البلاد العربية كالحجاز ـ من الحكم النيابي، ليكون للدولة في عهدهم مستعمرات، كما للدول الأوربية مستعمرات.**

قال شوقي بك: وما التدبير حينئذ؟

قال له محب الدين: أن نجعلهم أمام أمرٍ واقعٍ، وأن نتخذَ جميعَ المراسم لإعلان الدستور، والسير بالعمل في كل ما يترتَب على ذلك بعد.

قال شوقي بك: ولكن يوجد فوقنا من هم أولى منا، فأنا مرؤوس للفريق عارف حكمت باشا قائد الفرقة الرابعة عشرة، وقائد الفرقة مرؤوس للمشير أحمد فيضي باشا.

فقال له محب الدين: أمّا الفريق عارف حكمت باشا فإنّ ابنه ثريا محبٌّ لنا، ومرتبط بي أشد الارتباط، ويمكنه التأثير على والده بتهوين الأمر عليه، وعارف حكمت باشا نفسه ليس بخبيثِ الطوية كالمشير فيضي باشا، ويمكن إقناعُه بأننا نحن القائمون بما فرضت إستانبول والجهات العليا، وأنَّ المشير فيضي باشا هو الواقف في طريق السياسة الجديدة للدولة خدمةً للعهد البائد، وعلى كلّ حالٍ ينبغي أن نمضيَ في إجراءات الأمر الواقع، فنعمل كلَّ شيءٍ دونَ استشارة عارف حكمت باشا أو غيره.

ثم جمع محب الدين إخوانه الضباط، واتفق معهم على أن تُطْلَقَ في ساعة العصر من مركز الاستحكام مدافعٌ كمدافع العيد، حتى يسمعها عارف حكمت باشا وغيره بلا سابق علم منهم، وأن تُحْضَرَ صواريخُ الابتهاج ومشاهد الزينة بأكمل وأبهى ما يعمل منها في الاحتفالات، وأن تعلنَ عطلة مصالح الحكومة في اليوم التالي، فيجتمع الناس في ساحة واسعة تلقى فيها الخطب بالتركية والعربية عن إعلان الحكم النيابي، وعودة الحكم بالدستور، والاستعداد لانتخاب من ينوب عن الأمة في مجلس المبعوثان (النواب) في إستانبول، وأن يبلّغ ذلك كله على لسان البرق بطريقة الخدمات الإدارية (السرفيس) إلى ضباط صنعاء وسائر البلاد الأخرى من أمهات مدن اليمن.

وكانت مفاجأةً مدهشةً للكبار، الذين لم يسبق لهم علم بشيء من هذه القرارت، فكانوا ينظرون بعيونهم إلى التاريخ وهو يعم ويسير، وهم واقفون يتفرّجون، كأنهم ليسوا أصحاب مناصب، وليست السلطةُ الرسمية في أيديهم، ولما انتشرت في صنعاء تفاصيلُ ما جرى في الحديدة نظم

أعضاء جمعية الشورى هناك صفوفهم، وفعلوا في صنعاء مثل الذي تم في الحديدة.

وكانت مفاجئة لمحب الدين نفسه أن وصلت إليه بعد نحو أسبوعين جريدة عربية يصدرها في إستانبول إبراهيم سليم النجار، وفيها نصّ الخطب التي ألقاها محب الدين في الحفل المشار إليه بالحديدة، وتوالت رسائلُ جمعية الشورى العثمانية، في القاهرة إلى محب الدين في تمجيد ما وفقه الله تعالى إليه في هذه المنطقة.

بين جمعية الشورى وجمعية الاتحاد والترقي

ومما ذكر في هذه الرسائل أنّ المراسلةَ دائرةٌ بين جمعية الشورى العثمانية بمصر وجمعية الاتحاد والترقي في إستانبول، لإلحاق الأولى بالثانية، فتكون فروع جمعية الشورى كلها فروعاً لجمعية الاتحاد والترقي، التي صار بيدها زمام الأمر في السلطنة العثمانية، وعملاً بمدأ تعجيل الأمر الواقع أعلن الفرع الرابع عشر لجمعية الشورى العثمانية في الحديدة أنّه أصبح فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي، واتخذ له نادياً في أعلى مقهى (كازينو) البلدية القائم على مرفأ الحديدة.

تعليم وتمويل

ولاحظ محبّ الدين أنّ في بعض غرف أعلى (الكازينو) مدرسة أميرية تافهة وناظرها شبه عامي، متخرج من مدرسة العشائر في إستانبول، فدعا إخوانَه أعضاءَ الجمعية من عسكريين ومدنيين، واقترحَ عليهم أن يتطوعوا للتدريس في هذه المدرسة بالمجان، وأنْ يعملوا على تجديد شبابهم، وإحياءِ نشاطهم، فوافقوا على ذلك.

ثم زار محب الدين إخوانه التجار، وطلب منهم أن يتعاونوا على التبرع بأقمشة خفيفة من نوع معين تصلح لمثل الحديدة في زمن الصيف،

فتفصّل منها بدلات لكل تلميذ ممن يوجد الآن في المدرسة، أو يلتحق بها منذ اليوم، وأن يُتَبَرَّعَ لهم بأحذية أيضاً، وجيءَ بالملابس والأحذية إلى المدرسة، ووزّعت على التلاميذ.

أناشيد

ثم عمل لهم محب الدين أناشيدَ تناسب الحياة الجديدة، وطلب منهم حفظها بألحانٍ تأخذ بقلوبِ المنشدين والسامعين، وطلب من شوقي بك أن يختار له ضابطاً يحسِنُ الألعابَ الرياضية والتعليمَ العسكري، فازداد عددُ التلاميذ في أسبوعين من ثلاثة إلى أكثر من ثلاثمئة، وصاروا يخرجون بأعلامهم في شبه كتائب منظمة، ساعة من كل يوم في الصباح، وساعة في المساء، إلى مكان الألعاب الرياضية والتعليم العسكري، وهم بملابسهم وأحذيتهم الجديدة، يترنّمون بأناشيدهم على مسمع الناس في الأسواق والأحياء التي يمرّون بها، وبين الصباح والمساء تُلْقَى الدروسُ بأرقى المناهج على هؤلاء التلاميذ بحسب درجاتهم من القابلية والاستعداد.

وعند محب الدين رسائلَ من أعيان القوم ومن كبار الضباط يرجون قبول أبنائهم في سلك هذا التعليم الجديد.

مطبعة جزيرة العرب وجريدتها

وشعر صاحب الترجمة بحاجة الحديدة وسائر اليمن إلى أنْ تبدأَ فيها حياة الطباعة والصحافة لتنهضَ بالمستوى الفكري والثقافي، ففاوض إخوانه من العسكريين والمدنيين والأعيان والتجار في أن تُؤَسَّسَ شركةٌ لذلك بِأَسْهُمٍ، قيمة السهم الواحد منها جنيه إسترليني واحد ذهباً، فوافقوا على ذلك، وعلى أن يكون اسم المطبعة مطبعة جزيرة العرب، وعلى أن تصدر عنها صحيفة باسم «جزيرة العرب» أيضاً، وكتبت قائمة أولى بأسماء

الراغبين في الاكتتاب، وبلغت الحمية ببعضهم أن اكتتبوا بمقادير من الأسهم تبرعاً لا بقصد الاستفادة من عائد.

وكتبت رسائل إلى بعض سفارات وقنصليات الدولة العثمانية في البلاد الأوربية التي عرفت بصناعة آلات الطباعة مثل برلين وأثينة ولايبسك وأشباهها، لتطلب من مصانع الطباعة فيها إرسال مخططاتها (كتالوكاتها) إلى الحديدة، لانتقاء ما يوافق الحال فيها من ذلك، وبالفعل وصلت الكتالوكات، وقبل الدخول في دور التنفيذ تلقّى محب الدين من دمشق رسائلَ تُلِحُّ عليه بضرورة العودة إلى هناك، لإصدار صحيفة باسم «النهضة العربية»، فوقف السير في مشروع المطبعة والجريدة في الحديدة، لأنه لم يكن هناك من تساعده ظروفه على القيام بإدارة هذا العمل إلا صاحب الترجمة.

ثورة الإمام يحيى
والسعي للاعتراف له باليمن
بمثل المركز الذي لشريف مكة في الحجاز

وكان الإمام يحيى في ذلك الحين في حالة ثورة على الدولة، وكان مرابطاً مع رجاله في الجبال، فرأت جمعية الشورى العثمانية ـ التي تحول فرعها في الحديدة إلى فرع لجمعية الاتحاد والترقي ـ أن تقوم بعمل عظيم لليمن والدولة معاً، فكتبت إلى الإمام يحيى كتاباً بخط محب الدين وإنشائه، تعرضُ عليه اقتراحاً بأن تتولى الجمعية الكتابة إلى إستانبول والمراجع العليا، بأنَّ الإمام يحيى لم يكن يحارب الدولة، وإنما كان يحارب الظلم الذي حاربته الجمعية أيضاً، وبنت ثورتها من أجل إزالته، وكتب محب الدين للإمام يحيى أن تتولى جمعية الشورى العثمانية الكتابة للمراجع العليا أنّ الإمام يحيى مستعدٌّ للتفاهم مع الدولة على الصلح والتعاون بشرط أن يعترف له في اليمن بمثل المركز الذي لشريف مكة في

الحجاز، وأن يكونَ الإمام هو المرجع في اليمن في الشؤون الدينية، كتعيين أئمة المساجد وخطبائها، والقضاة الشرعيين، وشؤون الأوقاف. وللدولة سائر الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية والمالية. وقيل للإمام في هذا الكتاب: إنّ عندك ثلاثمئة أسير من جيش الدولة يكلّفونك مؤونتهم ولوازمهم، وهم عبء عليك، فلو وافقتَ على تسليمهم لفرقة الحديدة فإنها ترسل إلى الحدود قوة بموسيقاها تتسلمهم من رجالك باحتفال رسمي، وتعيدهم إلى ثكنات الجيش في الحديدة، ويكون ذلك عربوناً لنجاح هذه الفكرة، فتكتب الجمعية والفرقة العسكرية إلى إستانبول بأن الإمام أطلق سراح الأسرى الذين عنده، وأنه غير محارب للدولة، ولكنه يحارب الظلم، وهو مستعد للتفاهم على طريقة صالحة لحكم اليمن، فكان ذلك وسيلة ناجحة لإزالة جميع الخلافات السابقة.

ووافق الإمام على الاقتراح، وتمّ تسليم الثلاثمئة من الأسرى لفرقة الحديدة، وبقي الإمام في مكانه انتظاراً لما تعمله المراجع العثمانية العليا لتحقيق بقية الخطة، وذهبت المكاتبات من الحديدة ـ ومثلها من ممثلي الجمعية في صنعاء ـ إلى المراجع العليا بذلك، وكان هذا هو السبب الأول الذي جعل الدولة العثمانية ترسل الفريق أحمد عزت باشا إلى اليمن ومعه عزيز المصري حيث وقع الصلح بين الدولة العثمانية والإمام يحيى، وهو الاتفاق الذي عرف باتفاق دعان نسبة إلى القرية الصغيرة التي تحمل هذا الاسم فوق قمة جبل شمال غرب مدينة عمران، وقد تضمن هذا الاتفاق أن ينتخب الإمام يحيى [قضاة] لمذهب الزيدية، وتبلَّغ ولاية صنعاء بذلك، وهذه تخبر الأستانة لتصدِّق على ذلك، ويخلّي الإمام سبيلَ من عنده من الرهائن من أهالي صنعاء وما جاورها وحراز وعمران.

مكاتبة الإمام وجوابه

ولما أزمع محب الدين قطع علاقته بالحديدة للعودة إلى دمشق، كتب

إلى الإمام بجمع كتاباً يودّعه به، ويذكر له شيئاً من أعمال جمعيتي: النهضة العربية، والشورى العثمانية، التي حولت عنوانها إلى الاتحاد والترقي للمصلحة التي اقتضتها، ولما وصل الكتاب إلى الإمام يحيى ـ وكان يعلم أنّ هذه الحركات في الحديدة واليمن هي بسعي صاحب الترجمة وتوجيهه ونشاطه ـ أجاب عليه بكتاب كريم تاريخه ذي القعدة سنة (١٣٢٦) (٣٠) تشرين الثاني ـ نوفمبر (١٩٠٨) لم يصدر عنه مثله لأحد آخر بخطه، وفيه من الثناء على صاحب الترجمة جملٌ بليغةٌ، وهذا الكتاب من محفوظات صاحب الترجمة إلى الآن.

* * *

عودة إلى دمشق

وفي (٢١) المحرم سنة (١٣٢٧) (١١) تشرين الثاني ـ نوفمبر (١٩٠٨) زايل محب الدين ميناء الحديدة متوجهاً إلى الإسكندرية، ومنها إلى دمشق، وكانت النية أن يعمل على تجديد نشاط جمعية النهضة العربية، وأن يصدر في دمشق ـ إما باسم الجمعية أو باسمه الخاص ـ صحيفة باسم «النهضة العربية» وأن يكونَ ذلك في داخل نطاق الدستور العثماني وقوانينه، وعلى أن يتمتعَ العرب بالنظام الدستوري، وفي الوقت نفسه يتعرّفون إلى عروبتهم، ويحيون مآثرها ويتخلّقون بأخلاق السيادة والحكم في ظل الرابطة العثمانية، متبعين سنن سلفهم الأول، وعاملين بالأنظمة التي توصل البشر إلى حسناتها في العصور الأخيرة.

بين العرب والأتراك

ويقول صاحب الترجمة: إني أقرِّرُ بكل صدق بأني أنا وجميع من استعنت بهم، وتعاونت معهم من رجالات العرب وشبابهم، لم يخطر على بالنا الانفصالَ عن الدولة العثمانية، لا لأنّ الاستقلال عن دولة ضعيفة مريضة أمرٌ مكروهٌ، ولكنْ لعلمنا أنّ تمرُّنَ الشعوب على أخلاق السيادة يحتاج إلى وقت، فكان من مصلحة العرب في الدولة العثمانية أن تعترفَ لهم الدولةُ بلغتِهم في الإدارة والتعليم في البلاد التي يتكلم أهلها العربية، وأن لا تبلغ منها الحماقة إلى حد أن يكون التعليم في بلادهم بلغة أجنبية عنهم، وإلى حد أن تكون لغتها محرّماً عليها أن تكون لغة الإدارة والقضاء في صميم الوطن العربي، ومن العجيب أن تنكرَ الدولةُ العثمانية على عرب الحجاز والعراق وسورية ما اعترف به الإنكليز لمصر والسودان من حقهما في أنْ تكونَ لغتهما العربية لغةَ التعليم والتقاضي والتعامل في مرافق الحكومة ومصالحها الرسمية.

جمعية النهضة السورية

وصل صاحب الترجمة إلى الشام، فرأى أنّ الدولة تأبى أن تعترف بعنوان جمعية النهضة العربية، لأن كلمة العربية غير مرغوب فيها من رجال الاتحاد والترقي، وأجبروا الجمعية على أن تجعل اسمها: جمعية النهضة السورية.

سياسة التتريك

تطورت الأمور في ظل حكم الاتحاد والترقي تطوراً سيئاً، لا في البلاد العربية وحسب، بل في البلاد التركية نفسها، وفي إستانبول ذاتها، وصارَ لتعصُّب الاتحاد والترقي للتركية وللنعرة الطورانية ردَّ الفعلِ بانتعاش الرجعية في إستانبول والولايات التركية، فضلاً عن البلاد العربية، حتى أن السلطان عبد الحميد طمع أن يعيدَ الحكم الفردي ومبادىء الاستبداد جذعةً كما كانت، ورفع الجهلة وعلماء السوء والغافلون رؤوسَهم في دمشق وسورية، وفسدت القلوب فيما بين الحكام والمحكومين، فتغيّرتِ الصورة التي كانت في ذهن صاحب الترجمة للوطن وأساليب النهوض به، ووقفتُ أسير الحال أترقب ما سيصير إليه الموقف.

جريدة «طار الخرج»

وفي مساء يوم الخميس كان محب الدين في زيارة لدار جريدة «المقتبس» اليومية التي كان يصدرها في دمشق الأستاذ محمد كرد علي، وكان عدد صباح اليوم التالي من الجريدة لم يتم إعداده، ومحمد كرد علي متأهّبٌ للذهاب إلى أرضه الزراعية في قرية جسرين في الغوطة، فلما زاره صاحب الترجمة طلب منه أن يشرف على مواد الجريدة التي أعدت، وأن يكمل إعداد ما ينقص منها لتطبع في مساء اليوم، ويصدر العدد، ويوزع في صباح الغد، وبذلك يتمكن الأستاذ كرد علي من التوجه إلى القرية

مطمئناً، فأجابه صاحب الترجمة إلى ذلك، وقام بما طلب منه.

ولما انتهى من ذلك، وأعدّت صفحات الجريدة كاملةً حضر عمال الجريدة ومطابعها إلى صاحب الترجمة، وأطلعوه على رَوْسَمٍ (إكليشة) لجريدة فكاهية يريدون إصدار عدد منها ليباع في السوق، وينتفعوا بإيراده، وهم يريدون أن يكتب هذا العدد باللغة العامية، أو بها وبالفصحى معاً، وأن يكون عدداً نقدياً ليروجَ بسرعة.

وكانت الصحافة في تلك الأشهر عقب إعلان الدستور فوضى، والرأي العام في بلبلة واضطراب، بسبب سياسة الاتحاد والترقي، وعدم الاستقرار في إدارة الحكومة.

ووقفَ صاحبُ الترجمةِ وهو في إدارة الجريدة على أخبار كثيرة مثيرة منها: هجوم الدروز على جيرانهم من أهل حوران في بصرى، وسفك الدماء من الجانبين، ومنها أنّ الوالي ناظم باشا لبى دعوة أحد الأعيان إلى ليلة ممتعة يقضيها في قرية لصاحب الدعوة.

ثم حضر إلى إدارة الجريدة أحد الأمراء الشهابيين من الأصدقاء القدماء لصاحب الترجمة، وهو موظف في إدارة المعارف يحمل أخباراً تستحق النقد عن مدير المعارف حسين عوني بك، الذي كان له يد في اضطهاد صاحب الترجمة حين كان في السنة السادسة من مدرسته الثانوية في دمشق، وكان ذلك سبب انتقال صاحب الترجمة من مدرسة دمشق إلى مدرسة بيروت كما تقدم[١]، إلى غير ذلك من المساوىء التي يعرف الناسُ بعضَها، ويجهلون بعضها الآخر، فلبّى صاحبُ الترجمة طلب عمال المكتب، وكتب لهم ذلك العدد الفكاهي الانتقادي.

وكان اسم الجريدة الذي اختاره العمال وعملوا له الروسم (الإكليشة) هو «طار الخرج»: أي أنّ الزمان الذي كان الناس إذا أمسوا بسوء من وقائع

(١) [ص: ٩٨ ـ ٩٩].

السوء يقولون قسرية عن أنفسهم: حط بالخرج، كما يُقال في مصر «ماعليهش»: كأنه قد زال ولا مؤاخذة.

وكان صاحب الترجمة يكتب لهم مواد هذا العدد من جريدتهم «طار الخرج» قطعة بعد قطعة، وهم يجمعون حروف ما يكتب بسرعة وانتهى تحرير العدد الأول، وجمعت حروف مواده في نحو ساعتين، ثم غادرهم صاحب الترجمة، وانصرف إلى شؤونه الأخرى.

وأخذوا هم في طبع العدد، وفي الصباح أنزلوا نسخ جريدتهم الفكاهية إلى السوق، فبيعت النسخة الواحدة منها أولاً بالثمن المعتاد، ثم ارتفع ثمنها حتى بلغ ثمن العدد الواحد عشرات أضعاف قيمته الأولى، وانتبهت السلطات الحكومية لذلك، فأخذت في البحث عن الجريدة وكاتبها وطابعها، وكلُّ ذلك مجهول لأنّه غيرُ مذكور في الجريدة المطبوعة.

عودة إلى معهد الحقوق في إستانبول

ولم يلبث أن حضر إلى محب الدين إخوانُه المتّصلون بدوائر الحكومة، وطلبوا منه السفر بسرعة، لأنّ الحكومة توشكُ أن تعرفَ الحقيقة، فسافر إلى بيروت، وفي بيروت لاحقه الطلب بالكتابة من حكومة دمشق، فأرسلت الجمعية من دمشق إلى أحد أعضائها وهو السيد أحمد إياس من كبار تجار بيروت برقيةً بتوقيع جميل مردم، لأنّه أصغر الأعضاء سناً، والقانون يخفض مؤاخذته لصغره ـ بأن يسافر محب الدين حالاً إلى الحديدة أو إستانبول، ولم يكن من الميسور السفر إلى الحديدة بعد الاستقالة من العمل فيها، وقطع كل علاقة بها، لذلك سافر إلى إستانبول، وجدّد قيده في الحقوق ـ في السنة الثالثة ـ على أمل أن يكمل دراسته.

وفي إستانبول سكن في منزل لطيف جداً في قرية (بيقوز) على البسفور

هو وعوني بك عبد الهادي، والدكتور أحمد بك قدري، والشهيدين سيف الدين الخطيب، وجلال البخاري.

وصار ينزل كل يوم إلى إستانبول في باخرة خفيفة من بواخر البوسفور، ثم يعود إلى (بيكوز) في اليوم نفسه.

ثورة الجيش في إستانبول

وفي هذه المدة ـ أي: في أوائل شهر نيسان ـ إبريل سنة (١٩٠٩) استفحل أمر الفتنة الرجعية، التي كان يدبّرها السلطان عبد الحميد وأعوانه في إستانبول، وصارَ لها أنصار أقوياء في الجيش وفي الشعب، ولا سيما بين طلاب العلم الديني، إلى أن اندلعت ألسنةُ نيرانها يوم (١٣) نيسان ـ إبريل الموافق (٣١) آذار بالتقويم الرومي الشرقي، المعمول به يومئذ في الدولة العثمانية.

وبسبب ذلك جمع رجال الاتحاد والترقي قواهم في الولايات العثمانية بأوربة تحت زعامة محمود شوكت باشا البغدادي، فكونت جيشاً أطلقوا عليه عنوان جيش الحركة، وكان على رأس أول كتيبة فيه عزيز علي المصري، وزحف هذا الجيش الى إستانبول، وفي حي (بشكطاش) بإستانبول وقعت بين القوة العسكرية المناصرة للسلطان عبد الحميد والمعتصمة في ثكنة سليمية وبين قوة جيش الحركة معركة بالمدافع ورصاص البندقيات، وما زالت قوة جيش الحركة تطلق قذائف مدافعها على ثكنة سليمية ومن فيها من الحميديين، حتى هدمتها على رؤوسهم.

وقد حضر هذا المشهد من بعيد صاحبُ الترجمة ومعه صلاح الدين العظم، وكانا يعتذران إلى إخوانهم بأنّه لا يليق أن يسير التاريخ على مَقْرُبة منا، ولا نشاهِدُهُ.

* * *

العودة إلى القاهرة

بقي محب الدين في إستانبول في هذه الفترة إلى صيف هذه السنة (١٩٠٩)، وعلمت حكومة [ولاية] سورية أنه موجود في إستانبول، فلاحقته فيها بقضية جريدة «طار الخرج».

ولذلك اقترح عليه إخوانه بأن يسافر إلى مصر، ليعيش فيها عيشة يشعر فيها بالاستقرار.

المكتبة السلفية وجريدة «المؤيد»

وكان وصوله إلى القاهرة في النصف الثاني من أغسطس (١٩٠٩) رجب (١٣٢٧).

وكان قبل ذلك قد باع منزلاً كان يملكه في دمشق، فأسس بثمنه المكتبة السلفية، مستعيناً بعبد الفتاح قتلان، قريب الشيخ مصطفى القباني، الذي تعرّف به قبل سنتين عند مروره بمصر في سنة (١٩٠٧).

وكانت المكتبة السلفية في بداية تأسيسها في مدخل خان الخليلي المقابل لباب المشهد المنسوب إلى سيدنا الحسين.

وفي الأيام الأولى من وصوله إلى مصر اجتمع بأحمد تيمور باشا في زيارةٍ له مع الشيخ طاهر الجزائري.

وكان أحمد تيمور باشا رحمه الله مساهماً في شركة جريدة «المؤيد» التي كان يصدرها شيخ الصحافة المصرية الشيخ علي يوسف، ولما علم تيمور باشا بأنّ محب الدين مُزْمِعٌ الإقامة في القاهرة، والاستقرار فيها

نهائياً، سأله: هل عندك مانع من أن تلتحق بقلم تحرير «المؤيد»؟

فأجاب بأن المكتبة السلفية التي يستعد لافتتاحها سيتولى العمل بها عبد الفتاح قتلان، وأنّ العمل في قلم تحرير «المؤيد» من الصباح إلى الواحدة بعد الظهر لا يمنع الإشراف على المكتبة فيما يبقى من الوقت بعد الظهر، ولذلك يسره أن يعمل في جريدة المؤيد.

وفي اليوم التالي زار تيمور باشا إدارة جريدة «المؤيد» واتفق مع الشيخ علي يوسف على ما اتفق عليه مع صاحب الترجمة.

ومن أول أيلول ـ سبتمبر سنة (١٩٠٩) إلى ما بعد وفاة الشيخ علي يوسف كان محب الدين أحد محرري هذه الجريدة الإسلامية الشهيرة، وفي وقت قصير أصبح موضعَ ثقةِ الشيخ علي يوسف، ولقي منه أجملَ توجيهٍ وأعظمَ تشجيعٍ، وهو أستاذه الأول في الصحافة المصرية.

عدوان الطليان وحرب البلقان

وبعد ذلك وقع هجوم إيطالي على طرابلس الغرب ـ ليبية، ثم نشبت حرب البلقان مع الدولة العثمانية، فبلغ من إخلاص صاحب الترجمة لعمله الصحفي أن استأجر مسكناً له في درب العتبة، المقابل لدار «المؤيد» في شارع محمد علي المسمى الآن بشارع القلعة.

وصار إذا جاءت برقيات مهمّة عن أخبار الحرب الطرابلسية ثم البلقانية، يرسلونها من دار «المؤيد» إلى منزله في درب العتبة، فينظم منها ملحقاً صغيراً تجمَعُ حروفه في المطبعة، ويسلّم إلى الباعة، فينادون عليه في الشوارع والأسواق.

وقد يكون الشيخ علي يوسف في منزله بالمنيرة، وعنده ضيوف من الوزراء والعظماء، فيسمع نداء الباعة على ملحق «المؤيد» فيرسل خادماً يشتري له نسخةً منه، ويطلع على ذلك كأي قارىءٍ من جماهير القرّاء.

وكثيراً ما كان الشيخ علي يوسف في اليوم التالي لظهور الملحق ينادي محب الدين، ويثني على مجهوده وإخلاصه لعمله.

ثم ازدادت الثقة، فصار محب الدين هو الذي يتخير المواد للنشر، وإذا لم يوجد شيءٌ يصلُحُ لتكون منه افتتاحية العدد، يتأخّر في دار «المؤيد» بعد المواعيد المقررة، ويترجم مقالةً تناسِبُ الحال من الصحف التركية كجريدة «إقدام» لأحمد جودت بك، وجريدة «أبي العينين» لتوفيق بك، وغيرهما، ويصدِّر بها عدد «المؤيد».

كتاب «الغارة على العالم الإسلامي»

ولما نشرت «مجلة العالم الإسلامي» الفرنسية الدراسة المستفيضة عن أعمال المبشرين البروتستانت في العالم الإسلامي وما لهم فيه من جمعيات ومدارس ومستشفيات، وما عقدوه من مؤتمرات للكيد للإسلام، اتفق محب الدين مع زميله مساعد اليافي رحمه الله ـ وكان القائم في قلم تحرير «المؤيد» بالترجمة الفرنسية ـ على أن يتعاونا في ترجمة هذه الدراسة الطويلة عن «مجلة العالم الإسلامي» وهي بقلم مسيو لوشاتليه، وأن يعملا ذلك بعد مواعيد العمل الرسمية، لئلا ينقص عن قلم تحرير «المؤيد» شيءٌ مما يقومان به يومياً.

ولما بدأ بنشر هذه الدراسة في فصول متتابعة، قامت لذلك ضجة عظيمة، ونقلت هذه الفصول عن «المؤيد» إلى مجلة «المنار» في القاهرة وإلى جريدة «الاتحاد العثماني» اليومية في بيروت، واستيقظ المسلمون إلى ما يراد بهم وبدينهم من الكيد.

وكان مسيو لوشاتليه والقائمون على «مجلة العالم الإسلامي» يحسبون أنّ المسلمين في غفلة، وأنهم لن يهتموا بهذا الموضوع، وإنما الغرض من

كتابته ونشره بالفرنسية اتهامُ جمعيات التبشير الكاثوليكية بأنّها مقصرة، وأن البروتستانت سبقوها في الغارة على العالم الإسلامي وفتحه، فجاء الأمر بالعكس، وحصلت اليقظة لعدد كبير من المسلمين، الذين أدركوا بعض ما يراد بهم.

وقد جرت مناقشة على صفحات «المؤيد» بين ناشري هذه الدراسة ومنهم مسيو ماسينون، الذي كان في ذلك الحين بالقاهرة، فكان محبُّ الدين هو الذي يتولى المدافعة والرد عليهم.

وقد شعر محب الدين بعد ذلك بسنين كثيرة عندما كان يصدر مجلة «الفتح» بأنّ المسلمين نسوا هذا الموضوع، وأنّ الحاجة ماسةٌ إلى تذكيرهم به، فنشره في مجلة الفتح، ثم طبعه في كتاب مستقل.

الحركة الطورانية والحركة العربية

وفي خلال اشتغال محب الدين في قلم تحرير «المؤيد» ازداد غلو الاتحاد والترقي في الدعوة إلى الجامعة الطورانية، وإلى العصبية التركية، فكان مجال العمل لصاحب الترجمة في جريدة «المؤيد» واسعاً لهذا الموضوع، وكان للمؤيد تأثير كبير في تشجيع الحركة العربية في سورية والعراق وسائر البلاد العربية العثمانية.

حزب اللامركزية، والجمعية العربية الفتاة

وتأسس في القاهرة في سنة (١٩١٣) م حزب اللامركزية الإدارية العثماني برئاسة رفيق بك العظم، وكان من كبار رجاله السيد رشيد رضا وإسكندر بك عمون، وحقي بك العظم، وداود بركات رئيس تحرير «الأهرام».

وكان محب الدين عضو مجلس إدارة لهذا الحزب، وكاتم سره الثاني.

وتأسست في بيروت، ثم في باريس الجمعية العربية الفتاة التي كان لها شأنٌ عظيم في الحركة العربية، وقدمت لمشانق جمال باشا عدداً من شهدائها.

وكان محبُّ الدين يمثل هذه الجمعية في مصر، وينفذ قراراتها التي لها علاقة بحزب اللامركزية.

المؤتمر العربي الأول في باريس

ومن ذلك تعاون هذه الجمعية مع حزب اللامركزية على عقد المؤتمر العربي الأول في باريس في شهر تموز ـ يوليو سنة (١٩١٣) وكان محبُّ الدين واسطة العقد بينهما في موافقة حزب اللامركزية على الاشتراك في هذا المؤتمر، والعمل على إنجاحه، وندب السيد عبد الحميد الزهراوي برئاسته إسكندر بك عمون لوكالة الرئاسة.

كان للمؤتمر تأثيرٌ عظيم في الكيان العربي، وتردد صداه في أنحاء البلاد، وقد تولى محب الدين جمع أعمال هذا المؤتمر في كتاب نشره في القاهرة سنة ١٩١٣[١].

المعلم في مدرسة دار الدعوة والإرشاد

وفي سنة (١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣ م) أسس السيد رشيد رضا مدرسة دار الدعوة والإرشاد في قصر شريف باشا، على يمين الداخل إلى جزيرة

(١) [أعادت وزارة الثقافة السورية طبع هذا الكتاب تصويراً عام ١٩٩٦ وذلك بإشراف الأستاذ محمد كامل الخطيب].

الروضة من كوبري الملك الصالح، وتخيّر لها الأساتذة، وممن وقع اختيارُه عليهم للتدريس فيها صاحب الترجمة، وقد أناط به تدريس علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) فبدأ تدريسه بخطة جديدة، تلفت أنظارَ طلبة هذه المدرسة الدينية الإسلامية إلى سرائر الله في الكون وتكوينه.

وكان من طلاب هذه المدرسة: الحاج أمين الحسيني، والشيخ يوسف ياسين، ومحمد الشريقي، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، مدير دار الحديث بمكة، والشيخ أبو السمح مؤسس دار الحديث المذكورة، وأخوه الشيخ عبد المهيمن، وغير هؤلاء الفضلاء.

الحرب العالمية الأولى

وعقب هذه الأحداث المتسلسلة أُعلنت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وانحازت فيها الدولة العثمانية إلى جانب الألمان، وكان ذلك مخاطرةً دلت على مقامرةٍ غيرِ حميدة، لما يترتب عليها من نتائج السقوط والبوار فيما لو كان الخذلان في النهاية في الجانب الذي اختار الترك أن يكونوا فيه، فتكون العاقبة وبالاً على البلاد العربية خاصةً، والعثمانية عامة، وعلى أهلهما.

وكان من مقتضى الحكمة أن يتمسك الشرقُ الإسلامي الضعيفُ بالحياد، لئلا ينسحقَ بين شقي رحى الفريقين المتصارعين.

ورأى رجالات القومية العربية في العربية الفتاة وحزب اللامركزية وجماعة الوحدة العربية وغيرهم أن من الضروري التفكير في مستقبل البلاد العربية بعد هذه المحنة، وما ينبغي للعرب أن يعملوه للتخفيف من ضررها.

وكان بداية السعي لذلك من جانب العربية الفتاة، فأرسلت مندوباً إلى

مصر، وهو الشهيد محمد المحمصاني، فنزل ضيفاً على صاحب الترجمة في منزله.

وأخذ يجتمع في مصر بمن فيها من رجالات العرب منفردين ومجتمعين، وكانت الآراء متفقة ومتلاقية على أنّ مصلحة العالم الإسلامي والأقطار العربية في ملحمة الحرب العالمية الأولى هي في الوقوف على الحياد، وترك الفريقين المتنازعين على استعمار الأرض، واستعباد الأمم، يحطم بعضهم بعضاً، وفي مقابلِ هذا الموقف السلبي للعرب كان من المتعذر اتخاذ أي قرار إيجابي فيما ينبغي أن يعملوه، بل فيما تسمح لهم ظروفهم وإمكانياتهم أن يعملوه.

مهمة قومية في الخليج العربي

ولما كانت الأقطار العربية التي لها صلة بالدولة العثمانية ينبغي أن يؤخذ رأيها في ذلك الموقف العربي، فقد تقرّر إيفاد مندوبين إلى زعماء العرب لمفاوضتهم في هذا الأمر، وأخذ رأيهم.

وقد اختير محب الدين للسفر إلى الخليج العربي في محاولة الاجتماع بأمير نجد والإحساء الأمير عبد العزيز آل سعود وبالسيد طالب بك النقيب زعيم العراق الجنوبي، وغيرِهما من الزعماء العرب إن أمكن.

وكان في مقدمة المهتمين بهذا الأمر جماعة الوحدة العربية، التي كان من أركانها السيد رشيد رضا ورفيق بك العظم.

وفي أواخر ذي القعدة (١٣٣٢) تشرين الأول ـ أكتوبر (١٩١٤) سافر محب الدين مصحوباً بزميل نجدي من طلبة دار الدعوة والإرشاد، وهو عبد العزيز العتيقي، من بلد المجمعة في نجد، فركبا من السويس باخرةً إلى عدن، ليأخذا منها باخرة أخرى إلى بومباي بالهند، ثم يقصدان من بومباي إلى الخليج العربي، وكان أيسر طرق المواصلات في ذلك الحين.

دخول الدول العثمانية الحرب

ولما وصلا إلى عدن كان ذلك في عيد الأضحى لسنة (١٣٣٢)، وفيه علما بإعلان الدولة العثمانية دخولها الحرب إلى جانب الألمان، ثم واصلا السفر من عدن إلى بومباي.

وفي بومباي ضربت عليهما السلطات الإنكليزية في الهند رقابةً دقيقةً إلى أن أبحرا إلى الخليج العربي على باخرة تمرُّ على موانئه: من مسقط إلى الكويت.

الاعتقال في البصرة

وكانت النية معقودة على النزول في الكويت، والسفر منها براً إلى الجهة التي يكون فيها الأمير عبد العزيز آل سعود.

ولكن قبل أن يُسمَحَ للركاب بالنزول إلى الكويت، صعد سلم الباخرة ضابطٌ بريطاني قادم من بندر بوشهر على الساحل الإيراني، ومعه ثمانية هنود، وكان وقتئذ السير (برسي كوكس) الذي صار فيما بعد حاكماً على العراق.

ولما دخل الضابط الذي صعد الباخرة اجتمع بالقبطان، وسأله عمن في باخرته من القادمين من مصر، فأشار له القبطان إلى صاحب الترجمة وصاحبه عبد العزيز العتيقي، فدنا الضابط منهما، وطلب إليهما أن يفتِّشَ حقائبهما وثيابهما، وفي نتيجة التفتيش أخذ كل ما معهما من أوراق مهما كانت.

ثم قال: أنتما محبوسان، وأمر جنودَه بأن ينزلوهما من الباخرة إلى سنبوك كان معداً من قبل لنقلهما إلى الفاو من مدخل البصرة على شط العرب.

وقد ظهر لصاحب الترجمة من قرائن الحال أنّ الإنكليز من اليوم الذي

أعلنت فيه تركية دخولها الحرب إلى جانب الألمان كانوا مستعدين لإرسال حملة بحرية من الهند إلى العراق للاستيلاء عليها، وأن الضابط الذي جاء من عند السير (برسي كوكس) في بندر بوشهر، ـ وصحب معه صاحب الترجمة وزميله النجدي من الباخرة ـ كان يعلم أنّ قيادة هذه الحملة نازلة في الفاو استعداداً لدخول البصرة.

فلما وصل إلى الفاو علم بأن القيادة انتقلت منها إلى البصرة، فأمر السنبوك بأن يواصل السير في شط العرب إلى البصرة، واتفق أن كان ذلك في وقت المساء.

وكان ما وراء شط نهر العرب المكون من اجتماع مياه دجلة والفرات مزداناً بعرائس النخيل، على مدى البصر من الناحيتين، كأنّه قطعة من الفردوس.

وفي قيادات البصرة وثكناتها أخذ الضابط البريطاني يبحث عمن يتسلم منه قنيصتيه، لتنتهي مهمته التي قدم لأجلها من بندر بوشهر، فلم يجد أحداً يعلم عن هذه المسألة شيئاً.

وأخيراً رضي الضابط البريطاني المشرف على الثكنة العسكرية الكبرى في البصرة أن يتسلَّمَ هذين الشابين القادمين من مصر، ووعدَهُ الضابط الذي كان في صحبتهما بأنّه فورَ وصوله إلى بندر بوشهر سيبلغ السير (برسي كوكس) ما حصل، ويطلب منه أن يكتب إلى قيادة البصرة بما ينبغي عمله بشأن هذين الشابين اللذين أمر قائد الثكنة بأن يبيتا في غرفة منها عينها لهما، فباتا على البلاط بلا غطاء ولا وطاء، وكانت ليلة ليلاء، اللهُ أعلمُ بحالها.

وفي الصباح قيل لهما: إنهما سينقلان إلى منزل للمعتقلين في حي العشار، ولم يكن من المنتظر أن يكون في معتقل العشار فراش أو غطاء للنوم، فتذكر عبد العزيز العتيقي أن لوالده صديقاً من أعيانها من أصل نجدي هو أحمد باشا الصانع، فعرض على الأشخاص الذين ندبوا لإيصال

القنيصتين إلى المعتقل أن يعرجوا بهما إلى منزل أحمد باشا الصانع لاستعارة فراشين ولحافين ووسادتين من صاحب المنزل.

وقد تم ذلك بسهولة، لأنّ صاحبَ المنزل عرف العتيقي ابن صديقه، ولم يستطع أن ينفعه بأكثر من إجابة هذا الطلب.

وحملت هذه الفُرش، وجيء بها مع من استعيرت لهما إلى منزل الاعتقال، وعند الوصول إليه تبيّنَ أنّه شرٌّ من الثكنة العسكرية التي كانا فيها، وهو مبني على مكان كان مزبلة، ولم يتم بناؤه، ولم يدخلوا إليه الماء، وليس فيه مرحاض، ولأنه مبني على مزبلة كانت البراغيث فيه بالمئات، فباتا الليلة الأولى والبراغيثُ ترعى جسديهما.

ولما جاء وقتُ الغداء جاءهما السجان برغيف لكل واحد وعشر تمرات عجوة، فأبيا أن يحسب هذا عليهما طعاماً، واستأجرا من يبحثُ لهما عن أقرب مطعم، فاتفقا مع مندوب المطعم على أن يأتيهما بطبق خضار وطبق أرز في وجبة، وقرص خبز وما يمكن أن يوجد من فاكهة في موسمها.

وصار محبُّ الدين ينفِقُ مما ادخره لهذه الرحلة، واستمرَّ الحال على ذلك، سبعة أشهر في المعتقل، يضاف إليهما شهران انقضيا في السفر ذهاباً وإياباً، وجملة ذلك تسعة أشهر.

مطالعة السجين

ومما هوّن مصاعب هذه المحنة أنّ صاحب الترجمة استطاع أن ينالَ عطف شرطي عراقي من مراقبي المعتقل اسمه عبد الحفيظ، صار يأتيهما بتاريخ «الكامل» لابن الأثير، جزءاً بعد جزء، يستعيره لهما من صديق أديب عراقي، فيقرأان الجزء وما في هامشه من كتاب «مروج الذهب» للمسعودي، فإذا انتهى الجزء، أعاده الشرطي لصاحبه، وجاءهما بالجزء

الذي بعده، إلى أن انتهيا من قراءة الكتابين.

ثم صار يأتيهما ببعض كتب جرجي زيدان التاريخية، فكانت هذه الكتب مع المآخذ عليها سلوة الهموم والأحزان في هذه الشهور التي كانت مع براغيث الليل تمر بطيئةً كالسنين.

المراسلات

وكان المهم أيضاً إيصالَ خبر الاعتقال إلى مصر، ليبحث عن سببه، وعن السعي للخلاص منه، فكانت المراسلات التي تودَعُ في البريد، وفيها شيء عن ذلك، ووصف ما هما فيه تحجز في الرقابة ولا ترسل.

وأخيراً اعتقل معهم رجل عامي له عمل في الكويت، ثم أفرج عنه، وكان على أهبة العودة إلى عمله في الكويت، فأرسل محب الدين معه رسالة إلى السيد سليمان العدساني، جدّ السيد سليمان العدساني سفير الكويت في مصر.

وكان العدساني الجد صديقاً لمحب الدين وللسيد رشيد رضا، وفي داخل رسالته رسالة أخرى ليرسلها من الكويت، ولم يكن فيها تصريح بذكر الاعتقال، لئلا تحجز في بريد مصر الذي كان يسيطر عليه الإنكليز، بل استعمل كناياتٍ يفهم منها المرسل إليهم مالا يفهمه المراقب الإنكليزي وصنائعه، ووصلت الرسالة إلى مصر، فبذلت المساعي إلى أن ورد الإذن للسير (برسي كوكس) وقد صار وقتئذٍ حاكماً على العراق بأن يُطْلِقَ سراحَ هذين المعتقلين.

احتلال ووعد بالجلاء

ولما عزم على إطلاق سراحهما استدعى محب الدين إلى مكتبه، فأبلغه خبر الإفراج.

والظاهر أنّ (برسي كوكس) كان يعلم المهمة التي كان سفر صاحب

الترجمة لأجلها، فقال له عندما ودعه: إنّ العرب سينالون استقلالهم، وإنّ الإنكليز سيجلون عن العراق في الوقت المناسب، ولكنهم يحتفظون بالبصرة لأجل الهند.

والآن عندما يتذكر صاحب الترجمة هذه الكلمات يتذكر معها قولَ الشاعر العربي الحكيم[١]:

تقفـونُ والفَلَـكُ المسخَّـرُ دائـرٌ وتقـدِّرُونَ فتضحَـكِ الأقـدارُ

فإنّ الله قدّر أن يخرجَ الإنكليز من الهند التي كانوا يريدون أن يحتفظوا لأجلها بالبصرة، وسيخرجون إن شاء الله من كل بقعة لم تكن لجنسهم في الماضي القديم، وسيعودون إلى جزائرهم يعيشون فيها بالتجارة والصناعة، لا بامتصاص دماء الناس، وإنكار حق الحرية عليهم في الحياة.

وإنّ لحادثِ اعتقالِ صاحبِ الترجمة أخبارٌ دوّنت في بعض كتب العراقيين التاريخية، ومنها مذكرات السياسي العراقي السيد سليمان فيضي المحامي، الذي كان اليدَ اليمنى للسيد طالب النقيب الزعيم العراقي المشهور، وعنوان هذه المذكرات «غمرة النضال» فقد جاء في فصل منها عنوانه «البصرة في عهد الاحتلال الإنكليزي» ص (٢٠٢ ـ ٢٠٣) ما نصه: عدتُ يوماً إلى داري، فوجدت بطاقة (أي بطاقة بريد) باسم الأستاذ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» المصرية، وكتب على ظهرها ما يأتي: «إن محب الدين الخطيب وعبد العزيز العتيقي قد توجها إلى البصرة بمهمة سياسية، فأرجو أن تروج مهمتهما». أسرعت إلى محل إقامتهما، فعلمت أنّ الشرطة قد أوقفتهما.

فذهبت إلى الموقف، وعبثاً حاولت مكالمتهما هناك، وبعد أيامٍ

---

(١) [المعري].

علمت أنّ الإنكليز أعادوهما إلى مصر مخفورين، ووجدت بعد ذلك بعض الحوادث التي كشفت عن غطرسة الإنكليز .

غرض الرحلة والعودة

كان الغرض من هذه الرحلة توحيد الجهود مع الإمام عبد العزيز آل سعود في الشؤون العربية العامة المشتركة، ومفاوضته فيما كان ينبغي للعرب أن يقدموا عليه لوقاية بلادهم من شرور الحرب العالمية الأولى ونتائجها، ولكنْ لم يتمكن صاحب الترجمة من إتمام مهمته ورحلته في سبيل العروبة والإسلام.

وعاد محب الدين إلى مصر، وكانت الحرب العالمية في شدتها، واضطهاد الترك للعرب في ذروته.

وفي مصر علم أن العربية الفتاة بعد عودة مندوبها الأول الشهيد محمد المحمصاني إلى بيروت، رأت أنّ الحاجة لا تزال ماسة للتفاهم على بعض الأمور، والتعاون على تلطيف الموقف، فأرسلتْ مندوبها الثاني الشيخ محمد كامل القصاب إلى مصر، فلبث في مصر مدة وعاد إلى سورية، ومنها واصل نشاطه ونشاط العربية الفتاة بالسفر إلى مكة، وكان فيها ضيفاً على الشريف حسين.

وكان لرحلته هذه تأثير في قيام ثورة الحجاز، وإعلان الحكم العربي فيها، وكان الشيخ كامل القصاب ركناً من أركان العمل في السنة الأولى من ثورة الحجاز كما سيأتي.

* * *

الثورة العربية الكبرى

وثورة الحجاز أعلنت في يوم (٩) شعبان سنة (١٣٣٤) (١٢) حزيران (١٩١٦)، وكانت بين الشريف حسين وأركان الاتحاد والترقي من حكام الترك مشادّةً طال أمرُها منذ أُعلنت الحرب، فكان الترك يطلبون منه مساعدتهم بقوات الحجاز وقبائلها على إنجاح سياستهم المخالفة للمصلحة العربية العامة، وكان يواعدهم ويمنيهم، وهو يعلم أنهم يضمرون له السوء، ويريدون حتى إبطالَ شرافة مكة، أو على الأقل تقييده في كل شيء.

وهذه المشادّة بين الشريف حسين والاتحاد والترقي كان فيها للشريف فيصل بن الحسين وأخيه عبد الله أدوارٌ مختلفة، ورأى الشريف فيصل أن يستعينَ بشباب من غير الحجازيين، فأفضىٰ به ذلك إلى الدخول في الجمعية العربية الفتاة على أيدي أبناء البكري الدمشقيين: نسيب، وفوزي، وغيرهما.

ولما انتهت الصداقات الأولى، وقررَ الشريف حسين إعلان ثورته على الترك، لإسقاطهم شرافةَ مكة، أو على الأقل لقرارهم الإبدال بالشريف حسين الشريف حيدر.

الوكالة العربية للشريف في مصر

شعر الشريف حسين بحاجته إلى الاستعانة لتوطيد حكومته المنتظرة برجال يؤمنون بحق العرب في الحياة والاستقلال، فأرسل إلى مصرَ يطلب رجالاً من مختلف الأصناف عسكريين وإداريين، وكان يمثّله في القاهرة

ضابط عراقي من الموصل اسمه شريف الفاروقي، وهو الذي كان يتصل باسمه بالحكومة المصرية وبجيش الاحتلال لاختيار الرجال وإعداد اللوازم.

وكانت الدار التي اختارها شريف الفاروقي للعمل باسم الوكالة العربية في عمارةٍ واقعةٍ بأول شارع المدابغ، شارع شريف [باشا] الآن، مجاورة لدار «الأهرام» وهي على الجانب الأيمن من الشارع، وبعدها بخطوات البنك الأهلي، وكان أنصار القومية العربية يترددون عليها يومياً، وفي طليعتهم عزيز المصري، وكان يلذ له سماع فؤاد الخطيب، وهو يترنّم بقصائده البليغة عن القومية العربية، وعزيز المصري هو الذي أشار في تلك الفترة باستدعاء الشاب نوري السعيد من معتقله في الهند، وكان الإنكليز أو الروس أسروه من الجيش العثماني في بعض وقائع الحرب العالمية الأولى بين سنة (١٩١٥ و١٩١٦)، وعزيز المصري يعرف نوري السعيد لما كان طالباً في الكلية الحربية في إستانبول، وأدخله في جمعية العهد، ولم يكن نوري السعيد قد فسدت طويته في ذلك الحين، بل كان لا يزال على المبادىء الأولى التي تعمل جمعية العهد لأجل تحقيقها، وكان ينظر إلى عزيز المصري نظرته إلى القدوة الأكبر، الذي يجب اتباعه في كل خطواته وتصرفاته.

ولما أخذ الشريف حسين يطلب من الوكالة العربية ومن شريف الفاروقي الأعوان له من شباب العرب ورجالاتهم، كان شريف الفاروقي يرسلهم دون سابق علمٍ للشريف حسين بأسمائهم أو معرفة شخصياتهم، فالاختيار يقع عليهم من القاهرة إلا محب الدين، فقد طلبه الشريف حسين بتعيين الاسم، والظاهر أن الذي زكّاه له هو الشيخ كامل القصاب ممثل العربية الفتاة، الذي وصل إلى الحجاز قبل الثورة، وكان طلبه ببرقية له صدرت في رمضان سنة (١٣٣٤) تموز ـ يوليه (١٩١٥) أي في الأسابيع الأولى من قيام الثورة، ونصُّ البرقية بطلبِ صاحبِ الترجمةِ كان محفوظاً

في أوراق شريف الفاروقي، التي جمعها ابن عم له، وطبعها في بغداد بعنوان «مقدّرات العراق» في ثلاث أجزاء بعد موت شريف الفاروقي، وهي في أوائل الجزء الأول منه.

محب الدين في الحجاز

سافر محب الدين الخطيب إلى الحجاز في اليوم الثالث من عيد الفطر سنة (١٣٣٤) على الباخرة التي كان فيها نوري السعيد وجماعة غير قليلة من الضباط والجنود العراقيين، ولذلك تاريخ طويل اطّلعَ قراءُ العربية على نموذجٍ منه في مقال لصاحب الترجمة نشره في مجلته «الزهراء» السنة الأولى الجزء الثالث ص (١٩٩ ـ ٢٠٠) بعنوان «الحسين بن علي» كما رأيته في ثلاث سنوات، كيف اعتقل، ولماذا فشل؟ من مشاهداتي في الحجاز والحجازيين شوال (١٣٣٤) شعبان (١٣٣٧) والجزء الذي نشرتُ فيه هذه المقالة من مجلة الزهراء صدر في ربيع الأول سنة (١٣٤٤) بمناسبة سقوط الدولة الهاشمية في الحجاز، واستيلاء الملك عبد العزيز آل سعود على الحرمين الشريفين.

كان العمل الظاهر لمحب الدين الخطيب في الحجاز في تلك الحقبة تأسيس المطبعة الأميرية لحكومة الحجاز يومئذ، وإصدار جريدتها الرسمية «القبلة»[١] إلا أنّ الملك حسين في أكثر أموره التي كانت تتعلّق بالخارج كان يستشير يومياً صاحبَ الترجمة والشيخ محمد كامل القصاب، بصفتهما من رجال جمعية العربية الفتاة، وموضعَ ثقة سائر الجمعيات العربية، غيرَ أنه مع تظاهره بالاستشارة والثقة بمن يستشيره كان سيئَ الظن بجميع الجمعيات، ويتوجّس منها خفية.

(١) انظر كتاب «سيرة من الحرمين» للدكتور إبراهيم عبده (١٩١٨ ـ ١٩٣٥) نشرته مؤسسة سجل العرب بالقاهرة سنة (١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م).

كان الملك حسين يستشير ليسمعَ الرأي، ولكن المشورة إذا تعارض فيها الصالح العام مع هواه الخاص [اتبع هواه]، لأنه كان يتأثّر بهواه الخاص، كما يعلم من مقالة مجلة «الزهراء» المشار إليها آنفاً.

أراد محب الدين والشيخ كامل القصاب للملك حسين وأولادِه كلَّ الخير والكرامة، بشرط أن يكون الخيرُ والكرامة للأمة الكريمة التي يكونون على رأسها. **ولكن الملك حسين وأولاده عاشوا وماتوا بعقلية عصور الإقطاع التي تعتبرُ الأوطانَ مزارعَ للملوك**، وفي «مذكرات الملك عبد الله» استشهاد لصواب ما أعلنه أبوه من الملكية ـ بأنّ محب الدين الخطيب ومحمد كامل القصاب وافقا على ذلك، ولكن شتان بين الملكيةِ النبيلة الكريمة التي أرادها لهم صاحب الترجمة وصديقه الشيخ محمد كامل القصاب رحمه الله، وبين الملكية اللئيمة التي ارتضاها الملك حسين وأولاده لأنفسهم.

ذهب محب الدين إلى الحجاز، وكلُّه آمال أن يجدَ الميدان العملي لتطبيق نظراته، ولتحقيق أمانيه، عندما أسس جمعية النهضة العربية في إستانبول، ثم في دمشق، وقبل ذلك عندما كان يوسّع حلقةَ لداته وأعوانه مدة الدراسة الثانوية، ولما أراد أن يأخذَ معه من بيته في القاهرة إلى الحجاز ما يختاره من الكتب التي ربما احتاج إليها؛ كان كلّما وضع يده على كتاب قد يفيد ـ ولو من بعيد ـ في النهضة التي كان يرجوها من ثورة الحجاز، فإنه كان يضيفه إلى الكتب التي أخذها، حتى لو وجد في مكتبته كتاباً في صناعة الصابون يقول في نفسه: لعلنا نحتاج إليه في الحجاز، إذا أرادت الحكومة حكومتنا العربية الجديدة أن تنهض بصناعاتها.

فلما وصل إلى مكة، ودرس الحالة عن كثب، وفي ظل الأمر الواقع، وأيقن من سوء ظَنّ الشريف حسين بمن يتعاونون معه؛ تقرّرَ عند صاحب الترجمة أنّ الحسين بن علي لم يقمْ لأجلِ أن تكونَ للعرب دولة، بل قام لأنّ الترك كانوا على نية الإبطال لشرافة مكة، فتغدّى بهم قبل أن يتعشوا

به، وإلى هذه النتيجة توصّل صاحب الترجمة، وهي إخفاق آماله وخيبتها.

ومن الأمثلة التاريخية على سوء ظن الملك حسين بالناس، ووقوفه في طريق العمل الجدي الصادق؛ أنّ صاحب الترجمة والشيخ محمد كامل القصاب ما زالا يلحان على الملك حسين بالاستفادة من عزيز المصري ونبوغِهِ العسكري، وسمعته المهيبة عند الترك، بحيث لو حضر إلى الحجاز، وتولّى إدارة القوة العسكرية فيه، فإن رجال الجيش التركي يعتبرون ذلك كأنه جيش جديد أضيف إلى الجيش الذي يقاتلهم في سبيل استقلال الحجاز وبلاد العرب عن حكمهم الممقوت، وبعدَ إلحاحٍ متكرِّرٍ لم يشأ أن يطلبَ عزيزاً المصري مباشرة وصراحة، بل قال: اكتبوا له ليحضر، فكتبت رسالة شبه رسمية إلى الوكالة العربية بأن ترجو عزيزاً على الحضور، وأن تؤمِّنَ له أسباب راحته.

ولما حضر عزيز إلى مكة، استقبله الملك ببرود، وخلا به في جلسة سرية ظلت أكثرَ من ساعة، وفي نهايتها أعلن توجيه لقب أمير إلى عزيز علي المصري، وتعيينهِ وزيراً للحربية، لكنه لم يمكّنه من أي عمل، ولم يجعل في يده أي وسيلة تمكنه من تنفيذ ما يراه.

ولما ضاق صدرُ عزيز المصري من هذه الحال زار الملك زيارة أخرى، وقال له: أنا لم أحضر إلى هنا لأحملَ لقبَ أميرٍ أو وزيرٍ، وإنما حضرتُ لأعمل، وقد طال أمرُ احتلال الترك للمدينة بقيادة فخري باشا، وأنا عظيم الرجاء بأني أستطيع انتزاعها من يده بقوة خفيفة أقودُها بنفسي إذا جهزتموها لي بمقدارٍ من الرشاشات والمدافع الخفيفة الحمل، ثم تكون القوتان ـ النظامية والبدوية ـ الموجودتان في رابغ وينبع، ردءاً لي من ورائي تلبّي طلبي بالتقدم السريع إذا طلبتها، وبذلك نصل إلى أغراضنا بعشر الوقت الذي نصل فيه لو بقينا على ما نحن عليه الآن. فاعتذرَ له الملك حسين بأنّ الإنكليز لا يلبون طلباتنا من الأسلحة والمهمات التي نعينها لهم، ونلح عليهم بطلبها، بل يرسلون لنا غيرَها مما لا ننتفعُ به،

واستشهد بالمدفعين الضخمين القليلي الفائدة، اللذين أرسلوهما على الباخرة التي حضر عليها محب الدين ونوري السعيد، وما احتاج إليه لنقلهما من جدة إلى مكة، ثم إلى رابغ من خيول أسترالية صعبة الخدمة والمؤنة، وبعد ذلك لم يكن لهذين المدفعين من فائدة غير صوت طلقاتهما العالي الذي تكون منه جعجعة بلا طحن.

فقال له عزيز المصري: هل تأذن لي بأن أذهبَ إلى رابغ وأبحثَ عما ينقص فيها من طلباتي، ثم أذهبَ بنفسي إلى مصر، فأطلبَ رسمياً باسم وزارة الحربية الحجازية هذه الطلبات، وأقعد على قلبهم مطالباً بها، ولا أعود إلا وهي معي، ثم أتخيَّرَ من الضباط والجنود من يصلح للحملة الخفيفة التي أريد تشكيلها، وأجربَ حظي في عملٍ سريع أعتقدُ أنه يقتصد لنا تسعةَ أعشار الوقت.

فقال له الملك ببرود: اعمل ما تشاء.

وقام عزيز المصري من عنده متوجهاً مع أول باخرة قامت من جدة إلى رابغ، وفي رابغ انتظر أول باخرة قامت منها إلى السويس، وما كاد يبحر متوجهاً إلى السويس حتى كتب الملك إرادة سنية إلى محمود القيسوني أفندي، اليوزباشي يومئذ في الجيش المصري والمعار للحجاز، بأن وجّه إليه وزارة الحربية، وأمره أن يباشرَ أعماله، وأن يتصل بالقوة النظامية التي في رابغ وينبع، ويبلّغها بأنها أصبحت مرتبطةً به بصفته وزيراً للحربية الحجازية، فعلَ الملك كلَّ هذا، ولم يعلمْ بذلك أحدٌ غيرهُ وغيرُ محمود القيسوني.

وفي يوم من الأيام بينما صاحب الترجمة في عمله في الجريدة، وكانت على أهبة الصدور، إذ اتصل الملك به هاتفياً، وأمره بالحضور، لأن جماعة من السوريين والعراقيين والمصريين الموجودين في مكة مجتمعون عنده، ووصل محب الدين إلى هذا الاجتماع متأخراً، وكان الاجتماع أوشك على الانفضاض، فلما وصل محب الدين قال الملك

لمحمود القيسوني: أَطْلِعْ محبَّ الدين على الرسالة التي معك، ولما اطلع عليها محب الدين، رأى أنها رسالة رسمية من وزير الحربية محمود القيسوني إلى نوري السعيد قائد الفرقة النظامية في الجبهة، يبلغه فيها بأنّ الإدارة السنية الهاشمية صدرت بتوجيه وزارة الحربية إليه، وأنّه يبلِّغُ القوة النظامية بأنها أصبحت مرتبطة به، وأنه مستعد للنظر في شؤونها.

ولما وصلت الرسالة إلى نوري السعيد كتب تحتها: هذا إجراء غير معقول، فإذا كان صحيحاً أرجو من وزير الحربية أن يقبل استقالتي، وأعاد إلى محمود القيسوني الرسالة كما هي، فلما وصلت الرسالة إلى محمود القيسوني حضر بها إلى الملك، وأطلعه على ما كتبه نوري السعيد، وقال له: إنّ هذا الضابط متمرِّدٌ على الإرادة السنية الهاشمية. وصدَّقَ الملك، ودعا كل من في مكة من السوريين والعراقيين والمصريين وأطلعهم على الرسالة، وسألهم ما هو جزاء الضابط الذي يتصرّف هذا التصرف؟ وكان أول من تكلم فؤاد الخطيب الشاعر، وكان وكيلاً لوزارة الخارجية، فقال: إنّ مثل هذا العمل في البلاد الأخرى جزاؤه الإعدام، وسكت الآخرون، وعندئذ وصل صاحب الترجمة، فذكر له الملك أن فؤاد الخطيب قال: إنّ جزاء ذلك الإعدام، وقد أدرك محب الدين أنّ الموقف خطير، وأنّ وراء نوري السعيد كلُّ الضباط العراقيين في القوة النظامية، ومعنى إعدامه أو ـ على الأقل ـ قبولِ استقالته أن ينسحب معه زملاؤه، ويؤدي ذلك إلى الفشل. فأجاب محب الدين: صدق الشيخ فؤاد، فإنّ جزاء ذلك في البلاد الأخرى الإعدام، لأنّ الضابط الذي يفعل ذلك تكون خزانة الدولة قد قامت بأعباء معيشته في سنوات السلم، وتكون الدولة قبل ذلك قد علّمته في مدارسها، وكونته لمثل هذا اليوم، والحالةُ التي نحن فيها لا تنطبِقُ على ذلك، فالضابط الذي كتب هذه الجملة المستنكرة، قضى سنوات السلم السابقة في غير حكومتنا، وتعلّم قبل ذلك في مدارس غير مدارسنا، وفي السنة حضر إلينا، لا للمتعة والاستفادة، بل لينخرط في جبهة القتال

في سبيل حركة كان يتمنّاها منذ دخل في جمعية العهد على يد قائد له مكانته العسكرية وهو عزيز علي، الذي ينتظرون في الجبهة أن يعودَ من مصر ليشترك معهم في قتالٍ يعتقدون أنّه مشرف لهم. وقد يكون الضابط كاتب هذه الجملة متهوِّراً، ولو كنتُ مكانه لم أكن لأتصرّف تصرفه، ولكن إذا فكرنا في الأمر من وجهة نظره، ومن وجهة رابطته بعزيز المصري، ثم لتقديره لعزيز علي المصري لأنه قائد فني من أركان الحرب، فإننا لا نخطىء إذا عذرناه، وحملنا تصرفه على اندفاعه في الرغبة لنجاح المهمة التي هو قائم بها لا لخيانة الجهة التي هو يخدمها، وما يدرينا لعلّ له زملاء لو كان القلم بيدهم لكتبوا مثل ما كتب، وعلى كل حال فالتشبيه الذي ذكره الشيخ فؤاد الخطيب بين هذا الحادث وبين أمثاله في البلاد الأخرى هو تشبيه مع الفارق.

ولما انتهى محب الدين من كلامه قال له الملك: جزاك الله خيراً، والظاهر أن الملك أدرك هو الآخر أنّ مِنْ وراء نوري زملاء له، وقد يكون للتصرف الشديد في المسألة عواقب غير حميدة[1].

---

(١) بعد انتهاء الاجتماع، وعودة صاحب الترجمة إلى عمله في المطبعة، فوجىء بدخول نوري السعيد عليه، وأخذ يقبله شاكراً له هذا الموقف، وسأله محب الدين كيف علم بذلك؟ ومتى حضر إلى مكة من الجبهة، فأجاب بأنه علم بالاجتماع من بعض العراقيين الذين حضروه آنفاً، وأنه قُبِضَ عليه في مكان عمله، وأُرسِلَ تحت الحفظ إلى جدة، ومنها إلى مكة، وقد مضى عليه بمكة يومين تحت الحفظ في دار الحكومة التي كانوا يسمونها الحميدية، ثم أطلق سراحه في هذه الساعة ليعود إلى عمله.

ولما حضر نوري السعيد إلى مصر بعد ذلك لأول مرة بمناسبة اجتماع الدول العربية نشرت جريدة «المقطم» ملخّصاً لخبر الاجتماع، وما دار فيه، واطلع نوري السعيد على ما نشرته «المقطم». وبعد سنوات أخرى ـ ولعله في سنة (١٩٢٨) اشتدت الفاقة والضنك بالشاعر الكبير الشيخ عبد المحسن الكاظمي، فكتب محب الدين إلى نوري السعيد، وكان رئيس الوزارة في العراق كتاباً مسجلاً بالبريد، يذكر حال هذا الشاعر، الذي يعد من مفاخر العراق، ويقترح عليه أن يعيّنَ عضواً في مجلس الأعيان العراقي، فتجاهل نوري السعيد هذا الكتاب، ولم يلب هذا الطلب، ولا اعتذر، ولما سمع =

الواقع أنّ هذا الحادث هو نتيجة خطأ الملك في معاملته لعزيز المصري، وسوء ظنه به، وخوفه من أن القوة التي يريد أن يكون على رأسها قد يستعملها في تكوين سلطة له يزاحم بها سلطة الملك وأولاده، ولو كان يحسِنُ مخاطبة القلوب وقراءة ما فيها لأدرك أنّ عزيزاً المصري كان مخلصاً، وأن مجيئه كان للتعاون على الخير والنجاح.

الجيش العربي في دمشق

وما كادت تنتهي الحرب العالمية الأولى، ودخل الجيش العربي دمشق بقيادة الأمير فيصل، حتى استأذنَ محب الدين الملك بأن يزور دمشق لصلة رحمه، فأذن له على أن يعود في أول فرصة، وأصحبه بكتاب وصاةٍ كتبه بخطه ـ وقلّما كان يكتب مثله، بل يكلف كاتبه أحمد السقاف بالكتابة ـ وفيه الثناء الجم على صاحب الترجمة، وزيادةٌ في إظهار العناية أخبرَ صاحبَ الترجمة بأنه سيأمر بعمل إصلاحات مؤقتة للأماكن التي خربت من خطوط السكة الحديدية الحجازية، ليكون سفرُه بالقطار مع ابنه الأكبر الأمير علي، الذي أزمع السفر إلى دمشق لزيارة أخيه فيصل.

ولذلك سافر محب الدين إلى المدينة، وقضى في المدينة شهر رمضان سنة (١٣٣٧) حزيران ـ يونيه سنة (١٩١٩) إلى أن تم الإصلاح المؤقت لخطوط السكة الحجازية، فعاد عليه مع الأمير علي وطائفة من الأصدقاء.

الحكومة في دمشق تصدر الجريدة الرسمية

وعند وصول صاحب الترجمة إلى دمشق دعته الجمعية العربية الفتاة ليكون عضواً في لجنتها المركزية، التي تشرف على إدارة الدولة من وراء ستارٍ، ونيط به إدارة وتحرير الجريدة الرسمية للحكومة واسمها

= الأستاذ محمد بهجة الأثري بذلك قال عن نوري السعيد: **إنّه لئيم الطبع**.

«العاصمة»، وأبيح له أن يكتب فيها مقالات توجيهية كما يشاء بلا مراقبة.

ولما ذهب الأمير فيصل إلى أوربة ليطالب بحقوق الاستقلال العربي والسوري في مؤتمر الصلح، كان لا يزال مخلِصاً للاستقلال الذي ثار مع والده، ثم حارب مع الحلفاء للحصول عليه.

لكنه وصل إلى أوربة وأشار عليه الإنكليز بأن يتفاهم مع الفرنسيين على أساس اتفاق سايكس بيكو، واجتمع فيصل بالمسيو كلمنصو، وكان رئيسَ الوزارة الفرنسية، ووافق على قبول الانتداب الفرنسي لسورية، وعاد فيصل إلى سورية بعكس ما ذهب عليه منها. فإنه لما ذهب كان يقول للذين خرجوا لوداعه من العسكريين: إنه يطلب منهم أن يقووا الجيش وينمّوه بقدر الاستطاعة، بل جعل لهم أموراً تفصيليةً مما ينبغي لهم عمله في غيابه، وقال للشيخ محمد كامل القصاب: إني أنتظر منك ومن إخوتك الوطنيين أن تقوموا بحركة شعبية واسعة لتحويل الأمة إلى أمة مسلحة، إلى أن تحوّلوا الوطن كله إلى ثكنة عسكرية.

اللجان الوطنية

وبالفعل قام الشيخ محمد كامل القصاب ومحب الدين الخطيب بتأسيس اللجنة الوطنية العليا واللجان الوطنية الفرعية؛ التي تحولت بها دمشق وسائر المدن السورية إلى ثكنات عسكرية، والأمة إلى أمة مسلحة.

فلما عاد فيصل إلى دمشق وخرج المستقبلون لاستقباله أدار نظره في المستقبلين، فلم يجد صاحب الترجمة، وسأل عنه فقال له أخوه الأمير زيد الذي كان وكيلاً عنه في غيابه: إن محب الدين أصيبَ في فخذه برصاصة وهي بقلب مسدسه، وهو الآن في منزله تحت العلاج. فقال له فيصل بصوت خافت: يا ليتها كانت القاضية. سمع ذلك منه أسعد داغر، وهو الذي أخبر صاحب الترجمة بذلك، وذنب صاحب الترجمة عنده أنه عمل مع الشيخ كامل القصاب على تحويل دمشق وسورية إلى ثكنة

عسكرية باللجنة الوطنية العليا وفروعها التي تأسست مدة غيابه في أوروبة، وهذا يتنافى مع قبول الانتداب الذي اتفق عليه مع كلمنصو، كما أن الانتداب الذي اتفق عليه مع كلمنصو يتنافى مع إيمان الرأي العام السوري، ومع الاتجاه الصريح الذي ذهب فيصل من سورية إلى أوربة ليدافع عنه، ويتكلم باسم الأمة بما لا يخرج عنه ولا يخالفه.

معارضة الجمعية العربية الفتاة

عاد الأمير فيصل بن الحسين من أوربة إلى دمشق بغير الوجه الذي كان عليه عند سفره، ولذلك أصبحَ موقفُه مذبذباً، لا يغطي عواره كلُّ ما أوتيه من ذكاء ومرونة، فجاهرته العربية الفتاة التي يدعي الانتساب إليها بالمعارضة الصريحة، وفي اجتماع لها معه في منزل الحاكم العسكري العام الفريق رضا باشا الركابي، سمع تصريحات متعددة بأنه فرد في جماعة، وأنه ينبغي له أن لا يقطع بأمر إلا بموافقة من يتكلّمون باسم الأمة ومن يحملون أماناتها، وكان من جواب فيصل على ذلك ما ألقاه بمناسبة خطبة ألقاها توفيق الناطور في اجتماع خاص: لا أكون ملكاً ختّاماً، أي لا يكون ملكاً صورة، ومهمتُه أن يختم باسمه على ما يقرره غيره، فأجابوه: بأنّ الأمةَ تعيش في عصر الشورى، والملك هو الذي تؤيده جمهرة الحزب الوطني السوري الممثلين للأمة بالقوة التي يحتاج إليها في سلطانه.

ثم انصرفوا من ذلك الاجتماع على تنافرٍ واختلاف، أدى إلى استعانة فيصل بجميع الرجعيين من أعيان ومشايخ في تأسيس الحزب الوطني السوري ليقفَ في مواجهة العربية الفتاة واللجنة الوطنية العليا وفروعها.

إنـذار غورو

ولم يطل عهد هذه المشادّة، بل وضع لها الجنرال غورو من بيروت الحد بالإنذار الذي بعث به إلى فيصل بوجوب حل الجيش، الذي كان

لا يزال وليداً يحبو، إلى غير ذلك من عناصر الإنذار الأخرى، [وفي حال عدم تنفيذه] فإنه يواصل زحفه إلى دمشق لتنفيذ اتفاقية كلمنصو ـ فيصل.

ووافق فيصل على حلّ الجيش، وأصدر أمرَه بذلك في ليلة ليلاء، كان فيها أزيزُ الرصاص في جميع أنحاء دمشق، احتجاجاً على هذا الاستخذاء.

ولما كان الحي الذي يسكنه صاحب الترجمة، وهو حي القيمرية، مجاوراً للأحياء المسيحية، ويخشى في هذه الفوضى أن تحدُثَ فتن طائفيةٌ تفيد العدو، وتفرق الوطن، فقد جمع صاحب الترجمة عدداً غيرَ قليل من آل الخطيب، خصوصاً العلماء منهم، وسلّحهم ببنادق كانت أمانة في منزله من العربية الفتاة، التي كانت حصلت عليها من طه باشا الهاشمي رئيس الجبهة العسكرية السورية قبل أن يختطفه الإنكليز في حادثٍ ليس هنا محل بسطه.

وتوجّه المشايخ من آل الخطيب مع من انضم إليهم من أعضاء اللجنة الوطنية العليا ـ وكلهم مسلّحون ـ للطواف في نقطٍ مختلفةٍ من الشوارع والأحياء المسيحية، محافظين على الأمن، وإرهاباً لمن تحدّثه نفسُه بالاعتداء على أحد، ودام ذلك تلك الليلة بطولها إلى الصباح.

معركة ميسلون

وبالرغم من أنّ فيصل بن الحسين نفّذ طلبات غورو، فإنّ غورو أصدر أوامره إلى الجيش الفرنسي بالتقدم من مراكزه في لبنان إلى الحدود السورية، مهدداً بتنفيذ اتفاقية كلمنصو فيصل، التي كانت أساس قبول الانتداب الفرنسي لسورية، فارتقى فيصل منبر مسجد بني أمية، وخطبَ الناس قائلاً: أردت أن أردّ عنكم زحف جيش الأعداء بإجابة مطالبهم فلم يرتدّوا؟ فإن كنتم في حاجة إلى بلدكم فاخرجوا للدفاع عنه.

وحينئذ بادر الأهالي بإرشاد اللجنة الوطنية العليا إلى حمل السلاح،

والخروج إلى ميسلون، لمقابلة جيش منظّم بكامل الأسلحة، ولو أن الجيش السوري الوليد بقي ولم يسرّح، ولم يجرَّدْ من مدافعه وأسلحته التي تبعثرت ـ عند صدور الأمر له بالانحلال ـ لكان ردءاً لهؤلاء المتطوعين، الذين هرعوا للجهاد بلا نظام ولا استعداد، فلم يكن لهذا الموقف الشريف غير المنظم من فائدةٍ غير إثبات أنّ الانتداب فُرض على البلاد بالقوة الأجنبية، لا برضا الأمة التي فرض عليها، وكانت الفرصة بعد ذلك مستمرة لتكون سورية أمة ثائرة إلى أن يكتبَ الله لها الخلاص من الاستعمار الجديد الذي سموه انتداباً.

* * *

الفرار إلى مصر

وتوارى صاحبُ الترجمة في أحد منازل ذوي قرباه السيد محمد بن إسماعيل الخطيب[١] بعد يوم ميسلون، إلى أن تمكّن بواسطته من تغيير مظهره، واتفق مع تاجر جمّالٍ من أعيان النجدين من آل البسام في دمشق، على أن يسافر محب الدين برّاً مع قافلة من الإبل ورعاتها ـ وكانت على أهبة ـ من دمشق عن طريق فلسطين بصفة تاجر جمال عربي، ونجحت هذه الطريقة، واجتازت قافلة البسام البلاد الجنوبية من سوريا إلى فلسطين، حتى وصلوا إلى بحيرة طبرية ومدينة صفد، ثم واصلوا السير حتى بلغوا يافا، وفي يافا تمكّن صاحب الترجمة من استخراج جواز سفر باسم مستعار عبد الله أبو الفتح، فسافر من يافا إلى القاهرة بالقطار.

التحرير بالأهرام

وبعد توارد أحرار سورية على مصر، التحق بقلم تحرير «الأهرام» الأستاذ نجيب الأرمنازي الذي صار فيما بعد أحدَ سفراء سورية في القاهرة، ولم يلبث كثيراً في قلم تحرير «الأهرام» حتى بدا له أن يسافر إلى باريس ليلتحق بكلية السوربون، فعرض على صاحب الترجمة أن يحلّ محلّه في تحرير «الأهرام» فوافق على ذلك، ولبث محبُّ الدين محرراً في «الأهرام» نحو خمس سنوات إلى أواخر سنة (١٩٢٥). وكان في خلال ذلك قد أسس إلى جانب المكتبة السلفية ومطبعتها مجلة «الزهراء» وهي

(١) لقد عرف الشيخ محمد بمواقفه المجاهدة في سورية وفلسطين، وكان لرابطة رجال الثورة السورية بيانٌ كشفَ من تاريخه صفحةً سننشرها إن شاء الله تعالى بعددٍ لاحقٍ.

أدبية اجتماعية شهرية، استمرت مدة خمس سنوات من المحرم (١٣٤٣) أغسطس (١٩٢٤).

تأسيس مجلة «الفتح» ونقابة دور النشر

ثم أسس صحيفة «الفتح» في (٢٢) ذي الحجة (١٣٤٥هـ) آذار ـ مايس (١٩٢٦ م) إلى آخر سنة (١٣٦٧) تشرين الثاني (١٩٤٨).

وفي سنة (١٣٤٦ ـ ١٩٢٧) بينما كان صاحب الترجمة يتعاون مع أصحاب دور النشر في القاهرة، ومنهم أصحاب مكتبة المعارف ومكتبة الهلال وغيرهما على إنشاء رابطة بشكل نقابةٍ، وكانوا يجتمعون كل مرة عند أحدهم لما اقترح إبراهيم زيدان صاحب الهلال أن تعقَدَ الاجتماعات في دار الشبان المسيحية بشارع نوبار، ووافق الآخرون، فكانت هذه فرصة سانحة لصاحب الترجمة ليتعرّفَ إلى هذه المؤسسة التبشيرية الأمريكية.

تأسيس جميعة الشبان المسلمين في الوطن الإسلامي العربي

وقد شاهد فيها ما حرّك في نفسه الرغبة والرجاء في أن يكونَ للمسلمين جمعية شبان في القاهرة وغيرها، تجمعُ شملَهم، واتفق أن كان المغفور له الشيخ السيد محمد الخضر حسين الذي صار فيما بعد شيخ الأزهر في زيارة صديقه صاحب الترجمة في دار المطبعة السلفية بشارع الاستئناف، أخذ محب الدين يحدّثه عن جمعية الشبان المسيحية وأهدافها، وأبدى له أمنية، فيما لو أمكن إنشاء جمعية في مصر للشبان المسلمين، وفيما هما في هذا الحديث دخل عليهما الأستاذ عبد السلام هارون، وكان في السنة النهائية في مدرسة دار العلوم، التي صارت فيما بعد من جملة كليات جامعة القاهرة، فوجّه محب الدين الخطاب إلى عبد السلام هارون، وقال له: أنت شاب مسلم، حولك أصدقاء من الشبان

المسلمين في دار العلوم وغيرها، فهل تعقدُ العزمَ ـ إذا تفضلت الآن من هنا ـ على لقاءٍ تدعو إخوانك بجد وعزم، لتعمل على نشر الدعوة لتأسيس جمعية للشبان المسلمين، ونكون نحن ـ وكل من نلوذ به ويلوذ بنا ـ أعواناً لكم على تحقيق هذه الأمنية؟

وعد عبد السلام هارون بأن يمضي في هذه الدعوة من هذه الساعة، وقبلَ أن يخرج من دار المطبعة السلفية حضر إليها المغفور له أحمد تيمور باشا، وكان من عادته زيارة صديقه محب الدين يومياً بلا انقطاع، إلا إذا كان في خارج القاهرة، فأعاد محب الدين على مسامعه ما كان قد دار بينه وبين السيد الخضر حسين، ثم ما قيل للأستاذ عبد السلام هارون، وما عزم عليه، فاستبشر تيمور باشا بذلك، وشجع عليه، ووعد بالتعاون على تحقيق هذه الأمنية.

وخرج عبد السلام هارون للقاء أصدقائه ومنهم: محمود محمد شاكر، وعبد المنعم خلاف، وآخرون، بلغ عددهم اثني عشر شاباً من طلبة المدارس العليا والثانوية.

انبثَّ هؤلاء الشبان في كلياتهم ومدارسهم، وانتشروا في بيئاتهم، وأخذوا يدعون إلى فكرة الشبان المسلمين كلَّ من يأنسون فيه استعداداً لقبول هذه الدعوة والاضطلاع برسالتها.

تغريب مصر الفكري والثقافي وموازينه المختلفة

وكان جو القاهرة الفكري والثقافي في ذلك الحين متشبعاً برطوبة الأخذ بثقافة الغرب؛ بكل ما فيها من خير وشر، وجدّ وهزل، وأكثر القائمين على الأندية، والعاملين في الصحافة، والمترددين على الأندية والمجتمعات، يعدّون كلَّ نزعة إسلامية رجعية وجموداً، وكان العالم الإسلامي قد أصيبَ حينئذ بظهور الدعوة الكمالية إلى الفصل بين الدين وشؤون الدنيا، وتردّدَ صدى ذلك في مصر على صفحات كتاب «الإسلام

وأصول الحكم» لعلي عبد الرازِق وأنصاره الكثيرين في حزب الأحرار الدستوريين، وجمعية الرابطة الشرقية، ونادي القلم، وفي كلية الآداب التي أعلن زعيمُها طه حسين أنّ للقرآن أن يقول وللتوراة أن تقول. . . والعلم غير مقيد بما يقولان[١]. . .

كانت الدعوة إلى تأسيس جمعية الشبان المسلمين مهدّدة من كتّاب الصحف ورجال هذه الهيئات الثقافية بحملات التشكيك والتنفير لو وصل خبرُ تأسيسها إلى ألسنتهم وصحفهم وأجوائهم، فتقرَّرَ من الساعة الأولى أن تكون الدعوة إلى هذا العمل الجدي منطوياً في مسار الكتمان، وأن تكونَ عملاً متواضعاً بعيداً عن الثرثرة والدعاية والتشدق، واستمرّ الحال على ذلك، إلى أنْ صار للشبان المسلمين نحو ثلاثمئة عضو، وكلهم لا يعرفون جهةً يترددون عليها، ويصلون خيوطهم بحبالها إلا المطبعة السلفية في شارع الاستئناف بباب الخلق.

ومست الحاجة إلى عقد اجتماع ابتدائي لهؤلاء الأعضاء، لتوضيح الأغراض التي جمعتهم، والأهداف التي يرمي إليها عملُهم، فكان أقرب مكان لهذا الاجتماع في المبنى رقم (٣٠) شارع غيط العبد بباب الخَلْق، وفي صبح اليوم المقرر أن يتم الاجتماع الأول في مسائه لقيَ أحدُ دعاة الشبان المسلمين عبد الفتاح كيرشاه الشيخ عبد العزيز جاويش، فأخبرَهُ بخبر الجمعيةِ وما فيها من خطوات إلى ذلك اليوم، وبمكان ووقت الاجتماع، فحضر الشيخ الجاويش، وبعد أن خطب السيد محمد الخضر ومحب الدين الخطيب بيانَ الجمعية وأهدافها، قام الشيخ عبد العزيز الجاويش فقال: إنّ العملَ الذي مضيتم فيه كنتُ أنا أفكر فيه، ولكن اختلفت معكم في الطريق، فأنتم صعدتم السلم من درجاته الدنيا، وأنا فكرتُ بأن أبدأ من درجاته العليا، فقد زرتُ الأمير عمر طوسون وفلاناً

(١) [في كتابه «مع الشعر الجاهلي»].

ـ وشتم الاثنين ـ فطلبت منهما التبرع لإنشاء دارٍ محترمة للشبان المسلمين، ثم ندعو الشباب إلى الالتحاق بها، فلم يجيبا طلبي، وأنتم بدأتم بتكوين الجمعية من الشباب، على أن نتعاون معكم فيما بعد في إنشاء دار لهم، فنجحتم من حيث فشلتُ أنا، لذلك أتيت لأهنئكم وأتعاون معكم.

طلعة حرب وتخاذله

ولما وصل المشروع إلى هذه المرحلة التي لا يخشى عليه فيها من دسائس الملاحقين، الذين يرون أنّ كلّ عمل إسلامي رجعيةً وجموداً، بدأ التفكيرُ في عقد اجتماع عام، يُتلى فيه مشروع قانون الجمعية، وتجري فيه الانتخابات لمجلس الإدارة الأول.

واقترحَ بعضُ الأعضاء أن يكونَ ذلك في مسرح الأزبكية الذي يشرِفُ عليه طلعت حرب باشا، والطلب منه بأن يسمحَ بذلك لبعض ساعات، يعقد فيها اجتماع تاريخي يكون من مفاخر المكان الذي يتم الاجتماع فيه، ولما كاشفَ الوفدُ طلعت حرب باشا بذلك، اعتذر بأنه يقوم بأعمال اقتصادية يتعاون فيها مع عناصر غير إسلامية من إسرائيلية ومسيحية، وأنه لا يستطيع أن يتعاونَ في عمل له صبغة إسلامية لا تسر العناصر التي يتعاون معها، فخرج الوفد من عنده يجرُّ أذيال الخذلان.

أمير الشعراء ينقذ الموقف

ولما حضر الوفد إلى موفديه ليبلغهم ما لقي، وكان أميرُ الشعراء شوقي بك حاضراً يسمع، فقال: اختاروا أي مكان آخر يمكن الحصول عليه بأجر ما، وأنا مستعدٌّ لدفع أجره من جيبي، فوقع الاختيار على دار سينما (كوزمو) وبالفعل ذهب شوقي بك مع بعض أعضاء الجمعية إلى

تلك الدار السينمائية، واتفق على استئجارها في يوم معين، ودفع الأجرَ مقدّماً[١].

عبد الحميد سعيد الرئيس الأول للجمعية

وكان من المطالب المهمة اختيارُ رئيس للجمعية، فحُددت صفاتٌ معينةٌ له، كأن يكون مثقفاً قوياً، وذا مكانة في المجتمع، وأن لا يكون معمماً، لئلا توصف الجمعية بأنها ذات نزعة خاصة، فقال السيد محمد الخضر: إنه تعرّف في تركية وأوروبة بعبد الحميد سعيد، ولعله أجمعَ من غيره لهذه الصفات المطلوبة، وحينئذ نهض محب الدين إلى سماعة الهاتف، واتصل بعبد الحميد سعيد في منزله، وأخبره بأنّ جمعية للشبان المسلمين في دور التأسيس، وأنهم يقترحون أن يعرضوا عليه رئاستها إن لم يكن عنده مانع من ذلك، فطلب أن يزوره بعض ممثلي الجمعية ليزداد معلومات عنها، وبالفعل زاره بعض الأعضاء، وأَطلعوه على مشروع القانون، وذكروا له أسماء بعض القائمين بالعمل، وأخبروه أن شوقي بك استأجر لهم دار سينما (كوزمو) ليكون انتخاب إدارة الجمعية في اجتماعٍ يعقد هناك. وتم الاتفاق على كل شيء.

المجلس الإداري الأول

وفي مقدمة لمحب الدين الخطيب كتبها في أول كتاب «الطريق» للدكتور يحيى الدرديري، الذي كان عضواً في مجلس إدارة الجمعية والمراقب العام لها لسنوات؛ تفصيلٌ عن كيفية اختيار أعضاء مجلس الإدارة الأول للجمعية، وكيف أُقصيَ من كانوا يتزاحمون على عضويته ومناصبه، وكيف اختيرَ غيرُهم بغير علمٍ منهم، وهذه المقدمة جديرةٌ بأن يطّلِعَ عليها من يحب أن يقف على الاتجاهات في مثل هذه المواقف.

---

(١) [وقد وصف أمير الشعراء تأسيس الجمعية بقصيدة طويلة، كما نظم نشيداً لها].

وتم انتخاب الإدارة الأولى للجمعية برئاسة عبد الحميد سعيد، على أن يكون الشيخ الجاويش وكيلاً ـ وكان حريصاً جداً على أن يكون رئيساً ـ واختير أحمد تيمور باشا لأمانة الصندوق، ومحب الدين الخطيب كاتم السر للجمعية. واستؤجرت للجمعية دار كبيرة في شارع قصر العيني، تجاورُ مجلسَ النواب، وساهم أحمد تيمور باشا بدفع أجرة هذه الدار.

صدمة الإلحاد ودعاته

كان تأسيس هذه الجمعية في مصر حادثاً عظيماً من أحداث الحركة الإسلامية، وكان ذلك مفاجأة لدعاة الإلحاد والتضليل، ولدعاة التبشير بالمسيحية، لأنهم بعد تأسيس كلية الآداب، وتكوين الكليات الجامعية، وبعد ظهور الحركة الكمالية في تركية، وطبع كتابي «الإسلام وأصول الحكم» و«في الشعر الجاهلي» وتأييد الأحرار الدستوريين لما يُنْشَرُ في جريدة «السياسة» من الآراء المنحرفة ـ ظنوا أن قيادة الرأي العام أفلتت من أيدي ممثلي الإسلام من أزهريين وغيرهم، وانتقلت إلى أيديهم، فما لبثوا أن رأوا شتات أنصار الإسلام من شباب وشيوخ يجتمعون حولَ هذه الجمعية التي ظهرتْ لهم على حين فجأة، ولم يشعروا بها في دور التكوين، ليقضوا عليها قبل أن تولد.

ردة الفعل واستعداء القضاء

رأى دعاةُ الإلحاد والتضليل، والقائمون على بيئات التبشير، **وأكثرهم من الأجانب**، أنّ هذه الجمعية جاءت ضربةً لهم لم تكن في الحسبان، فأخذوا يتربّصون الدوائر بصاحب الترجمة، ويراقبون ما ينشر في صحيفة «الفتح» على الخصوص، إلى أن عثروا له فيها على مقال افتتاحي في العدد (١١٩) الصادر في (١١) جمادى الأولى سنة (١٣٤٧) ـ (٥) تشرين الأول

(١٩٢٨) بعنوان «الحرية في بلاد الأفغان» حمل فيه صاحب الترجمة على الملك أمان الله خان ملك الأفغان لقتله بير صاحب، وهو أكبر علماء الأفغان العاملين، وتناولت الحملة في هذا المقال كمال أتاتورك أيضاً، لأنّ أمان الله كان يقلّده في كل مرحلة من مراحل حركته نحو التفرنج والابتعاد عن الأنظمة الإسلامية والروابط الثقافية بالشرق الإسلامي، فتلقّت النيابة بلاغاً يقول فيه كاتبه: إنّ صاحبَ «الفتح» ارتكب جنايةً يؤاخِذُ عليها القانون المصري في المادة (١٥٢) عقوبات، لاتهامه بالعيب اثنين من رؤساء الدول الصديقة لمصر، وهما صاحب الجلالة أمان الله خان ملك الأفغان، ومصطفى كمال أتاتورك رئيس الجمهورية التركية، فقبِضَ على صاحب الترجمة، وقُدّم للتحقيق معه أمام رجال النيابة العمومية يومئذ وهو الأستاذ أحمد زكي سعد، وبعد اعتراف صاحب الترجمة بأنّه هو كاتب المقال، وأنه لم يشاركه أحد، أودعَ سجن مصر في إحدى زنزانات المتهمين بالجناية، وعيّنَ موعدٌ للنظر في القضية أمام محكمة الجنايات، وانتدب للدفاع عنه الأستاذ أحمد بك رمزي، وكان وقتئذ وكيل مجلس النواب، وهو صديق لصاحب الترجمة من أيام تحريره في جريدة «المؤيد» لصاحبها الشيخ علي يوسف، وانضم إليه في الدفاع الأستاذ عبده المويلحي المحامي لتنوير الجانب الإسلامي في هذه القضية.

وقد بذلت النيابة أقصى أدلة القانون والقضاء للإدانة، ورافع ممثلو الدفاع بأنّ المحكمة ترى في هذه المادة أنّ الملوك ورؤساء الجمهوريات غير مسؤولين عن الحكم، لأن الحكم في النظام المصري يناطُ بالوزارات المسؤولة دون الملوك والرؤساء، ولكن ملك الأفغان ورئيس جمهورية تركية تنازلا عن هذا الامتياز، بأخذهما على عهدتهما مسؤولية أعمالهما، فإن كانت معروفاً نسب الشرف إليهما لا إلى المسؤولين من أتباعهما، وإن كانت عكس ذلك كان عليهما لا على حكومتيهما.

وقدم الأستاذ أحمد رمزي المحامي مجموعة من مجلة «الزهراء» التي كان يصدرها صاحب الترجمة إلى هيئة المحكمة دليلاً على مكانة المتهم في الصحافة الاجتماعية والأدبية، وذكر ماضيه في خدمة المجتمع من أيام كان محرراً في جريدة «المؤيد» إلى أن صار بعد ذلك من محرري «الأهرام».

وكانت جلسة المحاكمة خاصة بالطبقة العليا من الرجال الإسلاميين، وفي طليعتهم: أحمد تيمور باشا، وعبد الحميد سعيد، ورجال الأزهر، والطبقة العليا من أضدادهم، الذين أرادوا إذلال الحركة الإسلامية بإدانة صاحب الترجمة، والحكم الجنائي عليه. وكانت نتيجة المرافعة من جانبي النيابة والدفاع الحكم بالحبس شهراً واحداً مع وقف التنفيذ، فضجّت دارُ المحكمة بتصفيق أعضاء جمعية الشبان المسلمين والطلبة الأزهريين وأمثالهم، واعتبروا الحكم فوزاً عظيماً، لأنّ المادة صريحة، ولم يكن ممكناً النجاة من عقوبتها بأقلّ من ذلك.

وكان من رأي بعض طيبي القلوب من أصدقاء صاحب الترجمة ومحبيه أن يستأنفَ الحكم، وكان رئيس الاستئناف يومئذ عبد العزيز فهمي باشا، **وهو كمالي أكثر من كمال أتاتورك نفسه**، لذلك أبى صاحب الترجمة أن يستأنفَ الحكمَ عليه، ورضي بهذه النتيجة.

محب الدين الخطيب

تواريخ في حياة محب الدين

شوال ـ تموز	١٣٠٣ ـ ١٨٨٦	ولادة السيد محب الدين
ذي الحجة ـ تموز	١٣١٠ ـ ١٨٩٣	وفاة والدته
المحرم ـ حزيران	١٣١٤ ـ ١٨٩٦	نال الشهادة الابتدائية
المحرم ـ حزيران	١٣١٥ ـ ١٨٩٨	وفاة والده
جمادى الأولى ـ تموز	١٣٢٣ ـ ١٩٠٥	نال الشهادة الثانوية
خريف	١٣٢٣ ـ ١٩٠٥	سافر إلى إستانبول للدراسة العليا
ذو القعدة ـ أيلول	١٣٢٤ ـ ١٩٠٦	تأسيس جمعية النهضة العربية
صيف	١٣٢٥ ـ ١٩٠٧	عاد إلى دمشق
رمضان ـ تشرين الأول	١٣٢٥ ـ ١٩٠٧	غادر دمشق إلى بيروت في طريقه إلى اليمن
رمضان ـ تشرين الأول	١٣٢٥ ـ ١٩٠٧	وصل إلى القاهرة
شوال ـ تشرين الثاني	١٣٢٥ ـ ١٩٠٧	وصل إلى جزيرة قمران باليمن
كانون الثاني	١٣٢٦ ـ ١٩٠٨	استقراره في الحديدة
تموز	١٣٢٦ ـ ١٩٠٨	إعلان الدستور العثماني وثورة أنور ونيازي
المحرم ـ تشرين الثاني	١٣٢٧ ـ ١٩٠٨	غادر الحديدة عائداً إلى دمشق
تشرين الثاني	١٣٢٧ ـ ١٩٠٩	غادر دمشق إلى إستانبول
تشرين الثاني	١٣٢٧ ـ ١٩٠٩	غادر إستانبول إلى القاهرة
رجب ـ آب	١٣٢٧ ـ ١٩٠٩	وصل إلى القاهرة

أيلول	١٣٢٧ ـ ١٩٠٩	محرر في صحيفة «المؤيد»
أيلول	١٣٣١ ـ ١٩١٣	يدرس في مدرسة الدعوة والإرشاد
ذي القعدة	١٣٣٢ ـ ١٩١٤	سفره إلى الخليج بمهمة قومية
شعبان ـ حزيران	١٣٣٤ ـ ١٩١٦	ثورة الحجاز
رمضان ـ تموز	١٣٣٤ ـ ١٩١٦	السفر إلى الحجاز للالتحاق بالشريف حسين
رمضان ـ حزيران	١٣٣٧ ـ ١٩١٩	السفر إلى دمشق عن طريق المدينة المنورة
المحرم ـ آب	١٣٤ ـ ١٩٢٤	تأسيس مجلة «الزهراء»
ذي الحجة ـ آذار	١٣٤٥ ـ ١٩٢٦	تأسيس جريدة «الفتح»
ذي الحجة ـ آذار	١٣٤٦ ـ ١٩٢٧	تأسيس جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ملحق

الشاب الجزائري
كما تُمثّله لي الخواطرُ

بقلم
محمد البشير الإبراهيمي

أتمثّلُه متسامياً إلى معالي الحياة، عربيد الشباب في طلبها، طاغياً عن القيودِ العائقة دونَها، جامحاً عن الأعنَّة الكابحة في ميدانها، متّقدَ العزَمات، تكادُ تحتدِم جوانبه من ذكاء القلب، وشهامةِ الفؤاد، ونشاطِ الجوارح.

أتمثّله مقداماً على العظائم في غير تهوّر، محجاماً عن الصغائر في غيرِ جبن، مقدّراً موقعَ الرِّجْل قبلَ الخطو، جاعلاً أول الفكر آخرَ العمل.

أتمثلُه واسعَ الوجود، لا تقفُ أمامه الحدودُ، يرى كلَّ عربي أخاً له، أخوة الدم، وكلَّ مسلمٍ أخاً له، أخوةَ الدين، وكلَّ بشرٍ أخاً له، أخوةَ الإنسانية، ثم يُعطي لكلِّ أخوةٍ حقّها فضلاً أو عدلاً.

أتمثلُه حلفَ عمل، لا حليف بطالةٍ، وحِلْسَ معملٍ، لاحِلْسَ مقْهى، وبطلَ أعمالٍ، لا ماضغ أقوالٍ، ومرتادَ حقيقة، لا رائد خيال.

أتمثله براً بالبداوة التي أخرجتْ من أجداده أبطالاً، ومزوِّرًا عن الحضارة التي (رمتْهُ بقشورها) فأرخَتْ أعصابه، وأنّثتْ شمائله، وخنَّثت

طباعه، وقيَّدته بخيوط الوهم، ومجَّت في نبعه الطاهر السمومَ، وأذهبتْ منه مايُذهِب القَفَصُ من الأسدِ من بأسٍ وصولةٍ.

أتمثَّلُه مقبلاً على العلم والمعرفة ليَعْمَل الخيرَ والنفعَ، إقبال النَّحْل على الأزهار والثمار، لتصنعَ الشهدَ والشمعَ، مقبلاً على الارتزاق، إقبالَ النمل تجدُّ لتجِدَ، وتدَّخر لتفتخر، ولا تبالي ما دامت دائبةً، أن ترجع مرةً مُنْجحَةً ومرة خائبة.

أُحبَّ منه ما يُحب القائل:

أحِبُّ الفتى ينفي الفواحشَ سمعُهُ كأنّ بهِ مِنْ كُلِّ فاحشةٍ وقْرا

وأهوى منه ما يهوى المتنبي:

وأهوى من الفتيانِ كُلَّ سُمَيْدَعٍ
أَرِيْبٍ كَصَدْر السَّمْهَرِيِّ المُقَوَّمِ
خَطَتْ تَحْتَهُ العِيْسُ الفَلاَةَ وخَالَطَتْ
بهِ الخَيْلُ كبّاتِ الخَمِيسِ العَرمْرمِ

يا شباب الجزائر! هكذا كونوا... أو لا تكونوا....

أتمثّلُه محمديَّ الشمائل، غيَر صَخَّابٍ ولا عيَّابٍ، ولا مُغتابٍ ولا سبّاب، عَفّاً عن محارم الخَلقِ ومحارم الخالقِ، مقصورَ اللسانِ إلا عن دعوةٍ إلى الحقِ، أو صَرْخةٍ في وجهِ الباطل، متجاوِزاً عما يكرهُ من إخوانِهِ، لا تنطوي أحناؤه على بُغْضٍ ولا ضغينةٍ.

أتمثَّلُه متقلِّباً في الطاهرين والطاهرات، ارتضعَ أفاويق الإصلاح صبيّاً، وزُرَّت غلائلُه عليه يافعاً، فنبتَتْ في حجره، ونبتتْ قوادمه في وَكْره، ورفرفت أجنحته في جَوِّهِ، لم يمسَسهُ زَيْغُ العقيدةِ، ولا غَشيَتْ عقلَهُ سحُبُ الخرافاتِ، بل وجدَ المنهج واضحاً، فمشى على سوائِهِ، والأعلام منصوبةً، فسار على هداها، واللواءَ معقوداً، فآوى إلى ظله، والطريق معبَّداً، فخطا آمناً من العثار، فما بلغ مبلغَ الرجالِ إلا وهو

صحيحُ العقد في الدين، متينُ الاتصال بالله، مملوءُ القلب بالخوف منه، خاوي الجوانح من الخوف من المخلوق، قوي الإيمان بالحياة، صحيحُ النظر في حقائقها، ثابتُ العزيمة في المزاحمة عليها، ذَلقُ اللسان في المطالبة بها، ناهضُ الحُجَّة في الخصومة لأجلها، يأبى أن يكونَ حظه منها الأخس الأوْكس، أَمِنَ بعقله وفكره أن يُضَلَّل في الحياة، كما أَمِنَ بهما أن يضلَّل في الدين.

وفي الحياة كما في الدين تضليل

يا شباب الجزائر!

ما قيمةُ الشباب؟ وإن رقَّت أنداؤه، وتجاوبت أصداؤه، وقُضيت أوطارُه، وعلا من بين أطوار العمر مقدارُه، وتناغتْ على أفنانِ الأيام والليالي أطيارُه، وتنفَّستْ عن مثل رَوْح الربيع أزهارُه، وطابت بين انتهاب اللذات واقتطاف المسرات أصائِلُه وأسحارُه.

بل ما قيمة الكهولة؟ وإن استمسك بنيانُها، واعتدلَ ميزانُها، وفُرَّت عن التجربة والمراس أسنانُها، ووُضعتْ على قواعدِ الحكمةِ والأناةِ أركانُها.

بل ما قيمة المشيب؟ وإن جللّه الوقار بمُلاءته، وطواه الاختبار في عباءته، وامتلأتْ من حكمة الدهور وغرائب العصور حقائبُه، ووُصلت بخيوط الشمس، لا بفتائل البرس، جمّاته وذوائبه.

ما قيمة ذلك كله؟ إذا لم تُنفَقْ دقائِقُهُ في تحصيل علمٍ، ونصرِ حقيقةٍ، ونشرِ لغةٍ، ونفعِ أمةٍ، وخدمةِ وطنٍ.

يا شباب الجزائر! هكذا كونوا.. أو لا تكونوا.....

أتمثُلُه كالغُصنِ المرُوح، مطلولاً بأنداء العروبة، مخضوضرَ اللَّحا والورَق مما امتص منها، أخضرَ الجلدة والآثار مما رشَحَ له من أنسابها وأحسابها، كأنَّما أنبتتْه رمالُ الجزيرة، ولوَّحته شمسُها، وسقاه سلسالها

العذب، وغذاه نبتُها الزكي، فيه مشابه عن عَدنان تقول إنه من سرّ هاشم أو سُرة مخزوم، ومخايلُ من قحطان تقول كأنه ذو سكَن في السكن[١]، أو ذو رَضاعة في قُضاعة[٢]، متقلِّباً في المنجبين والمنجبات، كأنَّما ولدتْه خندف[٣]، أو نهضت عنه أمّ الكملة[٤]، أو حَضنته أختُ بني سهم[٥] أو حنَّكته تُماضر[٦] الخنساء، لَعوباً بأطراف الكلام المشقَّق، كأنما وُلِدَ في مكَّة، واستُرضع في إيادٍ، وربا في مُسْلَنْطحِ البِطاح.

أتمثلُه مجتمِع الأشُدِّ على طراوة العودِ، بعيدَ المستمرّ على مَيعة الشباب، يحملُ ما حُمِّلَ من خَيْر، لأنّ يدَ الإسلام طبعته على الخيرِ، ولا يَحْمِلُ ما حُمِّل من شرّ، لأنَّ طبيعةَ الإسلام تأبى عليه الشرَّ، فتح عينيه على نورِ الدين، فإذَا الدنيا كلُّها في عينيه نيرة مشرقة، وفتح عقلَه على

---

(١) السكن قبيلة قحطانية.

(٢) قبيلة يتنازعها قحطان وعدنانُ، ويقول شاعرهم:

نحنُ بنو الشيخ الهجانِ الأزهرِ
قضاعةُ ابنُ مالك بنِ حميرِ
في النّسب المعروف غير المنكرِ
في الحَجَرِ المنقوشِ تحت المِنْبرِ

(٣) خندف هي ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة؛ زوجة إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وأم أولاده: مدركة وإخوته.

(٤) أم الكَمَلَة هي فاطمة بنت الخرشب الأنمارية، إحدى مُنجبات العرب، والكَمَلَة أبناؤها الأربعة، وقد سُئلَتْ: أيُّ بنيك أفضل؟ فقالت: الربيعُ بل عمارُ بل قيسُ بل أنسُ، ثم قالت: ثكلتُهم إن كنتُ أدري أيهم أفضلُ، هم كالحلقةِ المفْرَغةِ لا يُدْرى أين طرفاها. وأبو الكَمَلَة هو زياد بن سفيان بن عبد الله بن ناشب العنسي.

(٥) تلميح إلى قول ابن الزبعرى: ألا لله قومٌ ولدتْ أختُ بني سهم.
وهي رَيطةُ بنت سعيد بن سهم، وقد أنجبت ثمانية رجالٍ أكبرهم هاشم بن المغيرة جدُّ عمر بن الخطاب لأمه، وكانوا كلهم مزيداً في مفاخر مخزوم.

(٦) تُماضر بنت عمرو بن الشريد أخت صخر، الخنساءُ الشاعرةُ المشهورة، وتحريضها لأولادها على الجهاد وحمدُها الله حيثُ ماتوا كلهم في موقعة واحدة ـ كلُّ ذلكِ مُفَصَّلٌ في كتب السير والأدب.

حقائق الدين، فإذا الدينُ والكونُ دالٌّ ومدلولٌ عليه، وإذا هو يفتح بدلالة ذاكَ مغاليقَ هذا، وفتحَ فكرَهُ على عظمةِ الكونِ فاهتدى بها إلى عظمة المكوِّن، فإذا كلُّ شيءٍ في الكون جليلٌ، لأنّه مِنْ أثرِ يدِ الله، وإذا كلُّ شيءٍ فيه قليلٌ، لأنّه خاضعٌ لجلالِ اللهِ، ومن هذهِ النقطةِ يبدأُ سمُوُّ النفوسِ الساميةِ وتعاليها، وتهيُّؤها للسعادة في الكونِ، والسيادةِ على الكونِ.

أتمثّلُه مجتلًى للخلال العربية التي هي بواكير ثمارِ الفطرة في سلاستها وسلامتها، كأنّما هو منحدرٌ لأنصابها، وقرارةٌ لانسكابها، وكأنما خِيْطَ على وفاء السموأل وحاجب [١]، وأُشْرِجَ على إيثارِ كعبٍ وحاتمٍ [٢]، وخُتِمَ على حِفاظ جَسّاس والحارث [٣]، وأُغلِقَ على عِزَّة عوف وعُروة [٤].

أتمثّلُه مترقرق البشْرِ إذا حَدثَ، مُتهلِّلَ الأسرَّة إذا حُدثَ، مقصورَ اللسان عن اللغو، قصيرَ الخُطا عن المحارم، حتّى إذا امتدَّت الأيدي إلى وطنهِ بالتخونِ، واستطالَتِ الألْسنة على دينه بالزراية والتنقُّص، وتهافَتَتِ الأفهام على تاريخه بالقلب والتزوير، وتسابقَ الغرباءُ إلى كرائمه باللّص والتدمير، ثارَ وفار، وجاءَ بالبرقِ والرعدِ، والعاصفةِ والصاعقة، وملأ الدنيا فعالاً، وكان منه ما يكونُ من الليثِ إذا ديْسَ عريْنُهُ، أو وسم بالهوان عِرنينه.

أتمثلُه شديد الغَيْرة، حديد الطيرة، يغارُ لِبنْتِ جنسه أن تبورَ، وهو

---

(١) السموأل بن عادياء المضروب به المثل في الوفاء، وحاجب بن زرارة التميمي مثله، هو الذي رهن قوسَهُ عند كسرى.

(٢) كعب بن أمامة الإيادي، وحاتم الطائي جوادان مشهوران يضرب بهما المثل في الكرم.

(٣) جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان قاتلُ كُليب، والحارث بن عباد، لهما ذكر تدور عليه حرب داحس والغبراء، وأخبارهما مفصلةٌ في كتب الأدب.

(٤) عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان يعد من أولياء العرب وأعزتهم، ولعزته قال الملك عمرو بن هند: لاحُرَّ بوادي عوف، وعروة بن المنبه بن جعفر بن كلاب الرحال آو الوفاد، كان يجير لطائمَ المناذرة، ويجير على الحَيّين بكر وتغلب حتى قُتِلَ، وكان قتله سبباً في يوم الفجار بين كنانة وقيس.

يملكُ القدرة على إحصانها، ويغارُ لماء شبابها أن يغورَ، وهو يستطيع جَعْلَه فياضاً بالقوة، دافقاً بالحياة، ويغارُ على هواهُ وعواطفِهِ أن تستأثرَ بها السِّلعُ الجليبةُ، والسِّحَنُ السليبةُ، ويغار لعينيه أن تسترقَّهُما الوجوهُ المطرّاة، والأجسامُ المعراة.

يا شباب الجزائر! هكذا كونوا.. أو لا تكونوا.

أتمثلُه حنيفاً فيه بقايا جاهلية.. يدخِرُها لميقاتها، ويوزِّعها على أوقاتها، يُردُّ بها جَهل الجاهلين، في زمنٍ تفتَّقَتْ علومُه عن جاهلية ثانيةٍ شرٍّ من الجاهلية الأولى، وتمخّضتْ عقولُ أبنائِهِ بوحشيةٍ مقتبسةٍ من الغرائز الدنيا للوحشِ اقتباساً علمياً ألبسَ الإنسان غير لبوسِهِ، ونقلَهُ من قيادةِ الحيوان إلى الانقيادِ للحيوانيَّة ـ وأسفرتْ مدنيتُه عن جفافٍ في العقول، وانتكاسٍ في الأذواقِ، وقوانينُه عن نَصْرٍ للرذيلة، وانتهاكٍ للحُرُماتِ، وانتهتِ الحالُ ببنيه إلى وثنيةٍ جديدةٍ في المال، وعبادةٍ غالبةٍ للمال، واستعبادٍ لئيم بالمال.

أتمثلُه معتدلَ المزاج الخُلُقي، بين الميوعة والجمود، وبينَ النُّسك والفتك، تتسع نفسُه للعقيق، وعمرو بن أبي عتيق، فيصبو، ولا يكبُو، كما تتسع للحرم وناسكيه فيصفو، ولا يهفو، وتهزُّه مفاخرات الفرزدق في المِرْبَدِ، كما تهزه مواعظُ الحسن في المعبد.

أتمثلُه كالدينار يَرُوق منظراً، وكالسيف يروعُ مخبراً، وكالرُّمْح أمدحُ ما يوصَفُ به أن يقالَ ذابل؛ ولكن ذاك ذبولُ الاهتزاز، وهذا ذبولُ الاعتزاز ـ وكالماءِ يمرؤ فيكونُ هناءً يروي، ويزعُق فيكون عناء يُردي، وكالرَّاية بين الجيشين تتساقط حولَها المُهَج وهي قائمةٌ.

أتمثلُه عَفَّ السرائر، عَفَّ الظواهر، لو عُرضتْ له الرذيلةُ في الماء ما شربه، وآثرَ الموتَ ظمأً على أن يَرِدَ أكدارَها، ولو عَرِضَتْ له في الهواء ما استنشقه، وآثرَ الموتَ اختناقاً على أن يتنسَّمَ أقذارَها.

أتمثلُه جديداً على الدنيا؛ يرى من شرطها عليه أن يزيدَ فيها شيئاً جديداً مستفاداً فيها، يرى من الوفاء لها أن يكونَ ذلك الجديدُ مفيداً.

أتمثَّلُه مقدِّماً لدينه قبل وطنه، ولوطنه قبل شخصه، يرى الدينَ جوهراً، والوطنَ صَدَفاً، وهو غواصٌ عليهما، يصطادُهما معاً، ولكنّه يعرِف الفرق بين القيمتين، فإن أخطأ في التقدير خَسِرَ مرتين.

أتمثَّلُه واسع الآمال، إلى حد الخيال، ولكنَّه يُزجيها بالأعمال، إلى حدِّ الكمال، فإن شُغِفَ بحبّ وطنِهِ، شغفَ المشرك بحبِ وثنهِ، عَذَرَهُ الناس في التخيل لإذكاء الحبّ، ولم يُعْذَرْ فيه لتغطيةِ الحقيقةِ.

أتمثَّلُه مصاولاً لخصومه بالحجاج والإقناع، لا باللجاج والإقذاع، مُرْهِباً لأعدائه بالأعمال، لا بالأقوال.

أتمثَّلُه بانياً للوطنية على خمسٍ، كما بنى الدين قبلَه على خمسٍ:

١ ـ السباب آفةُ الشبابِ.

٢ ـ واليأسُ مفسِدٌ للبأس.

٣ ـ والآمالُ لا تدرَك بغيرِ الأعمال.

٤ ـ والخيالُ أوّله لذة وآخرُه خبالٌ.

٥ ـ والأوطانُ لا تخدَم باتباع خُطوات الشيطان.

ياشباب الجزائر... هكذا كونوا... أو لا تكونوا.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهارس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الأعلام والشعوب والهيئات

اسية بن محمد الجلاد: ٨٨
إبراهيم الأسكوبي: ٥٤
إبراهيم باشا: ٢٩، ٣٠
إبراهيم بن يحيى بن مساهل: ٤٧
إبراهيم أبو اليقظان: ٤٥
إبراهيم زيدان: ١٦٨
إبراهيم عبده: ١٥٦
ابن أبي الخصّال: ٤٩
ابن الأثير: ١٥٠
ابن برد: ٤٩
ابن الخطيب: ٤٩، ٧٥
ابن خفاجة: ٢٠
ابن الزبعرى: ١٨١
ابن السكيت: ٤٩
ابن شُهيد: ٤٩
ابن مالك: ٤٩، ٥٠
ابن المقفع: ١٢٠
ابن هشام: ٥٠
أبو السمح: ١٤٦
أبو الطيب = المتنبي
أبو عبد الله التلمساني: ٤٩
أبو العتاهية: ١٨
أبو العلاء المعري: ١٨، ١٥٢
أبو الفتح الخطيب: ٨٨
أبو فراس الخطيب: ١٧، ١٨
أبو المطرف بن أبي عميرة: ٤٩
أبو النصر بك: ١٢١
أبو النصر الخطيب: ١٠٧
الأجدابي: ٤٩
أحمد إياس: ١٣٩
أحمد البرز نجي الشهرزوري: ٥٤
أحمد ابن تيمية: ٩١، ٩٤، ١٢٦
أحمد تيمور باشا: ١٤١، ١٤٢، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥
أحمد الجزار: ٢٨
أحمد جودة: ١٤٣
أحمد حسن طبارة: ٩٨
أحمد حليم النجدة لي: ٢٩
أحمد خيرات الشنقيطي: ٥٤
أحمد رمزي: ١٧٥
أحمد زكي أبو شادي: ١١٨
أحمد زكي سعد: ١٧٤
أحمد زهير: ١٠٦
أحمد السقاف: ١٦٢
أحمد شارة: ١٢٩

أحمد الشهابي: ١١٦
أحمد شوقي: ٥، ٧، ٩، ١١، ١٣، ١٥، ١٧، ٥١، ٧٥، ١٧١، ١٧٢
أحمد الصانع: ١٤٩، ١٥٠
أحمد طالب الإبراهيمي: ٧٣
أحمد عزة العابد ١٣٤
أحمد فؤاد الأهواني: ١٢٠
أحمد فيضي باشا: ١٢٩، ١٣٠
أحمد قدري: ١٤٠
أحمد كرد علي: ٨٥، ١١٧، ١١٩
أحمد نويلاتي: ٩٢، ٩٣، ١١٦
إدريس بن عبد الله الأكبر: ٤٧.
أديب الروماني: ٥٦
أديب مردم بك: ٨٥
أسعد داغر: ١٦٣
إسكندر عمون: ١٤٤، ١٤٥
إسماعيل الخديوي: ٢٩، ٣٠
إسماعيل قصير نسكي: ١١٩، ١٢٠، ١٢١
الأشراف الحسنيين: ٤٧
الأفغان: ١٧٣
الأكراد: ٢٨
آل بسام: ١٧٦
آل الخطيب: ٨٧، ١٦٥
آل العظم: ١٠٢
الفريد دي موسيه: ٢٥
آل الكيلاني: ٨٧
الألمان: ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩
إلياس بن مضر: ١٨١
أمان الله خان: ١٧٤
امرؤ القيس: ١٧
الأمير= توفيق الخديوي
أمين الحسيني: ١٤٦
الأمين العمودي: ٤٥
الإنكليز: ١٣٤، ١٣٦، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٥
أنور باشا: ١٢٧، ١٧٦
أهل حوران: ١٣٨
بدر الدين الحسني: ٥٦
بديع الزمان الهمذاني: ٤٩
برسي كوكس: ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠
بني هلال: ٧٣
البهاء زهير: ٢٠
بهجة الأثري: ١٦٢
بهجة البيطار: ٥٥
بير صاحب: ١٧٣
بيكو: ١٦٣
تامر حمادة: ١١٠
تقي الدين: ١٠٧
تماضر بنت عمرو= الخنساء
توفيق بك: ١٤٣
توفيق الخديوي: ٢٢، ٢٣، ٣١
توفيق الناطور: ١٦٤
ثريا عارف: ١٣٠
ثعلب: ٤٩
ثمود: ٨٩
الجاحظ: ٥٤

جامعة الدول العربية: ٩٧، ١٦١
الجبهة العسكرية السورية: ١٦٥
جرجي زيدان: ١٥٠
جساس: ١٨٢
جلال البخاري: ٩٨، ١٤٠
جماعة الوحدة العربية: ١٤٦، ١٤٧
جمال باشا: ٩٦، ١٤٥
جمال الدين القاسمي: ٩٣، ٩٦، ٩٧
جمال القوتلي: ٨٥
جمعية الاتحاد والترقي: ١٣١، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٤، ١٥٤
جمعية الرابطة الشرقية: ١٧٠
جمعية الشباب المسلمين: ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٧.
جمعية الشباب المسيحية: ١٦٨
جمعية الشورى العثمانية: ١٢٢، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥
الجمعية العربية الفتاة: ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥
جمعية العلماء المسلمين الجزائرين: ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٢
جمعية العهد: ١١٥، ١٥٥، ١٦١
الجمعية القحطانية: ١١٥
جمعية القديس يوحنا الدمشقي: ٩٤
جمعية النهضة السورية: ١٣٧
جمعية النهضة العربية: ١٠٣، ١٠٤، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٧، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٧، ١٧٦
جميل صليبا: ٥٦
جميل مردم بك: ٨٥، ٩٧، ١١٥، ١١٧، ١٣٩
الجناب العالي = عباس حلمي
ج. هـ. ريتشارد: ١٢٤
جول سيمون: ٢٦
حاتم الطائي: ١٨٢
حاجب بن زرارة: ١٨٢
الحارث بن عباد: ١٨٢
حافظ إبراهيم: ٢٥، ٥٢
الحركة الكمالية: ١٦٩، ١٧٣
حزب الأحرار الدستوريين: ١٧٠، ١٧٣
حزب اللامركزي الإداري العثماني: ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦
الحزب الوطني السوري: ١٦٤
الحزب الوطني المصري: ١٢١
حسن حمادة: ١١٩
حسن الرزق: ١١٤
حسن السبط: ٨٧
حسن صالح النجدي: ١٢٤
الحسن الهمداني: ٩٢
حسين أحمد الفيض أبادي: ٥٣
حسين بير علي: ٥٤، ٥٥
حسين عوني: ١٣٨
حقي العظم: ١١٩، ١٢١، ١٢٦، ١٢٧، ١٤٤

حكمت المرادي: ٨٥
الخرشي: ٤٨
الخطابي: ٩٣
خليل المرادي: ٨٨
خليل مطران: ٢٤
خندف: ١٨١
الخنساء: ١٨١
داود بركات ١٤٤
الادي: ٦٦
الدروز: ١٣٨
الدولة الصنهاجية: ٥٧
الدولة الهاشمية: ١٥٦
الربيع بن زياد: ١٨١
ربيع قري اليعلاوي: ٤٨
رشيد رضا: ٥١، ١٢٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٢
رشدي باشا: ٢٣
رشدي الحكيم: ٨٥، ٩٦، ١١٤، ١١٦
رضا الركابي: ١٦٤
رضا مردم بك: ٥٨
رفيق العظم: ٩٨، ١١١، ١١٧، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٦، ١٢٧، ١٤٤، ١٤٧
روتر: ١٢٧
الروس: ١٥٥
الرومان: ٣٣، ٦٦
ريطة بن سعيد: ١٨١
زكي الخطيب: ٨٣، ٨٥، ٩٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٤، ١١٦
الزمخشري: ٩٣
زياد بن سفيان: ١٨١
زيد بن علي (الأمير): ١٦٣
الزيدية: ١٣٤
سامي العظم: ٨٣
سايكس: ١٦٣
سعيد باشا: ٢٨
السعيد الزاهري: ٤٥
سعيد الموجي: ٥١
السكن: ١٨١
سلامة الحجازي: ١٠٥
السلطان عبد الحميد: ٩٨، ١٠٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٧، ١٤٠
سليمان العدساني: ١٥٠
سليمان فيضي: ١٥٢
سليم البخاري: ٩٨
سليم البشري: ٥١
سليم الجزائري: ٩٨، ١١١، ١١٢، ١١٥
السمالوطي: ٥١
السموأل: ١٨٢
السنهوري: ٤٨
سهل بن هارون: ٤٩
سيف الدين الخطيب: ٩٦، ١٠٧، ١١٥، ١٤٠
شاتيليه: ١٤٣
شاعر النيل: ٢٥
الشافعي: ١٨
شركة المساجيري ماريتيم: ١١٧

شريف باشا: ١٤٥
الشريف حسين بن علي: ٥٤، ١٣٣، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٧٧
شريف حيدر: ١٥٤
شريف الفاروقي: ١٥٥، ١٥٦
شريف قلة = الشريف حسين
شفيق الحلبي: ١٠٩
شفيق غربال: ٩٧
شكري الجندي: ١٠٢، ١٠٥
شكري العسلي: ٩٨، ١١١
شكيب أرسلان: ٣٦، ٣٧
الشناقطة: ٥٥، ٧٥
الشهابيون: ١٠٢، ١٣٨
شوقي المؤيد العظم: ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢
صادق شنن: ٣٠
صالح خرفي: ٧
صالح رجب: ١٢٧
صالح الشاذلي: ١٢٧، ١٢٩
صالح عبد الحي: ١٠٥
صالح قتلان: ١٢٦
صالح قنباز: ٩٦
الصاوي: ٤٨
صبحي المليحي الإنكليزي: ٨٣، ٨٥، ١١٦
صخر بن عمرو: ١٨١
صلاح الدين الخطيب: ١٠٨
صلاح الدين العظم ٨٣، ١١٣، ١١٧، ١٤٠
صلاح الدين القاسمي: ٨٣، ٨٥، ٩٠، ٩٦، ١٠٦، ١١٠، ١١٤، ١١٦
الطائيين: ٤٩
طالب النقيب: ١٤٧، ١٥٢
طه حسين: ١٧٠
طه الهاشمي: ١٧٠
طاهر الجزائري: ٩١، ٩٣، ١١١، ١١٣، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٤١
طه يوسف رجب: ١٢٣
طلعت حرب: ١٢١، ١٧٢
الطليان: ١٤٢
الطيب العقبي: ٤٥، ٦٥
ظافر القاسمي: ٩٠
عارف حكمت: ١٣٠
عارف الشهابي: ٨٣، ٩٦، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٣، ١١٤
العباس بن الأحنف: ٢٠
عباس حلمي: ٣٥
عباس فرحات: ٦٨
العباسيون: ٤٧
عبد الباقي الأفغاني: ٥٤
عبد الحفيظ: ١٥٠
عبد الحميد بن باديس: ٦، ٤٣، ٥٣، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٦

عبد الحميد الزهراوي: ٩٣، ٩٨، ١٤٥
عبد الحميد سعيد: ١٧١، ١٧٢، ١٧٥
عبد الحي الكتاني: ١٠٧
عبد الرحمن رشدي: ٣٢
عبد الرحمن شهبندر: ١١٦
عبد الرحمن الكواكبي: ٩٦
عبد الرحيم الخطيب: ٨٧
عبد الرزاق البيطار: ٩٧
عبد السلام هارون: ١٦٨، ١٦٩
عبد العزيز آل سعود: ١٤٧، ١٤٨، ١٥٣، ١٥٦
عبد العزيز العتيقي: ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢
عبد العزيز فهمي: ١٧٥
عبد العزيز الوزير التونسي: ٥٣، ٥٤
عبد الغني محمود: ٥١
عبد الفتاح الجندي: ٨٥
عبد الفتاح قتلان: ١٩، ١٤١، ١٤٢
عبد الفتاح كيرشاه: ١٧٠
عبد القادر الجيلاني: ٨٧
عبد القادر الخطيب: ٨٨
عبد القادر زيان: ٤٥
عبد القادر المبارك: ٥٦
عبد الكريم الخليل: ١٠٠، ١٠٢، ١٠٩، ١١٥
عبد الكريم سلمان: ٢٣
عبد الله أبو الفتح: ١٦٧
عبد الله بن الحسين: ١٦٢
عبد الله جودت: ١٢٢
عبد اللطيف حمزة: ١٢٠
عبد المحسن الكاظمي: ١٦١
عبد المنعم خلاف: ١٦٩
عبد المهيمن أبو السمح: ١٤٦
عبده الحمولي: ١٠٥
عبده المويلحي: ١٧٤
عبد الوهاب المليحي الإنكليزي: ٩٨، ١١١
عثمان العظم: ٩٨
عثمان مردم بك: ٨٣، ٨٥، ٩٧، ١١٥، ١١٧
عجاج نويهض: ١٠٠
عدنان: ١٨١
عدنان الأتاسي: ٥٦
العربي اتبسي: ٤٥
عروة بن المنبه: ١٨٢
العزيز = توفيق الخديوي
عزيز علي المصري: ١١٥، ١٣٤، ١٤٠، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢
العلويون: ٤٧
علي بن أبي طالب: ١٨
علي زواك: ١٢٩
علي الطنطاوي: ١١٦
علي عبد الرازق: ١٧٠
علي الليثي: ٢٩، ٣٠.
علي مبارك: ٣١
علي يوسف: ١٠١، ١٢١، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٧٤

عمار بن زياد: ١٨١
عمر الإبراهيمي: ٤٧
عمر بن الخطاب: ١٨١
عمر الرافعي: ١٢٢
عمر طوسون: ١٧١
عمرو بن هند: ١٨٢
عوف بن محلم: ١٨٢
عوني عبد الهادي: ١٤٠
غورو: ١٦٤، ١٦٥
غيلان: ٥٥
فؤاد الخطيب: ١٥٥، ١٦٠، ١٦١
فارس الخوري: ٩٨، ١١١، ١١٢، ١١٣
فاطمة بنت الخشرب = أم الكملة
فايز الشهابي: ٨٥
فايز العظم: ١٠٢، ١٠٩، ١١٤
فخري باشا: ١٥٨
فرفور يوس: ١٢٠
فريد اليافي: ١٠٧، ١٠٨
فكتور هوغو: ٢٥
فوزي البكري: ١٥٤
فيدال: ٣١
فيصل بن الحسين: ٥٦، ١١٦، ١٥٤
قحطان: ١٨١
قضاعة: ١٨١
كافور: ٢١
كامل القصاب = محمد كامل القصاب
كمال إتاتورك: ١٧٤، ١٧٥
كمال الحلباوي: ٨٥
كلمنصو: ١٦٣، ١٦٤
لافونتين: ٢٣
لامارتين: ٢٣
لطفي الحفار: ٨٣، ٨٥، ٩٦، ١١٤، ١١٦
لوشاتيليه = شاتيليه
ماسنيون: ١٤٤
المابين: ١٠٦
مالك بن دينار: ٩٤
مبارك الميلي: ٤٥
المبرد: ٥٤
المتنبي: ٢٠، ٢١، ٢٢، ٣٠، ٤٩، ١٧٩
محايري: ٥٦
محب الدين الخطيب: ٦، ٧، ٩، ٧٩، ٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦.
محمد آغا: ١٠٥
محمد أبو جمعة القلي: ١٠١، ١١٨

محمد أبو القاسم البوجليلي: ٤٨
محمد إسماعيل الخطيب: ١٦٧
محمد الأمير: ٤٨
محمد بخيت المطيعي: ٥١
محمد البشير الإبراهيمي: ٦، ٧، ٨، ٩، ٣٩، ٤١، ٤٣، ٤٥، ٤٧، ٧٨، ١٧٨
محمد جمال الحفار: ٨٥
محمد الحفار: ٨٣، ٨٥، ١١٦
محمد الخضر حسين: ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢
محمد خير الدين: ٤٥
محمد رشيد رضا = رشيد رضا
محمد شريف حاج سعيد: ٦٨
محمد شريف سعدان: ٦٨
محمد الشريقي: ١٤٦
محمد عبد الرحمن برج: ٧
محمد عبد الرزاق حمزة: ١٤٦
محمد عبد الله زيدان الشنقيطي: ٥٤
محمد عبده: ٩٦، ١٢٦
محمد علي باشا: ٢٨
محمد علي مسلم: ٩٣، ٩٨
محمد العمري الجزائري: ٥٤
محمد كامل الخطيب: ١٤٥
محمد كامل القصاب: ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٤
محمد كرد علي: ٨٥، ٩٣، ٩٨، ١٠١، ١٠٢، ١١١، ١١٣، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٣٧
محمد المحمصاني: ١٤٧، ١٥٣
محمد المكي الإبراهيمي: ٤٨، ٧٦
محمود سامي البارودي: ١١٨
محمود شوكت: ١٤٠
محمود القيسوني: ١٥٩، ١٦٠
محمود كرد علي: ٨٥
محمود محمد شاكر: ١٦٩
مخزوم: ١٨١
مدركة: ١٨١
مرجان الجزائري: ١٢٧
مساعد اليافي: ١٤٣
المسعودي: ١٥٠
مصطفى بك رفعت: ٣٧
مصطفى الشهابي: ٩٦، ٩٧
مصطفى صادق الرافعي: ١٢١
مصطفى الطنطاوي: ١١٦
مصطفى القباني: ١١٩، ١٤١
مظهر رسلان: ١٠٢، ١١٠
المعز بن باديس: ٥٧
المنتدى العربي: ١١٥
مهيار الديلمي: ٧٥
نادي القلم: ١٧٠
ناظم باشا: ١٣٨
نامق كمال: ٩٨
نجيب الشهابي: ٨٣
نجيب الأرمنازي: ١٦٧
نسيب البكري: ١٥٤
نصوحي البخاري: ٩٨
نمزار: ٢٩

نــوري السعيــد: ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢
نيازي باشا: ١٢٧، ١٧٦
هاشم بن المغيرة: ١٨١
هافاس: ١٢٧
هانوتو: ٩٦
هاني الجلاد: ٨٨
الهنود: ١٢٥
الوكالة العربية: ١٥٥، ١٥٨
ياقوت الحموي: ٨٧
يحيى إبراهيم: ٣١
يحيى الدرديري: ١٧٢
يوسف الدجوي: ٥١
يوسف ياسين: ١٤٦
اليونانيون: ١٢٥

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الأماكن

أثينة: ١٣٣
الإحساء ١٤٧
أدرنة: ٩٢
الأردن: ١٠٢
أرض خولان: ٨٧
الأزهر: ٤٨، ٥١، ١١٩، ١٦٧
الأستانة: ٣٦، ١٠٢، ١١٥
إستانبول: ٩٤، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٨، ١١٠، ١١٢، ١١٤، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٥٥، ١٥٧
الاسكندرية: ٨٩، ١٠٢، ١٢١، ١٣٦
اصطيف: ٦٠
الأطلس: ٤٧
إفريقية: ٣٥
أمريكة: ١٠٢
الأناضول: ٢٩، ٩٢
أنفرس: ٣٦
إنكلترة: ٣٤
أوراس: ٤٧
أوران: ٣٥
أوربة: ٣٢، ٣٣، ١٦٣، ١٦٤
باب الجابية: ٩٣
باب الحديد: ١١٧
باب الخلق: ١١٨، ١٧٠
باريز: ٢٣، ٢٥، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ١٤٥، ١٦٧
باغجة سراي: ١١٩
باكستان: ٥٤، ٧٦
بجاية: ٤٨
البحر الأبيض: ١٢٦
البحر الأحمر: ١٢٣
بحيرة طبرية: ١٦٧
البركة الناصرية: ١١٧
برلين: ١٣٣
البسفور: ٣٦، ١٣٩، ١٤٠
بشكطاش: ١٤٠
البصرة: ١٠٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢
بصرى: ١٣٨
بغداد: ٨٧، ١٥٦
بلجيكة: ٣٦
البلقان: ٤٢
بندر شهر: ١٤٨، ١٤٩
البنك الأهلي: ١٥٥
بودوك: ١٢٣
بور سعيد: ٥٣
بولاق: ٨٨
بومباي: ١٤٧، ١٤٨
بيروت: ٨٩، ٩٤، ٩٧، ٩٩، ١٠٠،

١٠٧، ١٠٩، ١١٥، ١١٦و ١١٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٥، ١٥٣، ١٦٤، ١٧٧
بيقوز: ١٣٩، ١٤٠
بيوك آضه: ١٠٦
تركية: ١٧٣
تلمسان: ٦٥، ٦٧، ٧٠
تونس: ٤٨، ٥٧، ٥٩، ٦٠
ثنية العقاب: ٨٧
الجامع الأموي: ٥٦، ٩٠، ١٦٥
جامع حسان: ٩٣
جامع الزيتونة: ٥٧، ٦٣
جامع الفاكهاني: ٥١
جامعة القاهرة: ١٦٨
جامعة مونبليه: ٣٣
جدة: ٨٩، ١٥٩، ١٦١
الجزائر: ٦، ٧، ٣٥، ٤٧، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤
جزيرة الروضة: ١٤٦
جزيرة القرم: ١١٩
جزيرة قمران: ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٧٧
جسرين: ١٣٧
جمع: ١٣٥
جنبرلي طاش: ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥
جنيف: ٣٦
جيزلا: ١٢٣
حاصبيا: ٩٩، ١١٢
الحجاز: ٥٧، ٦٠، ٧٦، ٩٢، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٦، ١٧٧
الحديدة ١١١، ١١٢، ١١٥، ١١٩، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٩، ١٧٧
حراز: ١٣٤
الحرم النبوي: ٥٣، ٥٤، ٥٧، ٧٦
حلب: ٩١
حماة: ٨٧، ٨٨، ١١٤
حوش الغورية: ١١٩
حي الحسين: ١١٩
حي العشار: ١٤٩
حي العقيبة: ٨٧
حيفا: ٥٣، ٨٩، ١٦٧
حي القيمرية: ٨٨، ١١٦، ١٦٥
حي المارستان: ١١٦
خان الخليلي: ١٤١
الخزانة التيمورية: ٩٢
خليج السويس: ٨٩
الخليج العربي: ١٤٧، ١٤٨، ١٧٦
خيبر: ٨٩
دار الأهرام: ١٥٥
دار الدعوة والإرشاد: ٥١، ١٤٥، ١٤٧، ١٧٦

دار الشبان المسيحية: ١٦٨
دار العلوم: ١٦٨
دار الكتب الظاهرية: ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٤
دار الكتب المصرية: ٩٢، ١١٨، ١١٩، ١٢٠
دار المؤيد: ١٢٠، ١٤٢، ١٤٣
دار المعارف: ٧٣
دجلة: ١٤٩
درب العتبة: ١٤٢
دعّان: ١٣٤
دمشق: ٥٥، ٥٦، ٧٤، ٧٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٧٦، ١٧٧
الديار الشامية: ٩٢
ديوان يورلي: ١٠٥
ديوبند: ٥٤
رابغ: ١٥٨، ١٥٩
راشيا: ٩٩
الرواق العباسي: ٥١
روسية: ١٢٠
روشن قهوه سي: ١٠٥
الروملي: ٩٢
الزرقاء: ٩٢
الست الشامية: ١١٧
سلانيك: ٩٢
السليمية: ١٤٠
السودان: ١٣٦
سورية: ٦، ٧٦، ١٠٢، ١٣٧، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٥٣، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧
السوربون: ١٦٧
سوق الحميدية: ١١٦
سوق السلاح: ٩٣
سويسرة: ٣٥
السويس: ٨٩، ١٢٣، ١٤٧، ١٥٩
سينما كوزمو: ١٧١، ١٧٢
شارع الاستئناف: ١٦٨، ١٧٠
شارع حوش قدم: ١١٩
شارع خيرت: ١١٧، ١١٩
شارع شريف باشا: ١٥٥
شارع الشيخ ريحان: ١١٧، ١١٩
شارع طارق بارزي: ١٠٥
شارع غيط العبد: ١٦٩
شارع القلعة: ١٤٢
شارع محمد علي: ١٤٢
شارع المدابغ: ١٥٥
شارع نوبار: ١٦٨
الشام: ٥٧، ١١٠، ١٣٧
شط العرب: ١٤٨، ١٤٩
الصالحية: ١١٦
الصحراء الوهرانية: ٦٦، ٧٥
صفد: ١٦٧

صنعاء: ١٢٨، ١٣١، ١٣٤
طرابلس الغرب: ٩٢، ١٤٢
طنطا: ٨٩، ١٢١
عذراء: ٨٧، ٨٨
عدن: ١٢٢، ١٢٣، ١٤٧، ١٤٨
العراق: ٧٦، ٩٢، ١٤٤، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٦١
عرفات: ٨٩
عسير: ١٢٥
عمان: ٨٩
عمران: ١٣٤
غلاطية: ١٠٢
غوطة دمشق: ٨٧
الغوطة الشرقية: ٨٧
غيط العمدة: ١١٨
فاس: ٤٨
الفاو: ١٤٨، ١٤٩
الفرات: ١٤٨
فرنسة: ٣٥، ٥١، ٥٨، ٦١، ٦٦
فلسطين: ٩١، ١٦٧
القاهرة: ٦، ٢٩، ٤٨، ٥١، ٥٣، ٨٩، ٩٢، ٩٤، ١٠٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٢، ١٢٧، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٧
قبة النسر: ٥٦
قسنطينة: ٤٧، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦٧، ٦٩
قصر العيني: ١٧٣
قلعة بني حماد: ٤٨
القيروان: ٥٧
قيوم قيو: ١٠٢، ١٠٥، ١٠٩
كركسون: ٣٤
كلية الآداب: ١٧٠، ١٧٣
الكلية الأمريكية: ١١٧
الكلية الحربية: ١٥٥
كوبري الملك الصالح: ١٤٦
الكويت: ١٤٨، ١٥٠
لايبسك: ١٣٣
لبنان: ١٦٥
ليبية: ١٤٢
مادنة الشحم: ٩٨، ١١١
مالطة: ٥٤
مجلس النواب: ١٧٣
المجمع العلمي العربي: ٩٦، ٩٨
المجمعة: ١٤٧
محطة البرامكة: ١١٦
مدائن صالح: ٨٩
مدرسة الترقي النموذجية: ٩٠
مدرسة الحقوق: ٣١
المدرسة السلطانية: ٥٦، ٧٧
مدرسة الدعوة والإرشاد = دار الدعوة والإرشاد
مدرسة عبد الله العظم: ٩٣
مدرسة العشائر: ١٣٢
موره: ٢٩
المدينة المنورة: ٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٣، ٧٦، ٨٨، ٨٩، ١٥٨، ١٦٢، ١٧٧

مرسيليه: ٣٣
المستبدل: ١٢٤
المسجد الحسيني: ٥١
مسقط: ١٤٨
مشهد الحسين: ١٤١
مصر: ٧، ٢٩، ٣٣، ٣٦، ٧٣، ١٠١، ١١١، ١١٣، ١٣٦، ١٤١، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦١، ١٦٧، ١٧٣، ١٧٤
المطبعة الأميرية: ١٥٦
مطبعة جزيرة العرب: ١٣٢
المطبعة السلفية: ٦، ٩٢، ١١٩، ١٤١، ١٤٢، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠
مطبعة المؤيد والآداب: ٥، ٧
مطبعة الموسوعات: ١٢١
معان: ٨٩
معاون بك خان: ١٠٢، ١٠٥، ١٠٧
المعهد الباديسي: ٧٠
معهد الدراسات العربية: ٩٧
المغرب: ٧٦
المغرب الأقصى: ٤٧
المغرب الأوسط: ٤٧
مقبرة الدحداح: ٨٧
مكتب الشيخ صالح: ٣٠
مكتب عنبر: ٩٠، ٩٢
مكتبة آل الصافي: ٥٥
مكتبة آل مدني: ٥٥
مكتبة آل هاشم: ٥٥
مكتبة بشير آغا: ٥٥
مكتبة رباط سيدنا عثمان: ٥٥
مكتبة السلطان محمود: ٥٥
مكتبة عارف حكمت: ٥٥
مكتبة عبد الجليل براده: ٥٥
مكتبة المعارف: ١٦٨
مكتبة الهلال: ١٦٨
مكة المكرمة: ٨٨، ٨٩، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٨١
مناستر: ٩٢، ١٢٧
المنيرة: ١٤٢
مونبيليه: ٣٣، ٣٤
ميدان عابدين: ٢٣
نجد: ١٤٧
نجدة: ٢٩
الهرمل: ١١٠
الهند: ٥٤، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٥
وادي اليتم: ٩٩، ١١٢
وقعة فخ: ٤٧
وهران: ٦٥، ٦٦
يافا: ٨٩، ١٠٧
اليمن: ٩٢، ١١١، ١١٢، ١١٦، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧
ينبع: ١٥٨، ١٥٩
يورتغال: ١١٧
اليونان: ١٢٥

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الكتب والدوريات

ابن المقفع: ١٢٠
أبو العينين: ١٤٣
اى تحاد الإسلامي: ١٤٣
اجتهاد: ١٢٢
أسرار الضمائر العربية: ٧٣
الإسلام وأصول الحكم: ١٧٠، ١٧٣
الإسلام والنصرانية: ٩٦
الأشقياء: ٢٥
أشهر مشاهير الإسلام: ٩٨
إصلاح المنطق: ٤٩
الإطراد والشذوذ في العربية: ٧٤
أطواق الذهب: ٩٣
الأغاني: ٥٥
إقدام: ١٤٣
الإكليل: ٩٢
الألفاظ الكتابية: ٤٩
ألفية بن معطي: ٤٩
ألفية العراقي: ٤٩
ألفية بن مالك ٤٩، ٥٠
أم القرى: ٩٦
الأهرام: ٢٩٤، ١٠٧، ١٤٤، ١٦٧، ١٧٤
إيساغوجي: ١٢٠
البخاري: ٥١
البصائر: ٦٨
بقايا فصيح العربية: ٧٣
البيان والتبيين: ٥٤
ترجمان: ١١٩
التسمية بالمصدر: ٧٤
تلخيص المفتاح: ٤٩
التمدن الإسلامي: ٧
التوراة: ١٧٠
التوضيح: ٥٣
الثقافة: ٧
ثمرات الفنون: ٩٧، ١١٧
الجريدة الرسمية: ٢٣، ٣١
جزيرة العرب: ١٣٢
جمع الجوامع: ٤٩
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية: ٩٧
الحكمة المشرقية: ٥٤

حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام: ٧٤
الحماسة: ٤٩
ديوان ذي الرُّمة: ٥٥
رسالة في ترجيح أن الأصل في بناء كلمات العربية ثلاثة على أحرف لا اثنان: ٧٤
رسالة في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك: ٧٤
رسالة في مخارج الحروف: ٧٤
رقم الحلل في نظم الدول: ٤٩
الزهراء: ٦، ١١٨، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٧، ١٧٤، ١٧٧
سلك الدرر: ٨٨
سيرة الحرمين: ١٥٦
السياسة: ١٧٣
شرح ابن عقيل: ٩٣
شعب الإيمان: ٧٤
الشفق الباكي: ١١٨
الشهاب: ٦٨
الشوقيات: ٥، ٧، ٣٦، ٣٨
صحيح مسلم: ٥٣
الصفات التي جاءت على وزن أفعل: ٧٤
الضياء: ٩٤
طار الخرج: ١٣٨، ١٣٩، ١٤١
الطريق: ١٧٢
الظاهر: ١٠١، ١١٨
العاصمة: ١٦٣
العالم الإسلامي: ١٤٣
العزلة: ٩٤
علي بك أو فيما هي دولة المماليك: ٢٣
عيون البصائر: ٨، ٧٣
الغارة على العالم الإسلامي: ١٤٣
غمرة النضال: ١٥٢
الفتاوى: ٧٤
الفتح: ٦، ١١٨، ١٤٤، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٧
الفصيح: ٤٩
فهرس الفهارس: ١٠٧
القبلة: ١٥٦
الكافية الشافية: ٤٩
الكامل: ٥٤، ١٥٠
كاهنة الأوراس: ٧٤
كفاية المتحفظ: ٤٩
اللواء: ١٠٧
المؤتمر العربي الأول: ١٤٥
المؤيد: ١٠١، ١٠٧، ١١٨، ١٢١، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٧٣، ١٧٦
ما أخلت به كتب الأمثال: ٧٤
مجلة الأحكام الشرعية: ١١٩

محب الدين الخطيب ودوره في الحركة العربية: ٨
محاضرات عن القومية العربية: ٩٧
محاضرات وأبحاث: ٧٤
مروج الذهب: ١٥٠
معجم البلدان: ٨٧
مع الرعيل الأول: ٩٦
مع الشعر الجاهلي: ١٧٠، ١٧٣
المعلقات السبع: ٥٤
المقتبس: ١٠١، ١١٨، ١٣٧
المقتطف: ٩٤، ١١٧
مقدرات العراق: ١٥٦
المقطم: ١٠٧، ١٦١
مكتب عنبر: ٩٠
ملحمة رجزية: ٧٤
المنار: ١٤٣، ١٥٢
منتخبات تواريخ دمشق: ١٠٧
الموطأ: ٥١، ٥٣
نظام العربية: ٧٤
النقايات والنفايات في لغة العرب: ٧٣
نموذج الأعمال الخيرية: ١٠٧
النهضة العربية: ١٣٣، ١٣٦
الهلال: ٩٤، ١٦٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحتوى

المقدمة ..... ٥ ـ ٩
أمير الشعراء أحمد شوقي ..... ١١ ـ ٣٨
دفاع عن الشعر العربي ١٧
الاحتراف أفسد الشعراء ٢٠
استثناء المتنبي ٢٠
المجال الحقيقي للشعر ٢١
شوقي يدافع عن نفسه ٢٢
طموح شوقي إلى التجديد ٢٢
تعلم المرأة ٢٤
الجمع بين الشعر والنثر ٢٤
وظيفة الشعر ٢٦
زاد الشاعر ٢٦
أرومة الشاعر ٢٩
ولادته ونشأته ٢٩
اللقاء الأول بالخديوي إسماعيل ٣٠
رحلة التعليم ٣٠
اللقاء الأول بالخديوي توفيق ٣١
البعثة إلى فرنسة ٣٢
الشاعر في فرنسة ٣٣
رحلة إلى إنكلترة ٣٤
الرحلة إلى الجزائر وملاحظاته على تلك البلاد ٣٥

في مؤتمر المستشرقين ٣٦
لقاء الشاعر الأمير شكيب أرسلان ٣٦
اقتراح الأمير تسمية شعر شوقي الشوقيات ٣٦
والد شوقي أول من جمع شعره ٣٧
مصطفى رفعت يهيىء الديوان للنشر ٣٧
شوقي يعد بنشر إنتاجه الشعري والنثري سنوياً ٣٨
العلامة المجاهد محمد البشير الإبراهيمي ٣٩ـ٧٨
المرحلة الأولى ٤٧
المولد والنسب ٤٧
النشأة ٤٨
المرحلة الثانية ٥١
التدريس ٥١
الرحلة إلى القاهرة ولقاؤه علماءها وأدباءها ٥١
المرحلة الثالثة الرحلة إلى المدينة المنورة ٥٣
المرحلة الرابعة: الرحلة إلى دمشق ٥٦
المرحلة الخامسة ٥٧
أعمالي في الجزائر بعد رجوعي من الحجاز والشام ٥٧
تأسيس جمعية العلماء المسلمين ٦١
الاستعمار المادي والاستعمار الروحي: ٦٣
الأصول التي يرجع إليها في محاربة الاستعمار ٦٣
نشاط الإبراهيمي في التعليم ٦٥
إبعاده إلى الصحراء ٦٦
رئاسته لتحرير جريدة البصائر ٦٨
الانتقال إلى التعليم الثانوي: ٦٩
مالية جمعية العلماء ٧٠
أثر أعمالي وأعمال إخواني في الشعب الجزائري ٧١

مؤلفاته ٧٣
خلاصة السيرة ٧٦
مذكرات محب الدين الخطيب ..... ٧٩ ـ ١٨٤
نسب الأسرة ٨٧
مولد محب الدين ونشأته ٨٨
الشيخ طاهر الجزائري ٩١
الشيخ أحمد نويلاتي ٩٢
مدرسة عبد الله باشا ٩٣
المطالعة ٩٤
العرب والعربية ٩٤
أثر ابن تيمية ٩٤
قدوة التاريخ ٩٥
رسالة العرب الخالدة ٩٥
عقيدة ودعوة ٩٥
بداية العمل ٩٥
الخطة المبصرة ٩٦
باكورة القلم ٩٧
حلقة صغيرة ٩٧
في المدرسة الثانوية ٩٨
في الطريق إلى الجامعة ٩٩
في إستانبول ١٠١
جهل أبناء العرب لغتهم ١٠١
الصحافة والصحف الداعية إلى العروبة ١٠١
العلم أول خطوة ١٠٢
تعليم النحو وطريقته ١٠٣
جمعية النهضة العربية ١٠٣

لقاء في مقهى ١٠٤
رقابة الضبطية ١٠٦
من دمشق إلى الحديدة ١١١
أمل وعمل ووداع ١١٣
بين دمشق وإستانبول ١١٤
المنتدى الأدبي وما بعده من الجمعيات ١١٥
دور جمعية النهضة العربية في الأستانة ١١٥
الوداع إلى اليمن ١١٦
دعوة مسلم روسي لمؤتمر إسلامي ١١٩
دار الكتب وفهارسها ١١٩
الروسي المحاضر ١٢٠
اللجنة التمهيدية للمؤتمر الإسلامي ١٢١
جمعية الشورى العثمانية وفروعها ١٢٢
إلى عدن فالحديدة ثم إلى جزيرة قمران ١٢٢
القنصل ١٢٤
امتيازات أجنبية ١٢٥
في المقهى ١٢٥
الفرع الجديد لجمعية الشورى العثمانية ١٢٥
ثورة أنور ونيازي ١٢٧
إعلان السلطان عبد الحميد للدستور والموقف في اليمن ١٢٩
بين جمعية الشورى وجمعية الاتحاد والترقي ١٣١
تعليم وتمويل ١٣١
أناشيد ١٣٢
مطبعة جزيرة العريب وجريدتها ١٣٢
ثورة الإمام يحيى والسعي للاعتراف له باليمن بمثل مركز شريف مكة ١٣٣
مكاتبة الإمام وجوابه ١٣٤

عودة إلى دمشق ١٣٦
بين العرب والأتراك ١٣٦
جميعة النهضة السورية ١٣٧
سياسة التتريك ١٣٧
جريدة طار الخرج ١٣٧
عودة إلى معهد الحقوق في إستانبول ١٣٩
ثورة الجيش في إستانبول ١٤٠
العودة إلى القاهرة ١٤١
المكتبة السلفية وجريدة المؤيد ١٤١
عدوان الطليان وحرب البلقان ١٤٢
كتاب الغارة على العالم الإسلامي ١٤٣
الحركة الطورانية والحركة العربية ١٤٤
حزب اللامركزية وجمعية العربية الفتاة ١٤٤
المؤتمر العربي الأول في باريس ١٤٥
المعلم في مدرسة دار الدعوة والإرشاد ١٤٥
الحرب العالمية الأولى ١٤٦
مهمة قومية في الخليج العربي ١٤٧
دخول الدولة العثمانية الحرب ١٤٨
الاعتقال في البصرة ١٤٨
مطالعة السجين ١٥٠
المراسلات ١٥١
احتلال ووعد بالجلاء ١٥١
غرض الرحلة والعودة ١٥٣
الثورة العربية الكبرى ١٥٤
الوكالة العربية للشريف في مصر ١٥٤
محب الدين في الحجاز ومواقف الشريف حسين ١٥٦

الجيش العربي في دمشق ١٦٢
الحكومة في دمشق تصدر الجريدة الرسمية ١٦٢
اللجان الوطنية ١٦٣
معارضة الجمعية العربية الفتاة ١٦٤
إنذار غورو ١٦٤
معركة ميسلون ١٦٥
الفرار إلى مصر ١٦٧
التحرير بالأهرام ١٦٧
تأسيس مجلة «الفتح» ونقابة دور النشر ١٦٨
تأسيس جمعية الشباب المسلمين في الوطن العربي الإسلامي ... ١٦٨
تغريب مصر الفكري والثقافي وموازينه المختلفة ١٦٩
طلعة حرب يتخاذل ١٧١
أمير الشعراء وموقفه العظيم ١٧١
عبد الحميد سعيد الرئيس الأول للجمعية ١٧٢
المجلس الإداري الأول ١٧٢
صدمة الإلحاد ودعاته ١٧٣
ردة الفعل واستعداء القضاء ١٧٣
تواريخ في حياة محب الدين ١٧٦
ملحق الشباب الجزائري كما تمثله لي الخواطر للإبراهيمي ١٧٨
الفهارس ١٨٥
فهرس الأعلام والشعوب والهيئات ١٨٧
فهرس الأماكن ١٩٧
فهرس الكتب والدوريات ٢٠٣
المحتوى ٢٠٦

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

هذا الكتاب

رِحلةٌ عبرَ الزَّمانِ والمكانِ بأقلامِ ثلاثةٍ من أعلامِ النَّهضةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ في العصرِ الحديثِ يتحدَّثونَ ببيانِهم الرائعِ عن حياتِهم من خلالِ حياةِ أمةٍ تُدافعُ عن دينِها ولسانِها ووُجودِها قوَّةً مُوحَّدَةً .

أوَّلُهم أميرُ الشُّعراءِ « أحمد شوقي » فيثارةُ العربِ ولسانُ حالِهم وآمالِهم .

وثانيهم : المُجاهدُ العلَّامةُ « محمَّد البشير الإبراهيمي » رجُلُ الأمَّةِ في الملمَّاتِ .

وثالثُهم المفكِّرُ العربيُّ الإسلاميُّ « محبّ الدين الخطيب »

في هذا الكتابِ تجدُ التَّاريخَ والسِّياسةَ والتَّربيةَ ولكنَّكَ تجدُ قبلَ كلِّ شيءٍ القدوةَ الحسنةَ.

النَّاشر

دار القادرية